جامعة الأزهر - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الخطاب النقدي المعرفي في روايات غازي القصيبي

Critical discourse of knowledge in the novels of Ghazi al-Gosaibi

إعداد الباحث:
محمد صالح خليل أبو طعيمه

إشراف الأستاذ الدكتور:
فوزي إبراهيم الحاج

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأزهر-غزة

1440هـ - 2019م

{وَهُوَالَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}

سورة الشورى: الآية ٢٥

الإهداء

إلى سيدتي الأولى والأخيرة في الحياة

"أمي"

إلى الصخرة التي تتحطم عليها مخاوفي

"أبي"

إلى سندي وسر قوتي

"أخوتي"

إلى الرحيمات الجميلات

"أخواتي"

إنكم هبة الله لي

شكر وتقدير

شكرًا لله أولًا وآخرًا

أما بعد:

"والحر لا ينسى الجميل وردِّه
ولَئنْ نسى فلقد أساء إلى الأدب"

فأول من كان لزامًا عليَّ شكره، والاعتراف بفضله وجهده الجهيد في إتمام هذا العمل، هو العالم الجليل **الأستاذ الدكتور: فوزي إبراهيم الحاج**، الذي فاق دوره الإشراف الأكاديمي، ليكون أبًا وناصحًا أمينًا لي، فالله أرجو أن يطيل بقاءه، ويحيه حياةً ملؤها الصحة والعافية والسعادة. ثم أشكر جامعة الأزهر الغراء، جامعة العلماء وعرفات، على ما قدمته من خدمةٍ للعلم وأهله، فلله درها من صرحٍ شامخٍ أصيل.

ثم عليَّ أن أتقدم بالشكر الجزيل للعالمين الجليلين، اللذين تكرما بالموافقة على مناقشة رسالتي والتعليق عليها، **الأستاذ الدكتور: عبد الجليل صرصور**– مناقشًا خارجيًا، **والأستاذ الدكتور: محمد صلاح أبو حميدة**– مناقشًا داخليًا، فجزاهما الله خير الجزاء، وأمدهما بالصحة والعافية، ولا أنسى أساتذتي الأجلاء الذين لم يدّخروا جهدًا ولم يكتموا علمًا عني وزملائي أثناء الدراسة التمهيدية للرسالة، وأخص بالذكر **الأستاذ الدكتور: محمد صلاح أبو حميدة**، على ما قدّمه من علمٍ وحبٍ أثناء الدراسة، ليترك أثرًا جليلًا في نفسي تجاه الأدب واللغة. كما أقدم الشكر لزملاء الدراسة وأحثهم على المضي قُدمًا؛ فهذا الطريق مطلبه عسير، وأتقدم بالشكر والعرفان للأسرة الثانية لي، مركز العائلة مصدر الرزق والأماني، ولكل من ضاق المقام بذكره، ممن ساعدني وكان معي.

شكرًا لكم،،

ملخص الرسالة:

تهدف الدراسة إلى تبيان آراء القصيبي النقدية في رواياته الفنية، في مختلف القضايا من المجالات الحياتية المتعددة، ولتحقيق هدف الدراسة، اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي مستعينًا بالمنهج السوسيولوجي كذلك، وقد جاءت الرسالة في تمهيد وثلاثة فصول، تسبقها مقدمة، وتتبعها خاتمة، أما التمهيد: فقد خصصه الباحث للحديث عن حياة القصيبي وأهم محطاته المهنية. الفصل الأول: تناول فيه الباحث ما يتعلق بالتجليات النقدية الأدبية في روايات الأديب، ضمن مبحثين الأول: شخصيات أدبية: وتحدث عن العديد من الأدباء الذين تناولهم القصيبي في رواياته. الثاني: قضايا أدبية: واحتوى على العديد من القضايا الأدبية والنقدية التي أثارها الروائي في رواياته. الفصل الثاني: استعرض فيه الباحث ما يتعلق بالسياسة من نقدٍ في روايات القصيبي، وفيه ثلاث مباحث: المبحث الأول: نقدُ الأحزابَ السياسية والجماعات الدينية، والثاني: نقد الحكومات والأنظمة العربية، والثالث: نقد المجتمعات الغربية والمنظمات الدولية. أما الفصل الثالث فهو الأخير: مجالات نقدية متفرقة، في مبحثين الأول تحدث عن النقد الإداري، والثاني: عن النقد النفسي والفلسفي، في روايات القصيبي، ثم خُتمت الرسالة بخاتمة تتحدث عن أهم ما توصل إليه الباحث، حيث إن القصيبي ناقدٌ موسوعيٌّ وشمولي، استغل رواياته في عرض وجهة نظره النقدية للحياة في مجالاتها المختلفة.

وقد خلصت الدراسة إلى أن الكاتب غازي القصيبي استطاع أن يسجل شهادته على عصره من خلال انتقاد السلبيات التي لاحظها سواء على المجتمعات العربية أو تلك الأجنبية، وكان نقده هادئا موضوعيا، وكثيراً ما كان يعبر في هذا النقد عن رأي المواطن العربي في كل مكان.

Abstract

The study aims to demonstrating the critical views of Al-Gosaibi in his artistic novels, in various life aspects. In order to achieve the study main goal, the researcher adopted the descriptive-analytical approach, Using the sociological approach as well.

.

The thesis has been structured into three main chapters preceded with a preface and followed by a conclusion. The introduction was devoted to talk about biography of Al-Gosaibi and the most important professional stations. Chapter I: The researcher focused on the literary criticisms and transfigurations in literary novels in two sub-chapters: the first talked the Literary Characters that Al-Gosaibi personified in his novels. The second sub-chapter: Artistic issues contained critical artistic issues which the novelist has raised in his novels .

Chapter II: The researcher reviewed the criticism for policy in the novels of Al-Gosaibi distributed onto three sub-chapters: The first topic: criticism of political parties and religious groups, the second: Criticism of Arab governments and Arab regimes, and the third: Criticism of Western societies and international organizations.

Chapter III: Various fields of criticism, in the first two sub-chapters, the researcher reviewed the administrative criticism, and the second: the psychological and philosophical criticism and in the Al-Gosaibi's novels, The thesis conclusion sums up with the most important findings , as Al-Gosaibi 's was an encyclopedic and universal novelist who employed his artistic work to demonstrate his critical points of view to life in various aspects.

The study concluded that the writer Ghazi Al-Gosaibi was able to record his testimony on his era by criticizing the negative aspects that he observed both in Arab and foreign societies. His criticism was calm and objective, and often included the opinion of the Arab citizens everywhere in his critical views.

جدول المحتويات

الإهداء ..... د
شكر وتقدير ..... ه
ملخص الرسالة: ..... و
Abstract ..... ز
المقدمة ..... ي
التمهيد 1
الفصل الأول: 17
النقد الأدبي 17
المبحث الأول: شخصيات أدبية: 18
المتنبي: 19
شكسبير: 32
الأدباء الغربيون: 36
المبحث الثاني: قضايا أدبية 47
الغزو التعويضي: 48
الترجمة: 51
السرقات الأدبية: 57
الغزل بالمذكر: 59
الشعر والإلقاء: 62
الحداثة: 64
الفصل الثاني 70
النقد السياسي 70
المبحث الأول: نقدُ الأحزابَ السياسية والجماعات الدينية: 72
أولًا: نقدُ الأحزاب السياسية: 72
ثانيًا: نقد الجماعات الدينية: 85
المبحث الثاني: نقد الحكومات والأنظمة العربية: 94
أولًا: الفساد الحكومي: 94
ثانيًا: الحكم الديكتاتوري، والديمقراطية العربية: 100
ثالثًا: السجن: 103
رابعًا: التضليل "الحقيقةُ الضائعة" 107
خامسًا: نقد الدبلوماسية العربية، والعلاقات الإقليمية: 112
المبحث الثالث: نقد المجتمعات الغربية والمنظمات الدولية: 115
أولًا: نقد المجتمعات الغربية: 115
ثانيًا: نقد المنظمات الدولية: 126
الفصل الثالث 136
مجالات نقدية متفرقة 136

المبحث الأول: النقد الإداري: 137
المبحث الثاني: النقد النفسي والفلسفي: 153
أولًا: النقد النفسي: 153
ثانيًا: النقد الفلسفي: 167
الخاتمة 180
قائمة المصادر والمراجع 184

المقدمة

المقدمة:

الحمد لله، خلق الإنسان، وعلمه البيان، الشمس والقمر له يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ثم وصى الإنسان بعدم الطغيان.

الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه، وكل شيءٍ في ابتداءٍ وانتهاءٍ إلّاه، أزليٌّ فلا حدود له.

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(الحديد:3)

والصلاة والسلام على من يَقصُرُ الكلامُ في مديحهِ، فلا الشعر ينصفه ولا الأقلام توفيه، صلى الله عليه وآله، ورضيَ عن صحابته الأطهار.

وبعد:

فإنه لا تزال الدراسات النقدية في مجال الأدب مشرعة بلا توقف، لا سيما في مجال الرواية، التي أصبحت منارةً أدبيةً إبداعية، يطّوف الباحثون بمداراتها المتعددة والمتجددة يومًا بعد يوم، ليجد الباحثون والنقاد فيها ملاذًا محببًّا، وبحرًا واسعًا فينقبوا في أعماقه عن الدرر المستجدة في كل حين.

ومن القضايا المستجدة والمستحدثة في نقد الفن الروائي ما آل إليه الباحث في هذه الدراسة، من دراسةِ تجليات الخطاب النقدي المعرفي في الرواية، لتكون روايات الأديب العربي السعودي غازي القصيبي، هي مجال هذه الدراسة، مع التنبيه إلى أن هذا الموضوع لم يتم دراسته قبل ذلك في روايات القصيبي، وأن الدراسات التي تناولت هذه القضية في الروايةِ ضئيلةٌ بشكل عام، وهذا ما سيشير إليه الباحث عند الحديث عن الدراسات السابقة.

لقد تنبه الباحثُ إلى أن مثل هذه الدراسة لدى أديبٍ كالقصيبي ممكنةٌ جدًا، خاصةً مع ما يتمتع به الكاتب من حضورٍ اعتباريٍّ في كافة المجالات الحياتية، فالأديب لم يترك شاردة ولا واردة إلا وتعرض لها في شتى المجالات، حيث الأدب والنقد، والسياسة، والمجتمع، والإدارة، وعلم النفس، والفلسفة، وغير ذلك من مجالات الحياة، عبر سيرته الغنية بالأحداث والتجارب، ولقد لفت الباحث إلى تلك الروايات، المعرفةُ الكبيرة التي تحتويها، فالمعرفة هي أخلاقية الرواية الوحيدة كما يقول ميلان كونديرا.

إن روايات القصيبي لا ينتهي موضوع الواحدة منها بانتهائها، بل تجد جذوره وامتداداته ومواقفه الثابتةُ في الروايات الأخرى للأديب، وقد حاول الباحث الاستفادة قدر الإمكان من مصنفات الكاتب الأخرى أثناء الدراسة، ليؤكد على ما يذهب إليه من موسوعية نقده، ليشمل كافة المجالات الحياتية تقريبًا.

كما أن الباحث قد اجتهد في إبراز التجليات النقدية في الروايات بالدرجة الأساس، وليس في إرجاع الأمثلة والنماذج البشرية والخيالية إلى الواقع، مستفيدًا من نصيحة الروائي في الصفحات الأولى من شقة الحرية بأن البحث عن الواقع في الخيال سيكون مضيعةً للوقت، ولا يعني ذلك أن الروايات منفصلةٌ عن الواقع، بل إنها استفادت من الخيال في توصيف الواقع.

ولقد لاحظ الباحث خلال مدة البحثِ أن الأحكام المسبقة كانت من أبرز الأسباب التي لم تُعطِ الأديب حقه في المعرفة والمتابعة لدى القرّاء المحليين على الأقل، وربما من بعض الباحثين! ففكرة أن

القصيبي وزيرٌ سعودي، تنأى بالقراء عنه، ولو نظروا لذلك المحتوى لعلموا ما يختفي خلف ذلك الاسم من وطنيةٍ وإيمانٍ بالقضية الكبرى للعرب.

انطوت الدراسة على مقدمةٍ تحدث الباحثُ فيها عن أهمية الموضوع والأسباب التي دعته إلى بحثه، ثم عرضَ لبعض الدراسات السابقة على هذه الدراسة، وبين أنَّ هذا الموضوع لم يعطَ حقه من البحث والدراسةِ مع أهميته، وأوضح بعد ذلك المنهج الذي اقتضته طبيعة تلك الدراسة.

كما اشتملت على تمهيدٍ عرض فيه الباحث بشكلٍ موجز لحياة الأديب، إذ لوحظ أن الحياةَ الحافلة المكتنزة بالتجارب والخبرات، والتي عاشها الأديب، هي التي أهّلته لأن يكون ناقدًا موسوعيًا في المجالات المختلفة من جوانب الحياة، كما يجب ألا يتم إغفال موقف الأديب من قضايا أمته، لا سيما القضية الفلسطينية، والتي تعرض لأزماتٍ دبلوماسيةٍ بسبب مواقفه المشرفة منها.

قسّم الباحث الفصول والمباحث بحسب المجالات المختلفة التي تناولها الروائي في رواياته، وهي الأدب، والسياسية، والإدارة، ونقد المجتمع والغرب، وعلم النفس، والفلسفة، "وتتبع كل مجال على حدة يعني أن نقوم بتفكيك الرواية ثم إعادة تركيبها من منظور جديد"[1] وهذا ما قام به الباحث، حيث إن الأسلوب الاستطرادي الذي وظّفه القصيبي في رواياته لا سيما العصفورية منها، وتباعد الأفكار وتفرقها في الروايات المختلفة، يحتم التفكيك ثم إعادة التركيب، كي يتم حصر كل نوعٍ من النقد في مبحثٍ واحد، ولتكتمل الرؤية التي يريد الكاتبُ أن تصلَ إلى المتلقي.

اشتملت الدراسة على ثلاثة فصول، أما الفصل الأول "النقد الأدبي" فاشتمل على مبحثين الأول بعنوان "شخصيات أدبية" ولم يُقصد بذلك الشخصيات المشاركة بالفعل القصصي بالدرجة الأساس، فقد ركز المبحث على الشخصيات الأدبية من شعراء وروائيين ونقاد وأدباء عرب وأجانب، تحدث عنهم الروائي في مختلف رواياته، وتناول حياتهم وأعمالهم، وأبدى رأيه فيهم وأعمالهم، وقد فاضل بينهم وعلّل تلك المفاضلة، وقد تتبع الباحث ذلك النقد لتكون الشخصيتان الأدبيتان الأبرز تجليًّا في روايات الكاتب هما: "المتنبي" و"شكسبير". وغيرهما من الشخصيات الأدبية التي أفرد الباحث لها نقاطًا للحديث عنها في ذات المبحث، وأخرى تناولها في حديثه حول القضايا الأدبية والنقدية في المبحث الثاني.

أما المبحث الثاني فبعنوان "قضايا أدبية ونقدية" تناول الباحث فيه أهم القضايا الأدبية والنقدية التي تجلت في روايات القصيبي، فكانت هناك العديد من القضايا المهمة في مجال النقد الأدبي، وقد دارت الدراسات بكثرةٍ حول بعضها، وأخرى كانت الدراسات النقدية محدودة فيها، وقد كان للقصيبي آراؤه وتوجهاته في كلٍ منها، فإما أن تكون تلك الآراء منبثقة من نظرةٍ عامّة، أو من رؤيته الخاصة، وقد بيّن الباحث قدر المستطاع مفهوم القصيبي الخاص لكل قضية من تلك القضايا.

أما الفصل الثاني "النقد السياسي" فقد اشتمل على ثلاثة مباحث، تناول الأول "نقد الأحزاب السياسية والجماعات الدينية" فللقصيبي مفهومه السياسي الخاص نحو كثيرٍ من القضايا السياسية الجدلية، والمتعلقة بشكلٍ أساسي بالقومية العربية، والقضية الفلسطينية التي عدّها القضية المركزية التي يدور حولها الصراع

[1] الرواية الموسوعية، ص1.

العربي مع إسرائيل والغرب، وقد كانت له آراؤه الجريئة تجاه العديد من الزعامات العربية، والأحزاب السياسية والجماعات الدينية، وقدم تجارب عملية في رواياته حول تلك الآراء لا سيما في روايتيه شقة الحرية والعصفورية، وبعض بطاقات رواية سبعة، لينتقل الباحث إلى المبحث الثاني "نقد الحكومات والأنظمة العربية" حيث تناول الباحث فيه قضايا الفساد الحكومي وأسبابه، والهوة ما بين الديمقراطية والديكتاتورية في الأنظمة العربية، وما يترتب على تلك الهوة من سجن وقمع للحريات، وتضليل إعلاميٍّ حكومي تجاه الشعوب المغلوبة على أمرها، وعرض كذلك للعلاقات العربية الدبلوماسية الخارجية، فالقصيبي قد أوضح ذلك في رواياته المختلفة، فهو السياسي والدبلوماسي الخبير.

أما المبحث الأخير من الفصل الثاني "نقد المجتمعات الغربية والمنظمات الدولية" فقد تناول فيه الباحث نقد الروائي للمجتمع الأمريكي والأوروبي، وكان نقده موضوعيًا حيث بين المثالب والإيجابيات في ذات الوقت، ثم تطرق لبعض القضايا الحسّاسة التي تعرّي تلك المجتمعات كالعنصرية وامتلاكها بل واستخدامها لأسلحة الدمار الشامل لا سيما الولايات المتحدة، وبين سيطرة اليهود على تلك المجتمعات في كثيرٍ من القضايا السياسية عبر اللوبي الصهيوني، ثم انتقل إلى المبحث الثاني الذي نقد فيه المنظمات الدولية لا سيما في رواية "دنسكو" التي عبر خلالها عن تجربته الانتخابية لمنظمة اليونسكو، واقتسام القوى العالمية لتلك المناصب، وتحكمها في سياساتها، وعبّر عن بعض التفاصيل والتجاوزات التي تدور خلف كواليس تلك المنظمات.

"مجالات نقدية متفرقة" كان ذلك عنوان الفصل الأخير من الدراسة والذي اشتمل على مبحثين، ليتناول ثلاثة مجالاتٍ نقدية مختلفة، المبحث الأول "النقد الإداري" والمبحث الثاني "النقد النفسي والفلسفي" أما النقد الإداري من المبحث الأول فقد كان محوره الأول والأخير هو محاربة البيروقراطية التي كانت العدو الأول للروائي في مختلف مجالاته الحياتية والأدبية إحداها بطبيعة الحال، حيث تتبع البيروقراطية في الجامعات وفي الحكومات وفي الأنظمة السياسية، والأمراض الخطيرة المترتبة عليها من رشوةٍ وفساد.

وفي المبحث الأخير كان "النقد النفسي" أولًا فتعرض الباحث إلى نقد القصيبي لقضايا شتى في علم النفس، من التحليل النفسي إلى التشخيص فطرق العلاج المتبعة فيه، فقد خاض الروائي العديد من التجارب الروائية في مختلف المصحات النفسية وقابل العديد من الأطباء النفسيين في أشهر المصحات النفسية في العالم، ليجعل ذلك النقد مبنيٌّ على علمٍ ودراية وتجربة. كان "النقد الفلسفي" آخر ما تناوله الباحث في الدراسة، حيث بيّن علاقة الفلسفة بالأدب، ثم بالرواية وبالنقد لينتقل بعد ذلك إلى نماذج فلسفية من روايات القصيبي، في العديد من القضايا التي تجلى نقدها في الروايات موضوع الدراسة.

أسباب اختيار الدراسة:

1. مكانة القصيبي بوصفه من أبرز أعلام الأدب في المملكة العربية السعودية، الأمر الذي أعطى لآرائه كثيرًا من الأهمية، نظرًا لصدورها ممن له باعٌ طويلٌ في الأدب، وفي السياسة وفي الإدارة وغيرها من الميادين الحياتية.
2. غزارة إنتاجه المعرفي، والأدبي بشكلٍ خاص، حيث للكاتب ما يربو على السبعين مصنف في شتى المجالات الأدبية "الفنية" والمعرفية، وما تضمنته من آراء ومواقف تبين مكانة الرجل الاعتبارية في شتى ميادين المعرفة والأدب.
3. عدم وجود دراسات– بحسب علم الباحث – تتحدث عن التجليات النقدية في روايات غازي القصيبي، صحيحٌ أن الدراسات متوفرة في الحديث عن النواحي الفنية في إبداعه الشعري والروائي، لكنها غير ذلك في الحديث عن موضوع الدراسة السابق ذكره.
4. ميل الباحث لدراسة نقدية تحليلية في روايات غازي القصيبي.
5. الإعجاب بالكاتب وإسهاماته الأدبية في مجال الشعر والرواية خاصة.

الأهمية التي تحملها الدراسة:

1. تبين آراء الكاتب النقدية في مختلف المجالات الحياتية من الأدب والسياسة والإدارة والنقد الاجتماعي وغيره، وذلك من خلال رواياته.
2. تسلط الضوء على كاتب له مواقفه من مختلف القضايا الحياتية في مجالاتها المتعددة، مع التنبيه على أن تلك الآراء التي تتناسب مع طبيعة الدراسة.
3. تفتح آفاق جديدة لدى الباحثين والدارسين لدراسة أعمال الكاتب.

أهداف الدراسة:

1. التعرف على آراء الكاتب النقدية الروائية في مختلف المجالات الحياتية.
2. التعرف على عملية مزج النقد الذاتي في العمل الروائي.
3. تسليط الضوء على عدد من روايات الكاتب ومقاربتها للقراء.
4. تبين مكانة الأديب المعرفية والأدبية من خلال تحليله للحالة العربية والعالمية من خلال الرواية.

حدود الدراسة:

1. **شقة الحرية، 1994.**
2. **العصفورية، 1996.**
3. **دنسكو، 1999.**
4. **سبعة "7"، 2003.**

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث خلال الدراسة المنهج الوصفي التحليلي كما استفاد من المنهج السوسيولوجي، وذلك للكشف عن الجوانب النقدية التي تعرض لها الكاتب في رواياته، والاستفادة من سيرته المهنية والأدبية في تحليل رؤاه ومعتقداته المختلفة.

الدراسات السابقة:

لم يجد الباحث دراساتٍ تناولت القصيبي الناقد من خلال فنه الأدبي، وجل الدراسات عن الكاتب كانت فنية بالدرجة الأولى، صحيحٌ أن هناك دراسات تنظيرية تناولت مفهوم الشعر لديه، لكن الباحث لم يجد دراساتٍ تتحدث عن النقد الموجود داخل المحتوى الروائي له، وعند البحث عن دراساتٍ سابقة تتعلق بذات الموضوع، لكن عند روائيين آخرين، وجد الباحث ما يلي:

* دراسة "الروائي ناقدًا– عبد الرحمن مجيد الربيعي نموذجًا" وعند الاطلاع على محتوى تلك الدراسة، وجد أن محتواها يتعلق بالنقد الذي قدمه الربيعي في مصنفاته وكتبه النقدية وليس داخل رواياته.

* الخطاب النقدي في الرواية العربية– الروايات الثلاثية نموذجًا" لمعاذ بشير المناصير، أطروحة دكتوراه ، وكانت هذه الدراسة تتعلق بالنقد داخل العمل الروائي، حيث إن تلك الدراسة سعت إلى تناول الخطاب النقدي من وجهة نظر الروائي داخل رواياته، وليس في أعماله النقدية الأخرى، وهذا ما تسعى إليه الدراسة التي يقدمها الباحث، تتبع النقد وتجلياته في روايات غازي القصيبي.

* بناء الشخصية في روايات غازي القصيبي، دراسة نقدية تحليلية، لسامي الجريدي، أطروحة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز.

* الرواية عند غازي القصيبي "دراسة نصية، عيضة بن محمد بن خضر، رسالة ماجستير، 1424هـ.

* الرواية الموسوعية عند غازي القصيبي، العصفورية نموذجاً"، فوزي إبراهيم الحاج، بحث مقبول للنشر في حولية كلية الآداب ، جامعة الكويت.

لقد استفاد الباحث من عدة مراجع تناولت أعمال القصيبي الروائية، وإن لم يكن لها علاقةٌ مباشرة بموضوع الدراسة، إلا أنها كانت سندًا في الكثير من الأمور التي تتعلق بروايات غازي القصيبي.

تقسيم الدراسة:

لقد قسّم الباحث الرسالة إلى مقدمةٍ وتمهيدٍ وثلاثة فصول، وخاتمة، وفق التقسيم الآتي:

مقدمة وتضمنت:

- أسباب اختيار الموضوع.
- أهمية الدراسة.
- أهداف الدراسة.
- منهج البحث.
- الدراسات السابقة.

تمهيد:

تناول الباحث فيه بإيجازٍ حياة الكاتب المهنية وتنقلاته الإدارية ومواقفه السياسية ورؤاه الخاصة لحل مشكلات الأمة العربية، والمؤثرات التي صقلت معرفته وسوغت له الكتابة بهذه الطريقة الموسوعية.

الفصل الأول: النقد الأدبي:

وقد تناول الباحث فيه تجليات النقد التي تتعلق بقضايا الأدب ونقده، في مبحثين الأول: شخصيات أدبية، والثاني: قضايا أدبية.

الفصل الثاني: النقد السياسي:

اشتمل على ما يتعلق بالقضايا السياسية في ثلاثة مباحث، المبحث الأول: نقدُ الأحزابَ السياسية والجماعات الدينية، والثاني: نقد الحكومات والأنظمة العربية، والثالث: نقد المجتمعات الغربية والمنظمات الدولية.

الفصل الثالث: مجالات نقدية متفرقة:

وفيه مبحثان: الأول: النقد الإداري، والثاني: النقد النفسي والفلسفي.

الخاتمة:

وفيها عرضٌ مختصرٌ لأهم ما ورد في البحث.

وبعد:

فما كان من توفيقٍ في هذا العمل، فمن الله وحده، هو صاحب الفضل والنعمة سبحانه، وما كان من نقصٍ أو خطأ، فهو ديدن النفس البشرية، حيث القصور ومحدودية العلم، وحسبي في هذا العمل أنني سعيت بكل ما أستطيع للارتقاء به، والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وبارك وسلم على النبي الأمي الأمين، والآل المكرمين، والصحب أجمعين.

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

الباحث

الجمعة 9 نوفمبر 2018م

الأول من ربيع أول 1440هـ

التمهيد

التمهيد:

اختار الباحث أن يكون التمهيد عن حياة القصيبي، وعن المراحل التي مر بها الوزير الأديب، لأسبابٍ عدة أبرزها، موضوع الدراسة الذي يتناوله الباحث، وهو "تجليات النقد في روايات غازي القصيبي" والتي لم تقتصر على النقد الأدبي فحسب، بل هناك أنواع متفرقة من النقد، كالنقد السياسي، والإداري، والنفسي، وغير ذلك مما سيتعرض له الباحث من أنواع النقد، فما الذي أهّل القصيبي ليكون ناقدا في هذه المجالات المختلفة؟ والإجابة ستكون من خلال استعراض حياة الأديب، واحتكاكاته الحياتية في مختلف المواقف، والتي ولّدت لديه خبرةً لا يُستهان بها في مجالات المختلفة من الحياة.

أما السبب الآخر، فقد كان من أسباب وأهداف اختيار الدراسة، سدُّ قدر من العجز الذي تعانيه المكتبة المحلية حول الكاتب، بل والعربية من غير الخليجية، فمن خلال البحث وجد الباحث أن غالبية الدراسات التي أجريت حول أعمال القصيبي، كانت سعودية أو خليجية، ناهيك عن بعض الأبحاث والدراسات التي أجراها المطّلعون حول أعمال القصيبي، فمن خلال مناقشات الباحث، وبحثه عن كتب القصيبي في المكتبات المحلية، وجد قدرًا كبيرًا من القراء والباحثين يجهلونه، رُغم إسهاماته الجليلة في الأدب نثرا وشعرا، الأمر الذي ألزم الباحث أن يتطرق لحياة القصيبي، لا سيما وأن الكثير من رواياته قد أخذت طابع السيرة الذاتية، فهو قد تعرض لحياته بمختلف مراحلها في رواياته المتعددة، وفي هذا خدمة واضحة وتمهيد للطريق التي يدخل منها الباحث إلى مباحثه.

كان القصيبي يعلم، أن إرثه الأدبي من شعرٍ، ورواية، سيؤول إلى مادة بحثٍ ودراسة، سواءً كان ذلك، حال حياته أو بعد موته، وكونه أديبًا وناقدًا، فإنه يعلم جيدًا، أنه لا بد للباحثين الرجوع للحياة التي عاشها الأديب؛ ليتسنى لهم التحليل، والوصف، وحصر المؤثرات التي صقلت شخصيته، فنجده يقول "لقد كنت أشعر خلال إعدادي رسالة الماجستير ثم أطروحة الدكتوراه أن مهمة الباحث تسهل إلى حد كبير إذا وجد أمامه شخصية مكتوبة بقلم الإنسان الذي يدور حوله البحث"[1]

ومهما يكن فليس هناك من يعرفك أكثر من ذاتك، والقصيبي يؤمن بذلك، وأراد أن يكف عن الباحثين من بعده عناء البحث، ويُغنيهم عن الحدس، والتخمين، والرجوع إلى المصادر الثانوية لمعرفته، فترك للباحثين والقراء، إرثًا كبيرًا عن ذاته، في كتابيه: "حياة في الإدارة" و "سيرة شعرية" وغيرهما من مؤلفاته.

"حياة في الإدارة" الذي يتناول فيه الكاتب سيرته منذ مراحل تعليمه الأولى، وحتى قرار تعيينه سفيرًا في "المملكة المتحدة" "بريطانيا" عام 1992.

حيث يروي فيه القصيبي تجربته الإدارية، وطريقته في إدارة المناصب التي تولّاها، ويحكي العقبات والمواقف التي تعرض لها، وكيفية تعامله معها؛ ليستخلص العبرةَ والعظةَ من خلاصةِ تلك التجارب، ويوجهها بدوره إلى الإداريين الشباب، الذين يؤمن بقدراتهم، كي يستفيدوا منها في حياتهم العملية، "هذا الكتاب موجه

[1] غازي القصيبي، سيرة شعرية، تهامة للنشر والمكتبات، جدة، ط3، 2003، ص7.

إلى القارئ العادي ... أما الفئة الأخرى فهي الإداريون الشباب، في القطاعين العام والخاص، الذين أرجو أن يجدوا في تجربتي الإدارية الطويلة بعض الدروس النافعة وأن يستخلصوا منها بعض العبر المفيدة."[1]

وبطبيعة الحال، لا تخلو جل مؤلفاته من طرفةٍ هنا وهناك، ديدنه في ذلك ديدن "الجاحظ" الذي احتذى أسلوبه لا سيما في آخر رواياته "العصفورية" إذ إن الجاحظَ رجلُ علمٍ وأدبٍ وجِد، ورُغم ذلك كان يورد الطرائف من حين لآخر دفعا للسآمةِ والملل، الذي قد يحيق بالقارئ.

أما كتابه "سيرة شعرية" فقد خصّه للقصيبي الشاعر، فتحدث عن بداياته في الشعر، وعن دواوينه التي كتبها، وظروف كتابتها، ومقاصد بعض قصائده، وعن أحداثه الشخصية التي أثّرت به كشاعر، وعمّن تأثر بهم من الشعراء، وأورد بعض أسئلة الصحافة التي كان يتعرض لها في مضمار الأدب.

أفرد الكاتب "سيرة شعرية" للحديث عن الشعر فقط، فهو يقول في مقدمة الكتاب: "يمثل هذا الكتاب سيرتي الشعرية ويقف عند هذا الحد لا يكاد يتجاوزه. بمعنى أن الكتاب يتحدث عني كشاعر فحسب، لا تلميذ، ولا كمدرس ..."[2]

ولم يتطرق فيه إلى الرواية! فهو في ذلك الوقت –بداية التسعينيات– لم يكن قد كتب سوى روايةٍ واحدة، وهي "شقة الحرية" عام 1994م، بينما كتب العديد من الدواوين الشعرية، ولم يكن معروفا إلا كشاعر، وفيما بعد صار يُعرف كشاعرٍ، وروائيٍ في آن واحد.

طفولته:

ولد غازي بن عبد الرحمن القصيبي، في عام 1359هـ الموافق 2مارس1940م، في محافظة الأحساء– من المملكة العربية السعودية، لأبٍ من نجد، وأمٍّ من الحجاز، وكلاهما بجذورٍ مختلفة، فالأبُ أصلُه من مدينة القصب، حيث أنّ جدَّه الأكبر ترك القصب وانتقل إلى حريملة، وقد كُنيَ بالقصيبي، تصغيرًا للشخص الذي جاء من القصب، وأما الأمُّ فأبوها أتى من تركيا، وأمّها من بيت الكاتب في الحجاز، وهذا يفسّر أشياءَ تتعلق بالمظهرِ على حد قول القصيبي، أثناء مقابلةٍ تلفزيونيةٍ له في برنامجِ "هذا هو" مع محمد رضا نصر الله، عام 1993م.

لم تكن والدةُ القصيبي سعيدةً بالانتقالِ من الحجازِ إلى الأحساء، فجو الأحساء في تلك الحقبة من الزمن، مغلقٌ نسبيًا مقارنة بالحجاز، فلا مرافق ولا تجهيزات أساسية، من ماءٍ وكهرباءٍ وغيرهما، حتى أن الأطباءَ لم يكونوا متوفرين في الأحساء، الأمر الذي ترك أثرًا كبيرًا في حياة القصيبي، إذ توفيت والدته بسبب إصابتها بمرضِ التيفوئيد، وقد كان عمرُه في ذلك الوقتِ تسعة أشهرٍ فقط، لتنتقل رعايته إلى جدته التي كانت رؤوما به، ليترعرع متأرجحًا بين قطبين رئيسيين أولهما، أبيه حيث الشدة والصرامة –إذ كان الخروج من

[1] غازي القصيبي، حياة في الإدارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1999، ص8.
[2] سيرة شعرية: ص7

الشارع محرما عنده مثلًا– وثانيهما، جدته لأمّه، التي كانت تتسم بالحنان المفرط، والشفقة المتناهية على "اليتيم الصغير"[1].

لقد عاش القصيبي، مرحلة طفولته الخمسية الأولى، في عزلةٍ وانطواء، فقد كان أصغرُ إخوته، وُلِد قبله حياة، وعادل، ونبيل، وكان بينه وبين نبيل الذي يكبره مباشرةً "خمس سنوات" ويعتبرُ القصيبيُّ هذا الفارقُ كبيرًا بمقاييس الطفولة، ولم يكن له أقرانٌ يلعبُ معهم، ويقضي أوقاته برفقتهم، بل كانت طفولته الأولى مسالمة، فكان يكتفي بمراقبة الحمام، الذي يعيش معهم في البيت، ويقضي الساعات الطوال معتزلًا، بينما أخوته كانوا يطاردون الحمام لقتله، وفي هذا الأمر يقول إنَّ النزعةَ السلميةُ متأصلة عنده –رحمه الله–.

كان القصيبيُّ الطفل، يقضي وقتًا كبيرًا، في صندوق عدة النجارة، ومع ذلك لم يترك هذا اللعبُ أثرًا في حياته، فهو يعجز عن وضع مسمارٍ على الجدار، أو تأدية أي عملٍ يدوي، إذ أنَّه يعتمد على الآخرين في أي عملٍ يحتاج مهارةً يدوية، في ماعدا الكتابة.

طفولةٌ مليئةٌ بعدمِ السعادة[2]، والكآبة، حتى قبل ولادته كانت البيئة التي ستكون مقر حياته في الدنيا مشبَّعة بالحزن، فقد تُوفي جدَّه لوالدتِه قبل ولادتِه بشهور، وبعد ميلادِه بشهورٍ توفيت والدته، والتي ربّته كانت جدة مفجوعةً بفقدِ الزوجِ والبنتِ التي توفيت قبل الأوان، فخمسٌ وأربعون سنةً لا يُعتبرُ عمرًا متقدمًا.

لا يذكرُ القصيبيُّ أيًّا من سنينِ الطفولةِ الأولى، التي قضاها في الأحساء، ويؤول ذلك متطفلًا على علمِ النفس، كما يتطفلُ على كثيرٍ من الأشياء –على حد قوله– فيقول مشخصا ذلك النسيان: "إننا نعرف من علم النفس، أن العقل الباطن، يطمس الذكريات الغير سعيدة، بمحاولةٍ لا نشعر بها، ويُحيي الذكريات السعيدة"[3] وبطبيعة الحال، سيبين الباحث، إن كان هذا التطفلُ على شتى أنواع العلوم، لدى القصيبي، حميدًا أم غير ذلك من خلال البحث.

المراحل المدرسية:

تبدأُ ذكريات الطفولةِ لدي القصيبي، فور وصوله إلى البحرين، وفي هذه المرحلة يكمن التأثير الأكبر في حياته، إذ ارتبطت بأشياء جديدة، أهمها الكهرباء، التي لم تكن موجودة في الأحساء، ومنذ ذلك الانتقال والقصيبي لا يستطيع أن يعيشَ في غرفةٍ مظلمةٍ حتى وفاته، ويطلق الباحث على هذه المرحلة –الثانية من طفولته– "مرحلة النور" فمن بعد الكآبةِ والعزلةِ والانطوائية، جاء النورُ الذي ارتبط بالكهرباء، لتنتهي مرحلة التريك والفانوس.

وقد انعكس هذا الأمر على سياسته عند توليه وزارة الكهرباء، إذ كان محبًا لتبذيرِ الكهرباء لأجل النور، وكانت هوايته مطاردة الذين يقفلون الأنوار لكي يفتحها.

---

[1] انظر حياة في الإدارة، ص12.

[2] حسب لفظه في لقاء مصور، يجريه: محمد رضا نصر الله، برنامج هذا هو، 1993، https://www.youtube.com/watch?v=3MxTEtWMowk.

[3] المرجع السابق، الموضع نفسه.

كان للمتطلبات الحياتية في البحرين، ضرورات انفتاح وحرية جديدة في حياة القصيبي الطفل، فكان لا بد له من أن يذهبَ إلى المدرسةِ مشيًا على الأقدام، وبذلك ينتهي حظر التجوال المفروض من والده، على الأقل فيما يتعلق بالذهاب إلى المدرسة والعودة منها.

وقد بدأ يتعرف على الأصدقاء، في السنة الأولى من الابتدائية، والتي كانت تسمى بالحديقة في البحرين، واللافت هنا؛ أن أصدقاءَ الحديقة، ظلوا مع القصيبي حتى الهِرَم.

إذًا انتهت العزلةُ وبدأ الانفتاحُ النسبيُّ في حياته، الأمرُ الذي جعل من البحرين، صدمةً حضارية في حياة القصيبي الطفل، وقد عاد إليها بعد سنينٍ طوال، سفيرًا لبلده على ما سيأتي.

أما حياته المدرسية والتي أَوَّلَها تأويلًا إداريًا بحتًا في "حياة في الإدارة" فقد كانت حافلة، لكن بعض المواقف فيها تركت أثرًا في حياته، فقد كان القصيبي دومًا متفوقًا، ويحصل على ترتيب ما بين الخمسة الأوائل، لكنه لم يكن يتحصل على المركز الأول، والسبب في ذلك حصوله على درجاتٍ متدنية في مادتي الحسابِ والرسم، وقد أورد القصيبيُّ قصةً في "حياة في الإدارة" حول معلمٍ ضعيف، مفتون بالسيارات، كان يدرسهم ثلاث موادٍ من ضمنها الحساب، وذلك في السنة الابتدائية الخامسة، والتي رسب فيها القصيبي مع أكثر من نصف الطلاب، ولولا تفوقه في باقي المواد، لرسب في السنة كلها، لكن المدير والمعلمين، رأوا أنه لا يجوز أن يرسب طالب متفوق، لأجل بعض الدرجات في مادة واحدة.

بعدما أنهى القصيبي المرحلة الابتدائية انتقل إلى المرحلة الثانوية مباشرة، فلم يكن في البحرين صفوف متوسطة.

الدراسة الجامعية:

التحقَ القصيبيُّ بالبعثاتِ التعليميةِ السعوديةِ خارجَ البلاد، لإكمالِ دراسته الجامعية، فكانت القاهرةُ هي محطته الجامعية لدراسة القانون.

وقد أظهر القصيبيُّ عداوةً مبكرةً للبيروقراطية من جهة، وجمود الأنظمة العربية من جهةٍ أخرى، لكنَّ هذه العداوةَ رسخت بقوةٍ أثناء دراسته في جامعة القاهرة، إذ تعرف على أنواعٍ متقدمةٍ من البيروقراطية، التي قرَّرَ محاربتها، وهذا ما لوحظ خلال حياته الإداريةِ أو كتاباتِه الأدبيةِ على حدٍ سواء.

اصطدمَ القصيبيُّ الجامعيُّ بجوِ المدنِ الكبرى، فبعدما كانت دراسته في البحرين أشبه بجوِ الأسرة، أُصيبَ بخيبةِ أملٍ خلال دراسته الجامعية في القاهرة، حيث لا أحدٌ يعرف أحد، ولا يأبه أحدٌ بأحد.

أنهى القصيبيُّ دراسةَ الحقوقِ في القاهرة، وعاد إلى المملكةِ السعودية، وأخبر عائلته برغبتِه الجديدة، إكماله دراسة القانون، في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنَّ رغبة أبيه لم تكن كذلك، فنصحه بالعمل في مجال التجارة، لا سيما العمل الذي تخصصت به العائلة، ونجحت به وكان عملها "تجارة اللؤلؤ" وغيرها من أنواعِ التجارةِ التي جاءت بعد ذلك عوضًا عن تجارة اللؤلؤ التي ضعُفت بعد ظهور اللؤلؤ الاصطناعي، لكنَّ الابنَ رفض، واللافت هنا أن الأبَ الحازم الصارم، قد تخلى عن هذه الصرامة بعد أن كَبُر أولادُه، بل وكان شديد

"الاحترام لاستقلالهم، ولم يحاول، قط، التدخل في أي قرارات شخصية يتخذونها، مهما كان شعوره نحوها، إلا بالتلميح الرقيق."[1]

ساعده والدُه بعد رفضه العمل في الحصولِ على بعثةٍ إلى أمريكا، لكنَّ الرياح تأتي بما لا يشتهيه الشاب الحقوقي، فتجبره الحالة الصحية لأخيه نبيل أن يغيرَ التخصصَ الذي كان يريد – الدراسات القانونية – في جامعات شرق الولايات المتحدة، التي حصلَ على قبولٍ في عددٍ منها، فنبيلَ كان يدرس بجامعةِ جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلوس، ولم يكن الموضوع الذي ينوي أن يتخصص فيه القصيبي – القانون الدولي – يُدرس في الجامعة، فقرر أن يدرسَ العلاقات الدولية، ليقضي في الولايات المتحدة الأمريكية ثلاث سنوات، في تعلم اللغة الإنجليزية، ثم في الحصول على الماجستير.

دراسة الماجستير:

كانت المحطةُ الثالثة والفارقة في حياة القصيبي، هي انتقاله للولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت صدمة حضارية من نوع جديد، وخلّفت أثرًا إداريًا لا يُمحى، فقد وجد الحد الأدنى من الروتين، بخلاف بعض البلاد العربية حيث خطأ كتابي في اسمه استغرقت محاولات إصلاحه، طيلة سنوات الدراسة، ولم ينجح في إصلاحه إلا قبيل صدور الشهادة.

فالبيروقراطية ضاربة بظلالها على مختلف مناحي الحياة الحكومية، والأكاديمية على حدٍ سواء في مختلف البلدان العربية –وهذا ما سيبِين عند الحديث حول النقد الإداري– بينما الولايات المتحدة كانت تختلف اختلافًا كليًا عنها، فالتسجيل يتم بيسرٍ وسهولة، والانسحابُ من أي مادةٍ أو امتحانٍ إرادي مسموح، والرقابة الذاتية في الامتحانات، ناهيك عن اختبارات الـ(Open Book) والحصول على رخصة قيادة، من الامتحان الطبي إلى النظري إلى العملي، لا يستغرق سوى صباح واحد، ومكالمة هاتفية واحدة كافية لربط منزلك، خلال ساعات معدودة، بخدمات الكهرباء، والغاز، والهاتف، وغير ذلك من تلك الأمور الفارقة بين حياة العرب والغرب في ذلك الوقت، والتي اختلفت بعد ترهل الإدارة الأمريكية، وقد أخذ الروتين يدخل كل شيء.

يعترف القصيبيُّ بأن مدة إقامته في الولايات المتحدة قد أثّرت فيه فكريًا وثقافيًا، وأوجدت لديه وعيًا إداريًا لم يكن يحمله من قبل.

ما بعد الماجستير:

أنهى القصيبيُّ دراسة الماجستير عام 1964م وعاد إلى المملكة، للعمل في مجال التدريس الجامعي، في جامعة الملك سعود، كلية التجارة، والتي أمضى وقتًا طويلًا فيها دون أي مهام، بل دون مكتبٍ أو حتى طاولة كما يخبر عن نفسه في غير موقع، فكان دوامه في المكتبة، وقد كانت أول مهمة أوكلت إليه بعد

[1] حياة في الإدارة، ص24

شهور، هي لصق صور الطلاب على استمارات الامتحان، ثم مراقبًا في قاعة الامتحانات، وبعد مدة، أُوكلت إليه مهمة التدريس، ولم يكن متذمرًا أبدًا وصبر حتى نال مراده.

وهناك توسعت علاقاته، ليتم اختياره بعدها مستشارًا قانونيًّا في اللجنة العليا المكلفة، بإنهاء النزاع السياسي في اليمن، وقد روى في كتابه "حياة في الإدارة" تفاصيلَ عمّا شاهده في اليمن، وقد ذُهل من حجم القوة المصرية فيها، حيث أسراب الطائرات، وأرتال الدبابات، وتعداد الجند، الذي يفوق النزاع في اليمن، واعتبر أن مكانه المنطقي هو الجبهة المصرية، على حدودِ إسرائيل، الأمر الذي دعاه إلى تغيير نظرة الإعجاب بالرئيس المصري آنذاك "جمال عبد الناصر".

كاد المبتعث القانوني يفقد حياته في اليمن، إذ تعرضت دار السينما في صنعاء، إلى هجومٍ بالقنابل، أثناء تواجده برفقة بعض أعضاء الوفد السعودي، ولم يغب حس الدعابة عن القصيبي – كما تمت الإشارة إلى ذلك في البداية – إذ وصف هذه الحادثة بقوله : "لا يدري أحد منّا، حتى هذه اللحظة، هل كان للهجوم علاقة بوجودنا أو برداءة الأفلام المعروضة"[1]

الدكتوراه:

إلى لندن هذه المرة، فهو على قناعةٍ بأن احتكاك الأستاذ الجامعي بأكثر من نظامٍ تعليمي، سوف يعينه على تأدية مهمته الجامعية بفعاليةٍ أكثر.

في خريف 1967م بدأ القصيبي، دراسة الدكتوراه في جامعة لندن، ووجد جوًا من الانفتاح والحرية، ونظامًا تعليميًا مختلفًا عن نظام التعليم الأمريكي، واختار موضوع رسالته عن الصراع في اليمن.

زواجه:

ويبدو أن للخريفِ قصةً مع القصيبي، ففي خريف 1968م أثناء تحضيره للدكتوراه تزوج القصيبي من المرأة التي يحبها، والتي لم يكن يتخيل نفسه مرتبط بغيرها، إنها فتاة ألمانية تُدعى "سيكرت" حيث كان والدها يعمل في مصنع يملكه والد القصيبي، الذي لم يعارض أبدًا اختيار ابنه لفتاةٍ غير سعودية، بل وغير عربية لتكون والدة أحفاده، لم يكن غازي القصيبي من أولئك الذين ينفقون الملايين لأجل حفل الزواج وولائمه، فلم يكلفه الزواج من مهرٍ وثيابٍ وهدايا وغير ذلك، أكثر من خمسةِ آلاف ﷼، استطاعت زوجته تدبير أمور بيتها بموارد قليلة، بل وطبعت رسالة الدكتوراه بنفسها؛ كي يستفيدوا من المبلغ المخصص لهذا الأمر من البعثة.

كانت الزوجة تقدر ظروف زوجها، ومتقبلة لكل تنقلاته من طالب، لأستاذٍ جامعي، وموظف كبير في الدولة، حتى أصبح وزيرًا ثم سفيرًا كثير الترحال والسفر، ولم تكن تتذمر بذلك، وكانت تتولى شؤون المنزل والعاملين فيه، ومعظم شؤون أولاده، ورُغم كل ذلك، كان له نصيبه من الواجبات البيتيّة، فيما يتعلق بملابسه واحتياجاته الشخصية.

[1] حياة في الإدارة: ص48

يقول معترفًا بفضل زوجته "لولا زوجتي، لما استطعت أن انصرف، بكل جوارحي إلى الخدمة العامة."[1] وقد أنجبت منه أربعة أبناء "سهيل، يارا، فهد، ونجاد"

[1] حياة في الإدارة، ص65

العودة للوطن:

عاد القصيبيُّ إلى الرياض عام 1971م، بعد سنواتٍ ثلاث قضاها في لندن، وقد أصبح بإمكاناته الجديدة، هدفًا لكثيرٍ من القطاعات التجارية والحكومية، إلا أنه استفاد من عودته للتدريس في الجامعة، من القيام بأعمالٍ جديدة، فقد أثبتت صلاحيته لأعمالٍ تجاريةٍ وحرة، فعمل في مكتب للاستشارات القانونية، نيابة عن صديقه – مطلب النفيسة – الذي سافر لدراسة الدكتوراه، وقد تساوى القصيبي مع صديقه في أخذ العمل كهواية، وليس كمصدر للدخل، إلا أن القصيبي قد بالغ في الأمر، فلم يعد يتقاضى شيئًا من هذا العميل إما لأنه صديق، أو لأنه يستحق النصرة المجانية، وهلم جرا من تلك الأمور التي دعت أن يكون العمل شبه مجاني، لا يأتي إلا بمصاريف المكتب فقط، بينما أصحاب الأعمال المشابهة كانوا يطلبون المبالغ الباهظة، لأجل أبسط الأمور.

إضافة إلى التدريس الجامعي، وإدارة مكتب الاستشارات القانونية، بات القصيبي كاتبًا في صحيفة الرياض، ومعدًا لبرنامج تلفزيوني أسبوعي، يتابع التطورات الدولية، باسم "أضواء على الأنباء" وقد حقق له هذا البرنامج من الشهرة ما لم تحققه دواوين ثلاثة نشرها قبله.

وعمل كذلك مستشارًا قانونيًّا في العديد من الجهات الحكومية، كوزارة الدفاع والطيران، وزارة المالية والاقتصاد الوطني.

لم يكن القصيبي في تلك المدة، يعيش حياةً رغيدة، فقد كان راتبه الأساسي من عمله الجامعي، ورواتب الأعمال الإضافية، بالكاد تكفي متطلباته وحاجاته الحياتية، إذ كان لديه العديد من الأقساط: قسط المنزل، السيارة، الأثاث، والمعدات الكهربائية. ونادرًا ما كان يفيض شيءٌ من الراتب، وإن فاض فإنه يشتري به الكتب.

العمادة:

يعتبرها القصيبيُّ، من أهم المراحل الإدارية في حياته، إذ كان عمره وقتها 31 سنة فقط، وحصل على منصب عميد كلية التجارة، بعد سنة واحدة من حصوله على درجة الدكتوراه.

كانت مرحلة غنية بالقرارات، والاجتماعات، والشغل الدائم، رغم أنها في ذلك الوقت – وربما إلى الآن – كانت منصبًا يتساوى في مهامه مع مهام ساعي البريد، حيث لم يكن أي من السلطات في يد العميد، ولا يستطيع البتّ في أي شيء دون الرجوع لمجلس الجامعة، لكن نظرة العميد الشاب للعمادة مختلفة، فحاول ضمن حدود صلاحيته، تجاوز القرارات الجامدة المعمول بها في الجامعة، فأصبح يتخذ قرارًا بقبول الطلبة الذين اقتنع بصلاحيتهم للدراسة، بناءً على معطياتٍ يراها مناسبة، حتى وإن لم تتوفر لديهم بعض شروط القبول التي وضعتها الجامعة، بنقصان درجة أو اثنتين مثلًا، كما كان يعطي الدرجات بسخاءٍ للطالب الذي يقف على شفا النجاح.

دفع بعجلة النشاط الثقافي والاجتماعي في الكلية إلى أقصى مدى، فبدأت تصدر المطبوعات والمجلات، وأُنشئت الجمعيات العلمية، ساعد في إقرار مناهج وتخصصات جديدة، وغيرها من الأمور التي تُحسب له، وعُرف بها في جامعة الملك سعود في الرياض.

لكنه ورغم كل ذلك كان يشعر بغربةٍ في العمل الجامعي، بسبب العزلة والجمود الذي يعانيه الجو العام، وعدم الاستفادة من الخبرات والطاقات الوطنية، والاستمرار بالسياسة المستهلكة والمناهج المقتولة بحثًا، وسيادة البيروقراطية، والعقول التقليدية المتحجرة.

الإدارة الحكومية:

ها قد بدأت مرحلةٌ جديدةٌ في حياة القصيبي، فمن الخريف إلى الربيع، ومن الرياض إلى الدمام، في ربيع 1973م قَبِلَ العميد السابق عرضًا حكوميا، يقضي بتعيينه رئيسًا للمؤسسة العامة للسكك الحديدية بدرجة "وكيل وزارة" والرتبة الخامسة عشرة، أمضى القصيبي في هذا المنصب سنتين، عمل خلالهما على تحسين الأوضاع القائمة، وتحسين شؤون الموظفين، وأبدى اهتمامًا ونجاحًا بينًا خلال عمله، الأمر الذي أهّله للوزارة فيما بعد.

خلال عمله في الإدارة العامة للسكك الحديدية، زادت علاقته بالأمير فهد، ولقاءاته به، وقد كانت تجمع كلًا منهما، الرؤية التنموية للمملكة، وقد بدأ تأهيل الأمير فهد للقصيبي بأن يصبح وزيرًا، فأشركه في رحلاته السياسية الدولية، وأصبح عضوًا فاعلًا في مجالس حكومية وأخرى إقليمية، تعرّف خلال هذا العمل إلى الملك فيصل، والأمير خالد ولي العهد، وغيره من الأمراء، وأصحاب الجولة والصولة من القيادة السعودية.

كانت إدارته قائمة على العدل والتنمية والإصلاح، رغم شح الموارد المالية لديه مقابل متطلبات حياته، ورغم توقيعه على أوراق تساوي بلايين الريالات، ظل القصيبيُّ ثابتًا على مبادئه لا يغيرها ولا يغريه شيء، ولم يخضع لابتزاز الرشوة أبدًا، إذ حاولت شركةٌ أجنبيةٌ أن تغريه بمبلغ "مليوني" ريال، لكي ترسو عليها مناقصة ما، لكنَّ القصيبي حرمها من دخول المناقصة عقابًا لها، ولم يعد أحد يجرؤ على تقديم الرشوة له بعد تلك الحادثة.

وزارة الصناعة والكهرباء:

بعد اغتيال الملك فيصل عام 1975م، تولى الملك خالد مقاليد الحكم، وبدأت الترشيحات للمناصب العليا في الدولة تتوالى على القصيبي، والتلميحات المتتالية بتعيينه وزيرًا، إلا أنه حافظ على سير عمله في الإدارة العامة للسكك، ولم يتوانَ عن واجبه أو يركن لما سيأتي، حتى تم تعيينه رسميًا وزيرًا للصناعة والكهرباء وكان في سن الخامسة والثلاثين، بعد عامين من توليه منصب المدير العام للسكك الحديدية في المملكة.

كان من تواضعه، أنه لم يُرجع توليه الوزارة لقدراته وذكاءه، وإنجازاته، "فها أنا ذا أقول، بصراحة، إن الظروف وحدها هي التي وضعتني على المقعد المليء بالأشواك"[1] يقصد بذلك المقعد "الوزارة" وكان يعترف بالجميل، فلم تفرض عليه الدولة أي أمر، كعقدٍ لتوظيف أي شخص، أو طرح لأي شركةٍ على سبيل المثال، فهو لم يتخذ قرارًا واحدًا وهو معذب الضمير، ويعترف بثقة القيادة السياسية فيه، ودعمها المتواصل له، ولا ينسب الفضل لنفسه أبدًا فيما أنجزه في الوزارات التي تولّاها فهو يقول: "كل ما قمت به كان بمال الدولة، تنفيذًا لسياسات الدولة، استخدامًا لصلاحيات سنّتها الدولة، عبر موظفي الدولة، واستنادًا إلى ثقة لا تعرف الحدود من القيادة في الدولة"[2]

كان من عادته، قبل أن يتقلد أيّ عملٍ جديد، أن يغوص في قراءات وبحث مستمر، حول طبيعة العمل الجديد، حتى يكون ملمًا بما هو ذاهب إليه.

أما الوزارة الجديدة فكانت بمثابة كيانٍ هجين، وكان على الوزير الشاب، أن يخوض معارك إدارية، لضم قطاعات تقع تحت سلطة وزاراتٍ موازية، إلى وزارته الجديدة، الأمر الذي وجد فيه القصيبيُّ شيئًا من العناء، مع بعض القطاعات، لكن الأمر لم يخلُ بالنسبة له من استفادةٍ إداريةٍ ودروس هامة.

اهتم القصيبي بقطاع الكهرباء، فقد كانت المملكة تعاني من مشكلة فيها، وكانت تنقطع من حين لآخر، ولم تكن تصل كل المدن والقرى، فأنشأ مؤسسة عامة للكهرباء، ونفذ العديد من المشاريع بالتعاون مع البلديات وباقي الدوائر، لتصل الكهرباء إلى كل المناطق.

وعن قطاع الصناعة، فقد وصفه "فاروق المؤيد"[3] بأنه "أبو الصناعة في السعودية" أسس القصيبي، شركة "سابك" الداعمة للاقتصاد الوطني السعودي، التي كانت تختص بالصناعات الأساسية، وغيرها العديد من المشاريع الصناعية الكبرى، والتي طرح أسهمها فيما بعد للمواطنين السعوديين، الأمر الذي عمل على تشجيع الاستثمار الخاص في المملكة، وقد أوجد خطة شاملة لتشجيع المنتج الوطني، وتوعية المواطن السعودي حول أهميته.

وقد عُرف عنه رحمه الله نشاطه الكبير في جولاته التفقدية، وزياراته المفاجئة للدوائر التابعة لوزارته، الأمر الذي أثار إعجاب المواطنين به، حتى بات الوزير الأكثر قربًا منهم.

حظي القصيبي بمساحة إعلامية، تفوق غيره من الوزراء والمسئولين الحكوميين، وكان يعتبر نفسه إعلاميًا قبل أي شيء، فقد كان على اتصالٍ دائمٍ مع الصحافة، ولم يكتم عنهم شيئًا، وكان يتقبل نقدهم بكل رحابة صدر، ولم يكن يقدم لهم أخبارًا روتينيةً أبدًا، بل كان يقدم لهم ما يهم المواطن، وكان يلتقي بالمواطنين والمراجعين كل يومٍ تقريبًا، في أوقات فراغه من العمل داخل الوزارة.

عمل على تنظيم العلاقة مع الزملاء – موظفي الوزارة – وضبط الأمور الإدارية الخاصة بهم، ولم يكن يتهاون في أي تقصيرٍ متعمد، ومع ذلك فقد وفر لهم العديد من الامتيازات، وكان إلى جانبهم دومًا، كما

[1] حياة في الإدارة، ص124
[2] حياة في الإدارة، ص126
[3] رجل أعمال بحريني مشهور.

عمل الوزير الشاب بشكل لافتٍ على التخلص من البيروقراطية ومحاربتها بشكل واضح خلال إدارته للوزارة، وأيّده بذلك ولي العهد الأمير فهد، الذي توطدت بينهما العلاقة أكثر خلال الوزارة، ولكنَّ الأميرَ كان يأخذ على الوزير اندفاعه.

كان القصيبي يعترف بالأخطاء إن وقعت منه، ويؤمن بالمقولة الشائعة "إن الذي لا يخطئ هو الذي لا يعمل"

وزارة الصحة:

خلال الحديث عن وزارة الكهرباء، اتضحت الرؤية العامة للقصيبي في وزاراته التي تولّاها، وليستمرُ الحديثُ مع وزارةٍ أخرى، والتي تولّاها بناءً على مبادرته لولي العهد الأمير فهد، الذي كان يشتكي مما تعانيه وزارة الصحة من إخفاقات، وعدم قدرتها على مواكبة التنمية في المملكة في ذلك الوقت، ليتصدى لها القصيبي عام 1982م وقد تحول الأمير فهد ملكًا للبلاد بعد وفاة الملك خالد، ويدرك القصيبي أن علاقة الناس مع وزارة الصحة يومية، بخلاف باقي الوزارات التي يتعامل معها صنفٌ محددٌ من الناس، ناهيك أن الناس يتعاملون معها وهم في أسوأ حالاتهم النفسية، وقد حدد الوزيرُ المشاكلَ التي تعاني منها الوزارة، من سلوك كبار الموظفين الرتيب وأعداء التنمية والتطور، والموظفين غير السعوديين من جنسياتٍ مختلفة، الذين جاءوا بغرض المال وسهولة وقوعهم بالإغراءات، إضافة إلى ترامي أطراف المملكة الأمرُ الذي يجعل من الرقابة عملًا شاقًا بعض الشيء، وغيرها الكثير من المشاكل.

بدأ القصيبيُّ جولاته التفقدية في المستشفيات، وبدأ بإجراءاته العقابية على المخالفين، وقد كان لا يزال في ذلك الوقت وزيرًا بالنيابة، حتى يتم تعيين وزيرٍ آخر لوزارته الأولى "الصناعة والكهرباء".

لم يكن القصيبيُّ يعاقبُ كل التجاوزات، فقد كان يستعين بأهل التخصص، ويحيل إلى الجهات الحكومية المختصة حسب نوع التجاوز، ويترك لنفسه التجاوزات الإدارية "يبقى نوع واحد من الأخطاء كنت أرى أنه يقع ضمن اختصاصي، واختصاصي وحدي، وهو التجاوزات الإدارية"[1] وكان يأمر بنشر الإجراءات التي تتخذ بحق المخالفين في الإعلام، دون ذكر الأسماء، وهو بذلك يقوم بعملية ردع، وإعادة ثقة الناس بوزارة الصحة، وقد قال الناس إنه ارتكب مذبحة إدارية بفصل ونقل العشرات من الموظفين، لكن الحقيقة أن "عدد المسئولين الذين أنهيت خدماتهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وعدد الموظفين الذين نقلتهم من موقع إلى موقع (استشاري غالبا) لا يتجاوز عدد أصابع اليدين"[2] ثم بدأ بضخ الدماء الجديدة في الوزارة بتعيين الشباب الأكفاء، وترقية الذين يستحقون، وباشر جولاته التفقدية للمستشفيات، بمعدل مستشفى كل يوم، الأمر الذي كان له نتيجة بينة، وقد كان الملك فهد يسانده في كل ما يجريه من تعديلات وإنشاءات وتطويرات، وهذا الذي أهّله للوصول إلى ما وصل إليه من انضباطٍ في الوزارة في غضون أسابيع.

[1] حياة في الإدارة، ص236.
[2] المرجع السابق، ص237-238.

كان للوزير لمسات شخصية مع كل موظف في وزارة الصحة، فكانت رسائل الشكر والتهنئة بالمناسبات، عمل بديهي بالنسبة له، أنشئت في فترة ولايته للوزارة جمعية أصدقاء المرضى، وانتشرت حملات التبرع بالدم، وإنشاء المستشفيات، وبدأ حملة ثقافية واسعة، من تغيير أسماء المصحات النفسية، وإنشاء المكتبات الصغيرة في المستشفيات، وحملات التوعية والإرشاد، وغيرها العشرات من المهام والقضايا مما يضيق ذكرها في هذا التمهيد، قام بها القصيبي، والذي تحول من وزير بالنيابة لوزارة الصحة إلى وزيرٍ أصيلٍ لها، بعدما رشّح غيره لوزارة الصناعة والكهرباء، بعد حوالي السنة.

إن اهتمام الصحافة الكبير بالقصيبي الوزير، سبب له الحرج مع الكثيرين، فهذا ولي العهد الأمير عبد الله يخاطبه بأنه أصبح لا يرى في الجرائد سوى صوره وأخباره، وكذلك زملاؤه الوزراء في المملكة أصابتهم الغيرة من القصيبي؛ بسبب حضوره الدائم في المشهد الإعلامي، وحتى وزراء الصحة في البلدان الأخرى أصبحوا يعيرون به من صحافتهم ومواطنيهم، لماذا لا يصبحون مثل وزير الصحة السعودي؟

ومع ذلك فقد كانت تلك الفترة كئيبة بالنسبة له، فأرواح الناس معلقة بقطاع يشرف عليه، وما يراه خلال جولاته، كان يسبب له الحزن الكبير، فكان يبكي في البيت بعد أغلب زياراته على ما يراه من مناظر في المستشفيات لا سيما حوادث السيارات.

لم تترك إجراءات الوزير العقابية في حق المخالفين، سوى أعداءَ وأفّاكين أثاروا حوله الشائعات، عن طغيان وزير الصحة في حق العاملين، مع أنه مع كل تحقيق لم يكن يثبت ذلك الأمر، لكن للملك حساباته السياسية التي تقتضي أخذ الحذر من كثرة الأعداء، وبدأت الفجوة عندما رفض الملك فهد بعض الإجراءات التي أراد الوزير أن يتخذها لأجل مصلحة العمل، ليقف الوزير عاجزًا عن التحرك في الاتجاه الذي يريد، كان للوزير إنجازات كبيرة في قطاع الصحة لا تزال إلى الآن تقترن باسمه في المملكة السعودية، وإصلاحات شاملة وكبيرة، لا أحد ينكر فائدتها الكبيرة، وتطوير على أعلى المستويات في شتى المجالات الصحية آنذاك، كل ذلك لم يشفع للوزير أمام أصحاب المصالح الشخصية، الذين زادت وشايتهم إلى حدٍ كبير.

بعدما رفض الملكُ الإجراءات التي أرادها الوزير، أعرب الأخير للملك بكل صراحةٍ أنه لا يستطيع البقاء في موقعه ما لم تُتخذ تلك الإجراءات، نصح الملك فهد الوزير أن يتذرع بالصبر، لكن القصيدة التي نشرها القصيبي في صحيفة الجزيرة كانت بمثابة الاستقالة، والتي كانت بعنوان "رسالة المتنبي الأخيرة إلى سيف الدولة" وكان مطلعها:

بيني وبينك ألف واش ينعب فعلام أسهب في الغناء وأطنب؟

صوتي يضيع ولا تحس برجعه ولقد عهدتك حين أنشد تطرب[1]

بعد أسابيعٍ من نشر القصيدة، تم إعفاء القصيبي من منصبه.

[1] جريدة الجزيرة،1983.

السفارة:

أولًا: سفير البحرين:

في عام 1984 وبعد أسابيعٍ قليلةٍ من إعفاء القصيبي من وزارة الصحة، طلب الملك من الوزير السابق أن يعود للعمل الحكومي سفيرًا للمملكة، اختار القصيبي البحرين، فلعائلته جذور قديمة ومتشعبة فيها.

لم يكن للسفارة من ارتباطات ومشاغل كالتي كانت للوزارة، فنظَّم السفير وقته بما يتلاءم مع طبيعة العمل الجديد، وأصبح يجد كل يوم ما لا يقل عن أربع ساعات، يقضيها في القراءة والكتابة.

ولم يغريه المنصب الجديد أيضًا، فسعادة السفير أو معالي الوزير، كلاهما بالنسبة له تكليف ووظيفة، وخدمة للوطن، وكان يرى بدوره أن علاقة المملكة السعودية مع المملكة البحرينية "تسير في طريقها المرسوم بقوة الاندفاع الذاتي"[1] وأن مهمته تبقى في ألا يكون حجر عثرة يعوق تدفق تلك العلاقات بين المملكتين.

بعد قرابة السنتين من وجوده سفيرًا في البحرين، أصبح السفير القصيبي، عميد السلك الدبلوماسي فيها، وقد عمل كعادته على تذليل الصعوبات، وإقالة العثرات التي تطرأ هنا وهناك في العلاقات التجارية والقانونية بين المملكتين، ولم تغب عنه النواحي الإنسانية، فقد كان يبذل جهده لمساعدة المحتاجين للعلاج في السعودية، هذا على سبيل المثال لا الحصر، ولم تغب عنه النواحي الثقافية والأدبية كذلك، فقد أصبحت ديوانية السفارة في البحرين ما يشبه الصالون الأدبي، إذ كانت ملتقً للأدباء والكتّاب في العديد من المناسبات الثقافية والوطنية للبلدين، وقد تحول بيته في البحرين بعد رحيله عن الدنيا إلى متحفٍ يرتاده الزائرون تحت مسمى "منامة غازي".

خلال وجود القصيبي في المنامة، كانت حرب الخليج الثانية تنشب أظفارها عام 1990م، لتبدأ القوات العراقية زحفها إلى الكويت، وتهدد الحدود السعودية، بل وجرّد الرئيسُ العراقيُّ المملكة السعودية من اسمها، فسمّاها بلاد الحجاز ونجد، ليبزغ نجم القصيبي من جديد في تلك الأزمة وتعود أضواء الإعلام مسلطة عليه، لينبري مدافعًا عن بلده السعودية وشقيقتها الكويت ويرد على صدام بالعديد من القصائد، التي كانت أبرزها قصيدة:

أجل نحن الحجاز

ونحن نجد

هنا مجد لنا

وهناك نجد

لتلحن مباشرة، ويغنيها الفنان السعودي الشهير محمد عبده، بناءً على تكليفاتٍ عليا.

تولى القصيبي من موقعه في المنامة الدفاع عن موقف المملكة في الصحف السعودية والأمريكية، من خلال مقابلاتٍ أتقن فيها مخاطبة المواطن الغربي وحكومته، بلغةٍ تفوق ما كان يستخدمه النظام العراقي في ذلك الوقت، فقد كان يدافع عن الكويت وعن موقف بلده فهو سفيرُها في إحدى بلاد الخليج العربي.

[1] حياة في الإدارة، ص287

تجلّت شجاعة القصيبي في تلك الأزمة، فزادت صفاته الكريمة صفة جديدة، وهي الشجاعة، إذ رغم محاولات التهديد بالاغتيال من النظام العراقي، ظل على ما هو عليه، حتى أن الأمير عبد الله قد أرسل له سيارته المصفحة، كما أرسل له الملك فهد فريق أمني لحمايته.

ثانيًا: سفير المملكة المتحدة "بريطانيا"

انتهت حرب الخليج الثانية، ولكنها كما ورد فيما سبق أعادت نجم القصيبي اللامع إلى السماء من جديد، ليقترح عليه الملك فهد، الانتقال إلى لندن ليكون سفير المملكة فيها، لتبدأ مهمته في عام 1992م.

أمضى القصيبي سنوات طوال في لندن، كان منزله فيها قبلة الأدباء العرب، ومركزًا هامًا للدبلوماسية السعودية في العالم، وقد تعرض الباحث لطريقة القصيبي في السفارة في البحرين، وكانت مهمته في لندن، ذاتها مهمة السفير في البحرين، لكنها كانت مرحلة كتابية دسمة، حيث كتب إثني عشر كتابًا أثناء فترة إقامته في لندن، والكثير من الشعر، الذي كانت إحدى قصائده كفيلة بأن تعيد التجربة ذاتها للقصيبي حيث أُقيل من وزارة الصحة بسبب قصيدة وجهها للملك فهد، وها هو يضع نفسه في أزمةٍ دبلوماسيةٍ في بريطانيا، على إثر قصيدة، نشرها تحت عنوان "الشهداء"، دعمًا لشهداء فلسطين، ولا سيما الاستشهادية آيات الأخرس، حيث أشاد بعملها، في مقابل بعض الفتاوى التي اعتبرت هذه العمليات انتحارية، حيث قال:

قل « لآيات » يا عروس العوالي

كل حسن لمقلتيك الفداء

حين يخصى الفحول ... صفوة قومي

تتصدى للمجرم الحسناء

وهكذا يُعفى من منصبه كسفيرٍ في بريطانيا للمملكة العربية السعودية، بعد عشر سنوات ليعود من جديدٍ إلى الرياض، عام 2002م.

وزارة المياه والكهرباء:

عاد القصيبي للرياض بلا منصب، لكنَّ القصرَ الملكي لن يتخلى عن رجلٍ قدَّم لبلده الكثير، وكان لسانها، والمنافح عنها في مختلف الأزمات، كانت فترة الوزارة قليلة فقد تولّاها في عام 2003 ونقل في 2005 لوزارة أخرى، لقد كانت وزارة المياه والكهرباء إيجابية بالنسبة له، فلم تكن تلامس حياة الناس بشكل مباشر كما في وزارة الصحة، ولم تكن هذه الفترة كافية حتى يبدأ تنظيمات وهيكليات جديدة في الوزارة، لينجو الوزير من مقصلة نقد الحاسدين المعتادة.

وزارة العمل:

في العام 2005 تصدى الوزير لآخر وزارة في حياته، إنها وزارة العمل، وكان الحملُ شاقًا جدًا، هذه المرة، والمشاكل كبيرة، فالوزير يعاني أوجاع المرض، والبطالة مستشرية في صفوف السعوديين، والعمالة الوافدة مكدسة، وتجارة التأشيرات قائمة، والقطاع الخاص مهلهل، ومع ذلك لم يمنعه أي من العوائق من القيام بمهام الوزير.

كان إيمانه قاطعًا بقدرات الشباب السعودي، فعمل على سعودة الوظائف، وبادر بذاته بذلك، فكان يعمل كل يوم لثلاث ساعات في أحد مطاعم الوجبات السريعة في جدة عام 2008، ليكون قدوة للشاب السعودي العاطل عن العمل، فليس هناك من إهانة في الحصول على الرزق من مصدرٍ شريف، لكن إرضاء الجميع غاية لا تدرك، والحصول على حلول سحرية لمشكلة البطالة التي تعاني منها، كل بلاد العالم، المتقدم والنامي على حد سواء، ضربٌ من المستحيل، ويحتاج وقت وتعاون كبير مع شتى قطاعات الدولة العامة والخاصة، وهذا ما عمل عليه الوزير.

نهاية الرحلة:

لكن الأجل لم يكن ليمهل الوزير الأديب ليكمل التنمية والإصلاح الشامل في وزارته، وقد زادت حدة المرض الذي ألمَّ به، حيث كان يعاني من سرطان في المعدة، أجرى على إثره عملية في الولايات المتحدة، وقد عاد منها ليقضي فترة نقاهة في مملكة البحرين، التي نُقل منها إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض، بعد تدهور حالته الصحية، لتعلن وفاته في الخامس عشر من شهر أغسطس للعام 2010م عن عمر ناهز السبعين، قضاها في خدمة وطنه وقضية أمته، حوت عشرات المؤلفات من كتبٍ، ودواوينٍ شعريةٍ، وروايات، وترجماتٍ لكتبٍ وقصائدٍ بلغاتٍ غير العربية، وإصلاحاتٍ إدارية كبيرة، حيث غيّبه الموت عن أربع وزارات وسفارتين، وعن عشرات المبادرات الإنسانية والاجتماعية الخيرية، التي كان يساهم فيها بشتى الطرق، وعن ملايين المحبين من المواطنين السعوديين، والكويتيين الذين دافع عنهم إبان حرب الخليج الثانية، وعن القضية الفلسطينية التي كانت همه الأكبر خلال كتاباته الأدبية، وعن الوحدة العربية التي كانت الديمقراطية هي الحل في الوصول إليها كما كان يعتقد رحمه الله.

لقد ساهمت هذه الخبرات العلمية والحياتية في مجال السياسة والإدارة والأدب، في تكوين الحس النقدي لدى الكاتب، إضافة إلى نزعة طوباوية متأصلة لدية تجعله يسعى دائما نحو الكمال، فإن لم يستطع الوصول إليه فإن في شرف المحاولة ما يكفي.

الفصل الأول

النقد الأدبي

المبحث الأول: شخصيات أدبية:

امتلأت روايات القصيبي عن آخرها بالشخصيات التي تناولها، سواء كانت هذه الشخصيات مشاركة في الفعل القصصي، أي في أحداث الرواية قولًا وفعلًا، أو كانت موضوع دراسةٍ، وحوارٍ، واستشهادٍ، وضرب أمثلة، وليس الموضوع هنا بالدرجة الأساس البحث في الشخصيات التي هي من عناصر الرواية، والمُشكِلة لأحداثها؛ وإنما الشخصيات التي تحدث عنها الكاتب، ودار حولها نقاشٌ وحوارٌ بين أبطال الروايات موضوع الدراسة، "اسمع، يا طبيب! أنا أتحدث عن الأشخاص لتوضيح الفكرة. الأشخاص لا يهمّون؛ ما يهم هو المبدأ. أستطرد فأذكر الأشخاص أحيانًا من باب الجوسب"[1] ويوضح معنى الجوسب بأنه: "الحديث المُحدّد عن أشخاص محدّدين، الحديث الذي يركّز على عيوبهم وفضائحهم ونوادرهم، سواء كانت حقيقية أو وهمية"[2] وعلى أية حال، فإن هذا المبحث، سيعمل على تتبع تلك الشخصيات في روايات القصيبي المختلفة، ويجلي أفكار القصيبي حول أولئك الأشخاص في رواياته، خاصةً "الشخصيات الأدبية" فقد تحدث الكاتب في العصفورية وحدها حول "مائتين وأربعين شخصية أغلبها من مجال الأدب ، يتلوه مجال السياسة"[3] وتُعتبر العصفورية من أكثر الروايات التي تحدث فيها الكاتب عن الشخصيات الأدبية، فالراوي قد قام باستحضار هؤلاء الأدباء من خلال العديد من تقنيات السرد، ودارت بينهم حوارات متعددة، فهو بذلك يشبه المعري في رسالة الغفران، ولكن هناك فوارق عدة بينهم، فالقصيبي لم يلتقِ أدباءه وشعراءه في الجنة أو النار، ولكنه التقى غالبيتهم في باريس، وبعضهم في الولايات المتحدة، وغيرها من الأقطار، ولم يكن الراوي يريد منهم أن يشهدوا بشاعريته، بل أراد أن يحكم عليهم ويبين آراءه فيهم، بل ذكر بعضهم على سبيل الذكر دون أن يثير أي مسائل حولهم، فقد كان يسأل الحكيم في العصفورية عن أسماء بمناسبة أو بدون مناسبة، ويذكر أشياء عنها كما سيأتي، وبدا كأنه يستعرض سعة اطلاعه وعلمه عامدًا فيقول: "لم يحدث في تاريخ العصفورية أن زارها إنسان مثلي. أنا لست إنسانا عاديا"[4] فكأنه يمهد للمتلقي أنه على موعد مع كمٍ هائلٍ من المعلومات بالنسبة لرواية، وأن عليه أن يكون متيقظًا، لما سيتلقاه من معلومات.

والتقى بآخرين كطه حسين، ونجيب محفوظ في شقة الحرية، واستحضر آخرين منهم قناعًا ولسانًا لبعض شخصياته، كالمرشح العربستاني في دنسكو، وكانت نقاشاتٌ شعريةٌ، تدور على ألسنة شخوص رواياته، كالشاعر والعميد في رواية سبعة، التي تطرق فيها الكاتب لبعض الأسماء الأدبية.

وسيتعرض الباحث خلال هذا المبحث، للنقد الذي قدَّمه القصيبي في رواياته للشخصيات الأدبية التي تناولها، والتي كان أبرزُها:

---

[1] غازي القصيبي، العصفورية، دار الساقي، بيروت، ط3، 1999، ص29.

[2] المصدر السابق، ص29.

[3] فوزي الحاج، الرواية الموسوعية عند غازي القصيبي "العصفورية" نموذجا، بحث مقبول للنشر في مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ص6.

[4] العصفورية، ص11.

المتنبي:

يُعتبر المتنبي عاملًا مشتركًا في كل أعمال القصيبي الأدبية، فقد ظل حاضرًا معه حال حياته في نقاشاته، وبعد موته في مئات الأبيات التي استشهد بها خلال رواياته، وتناصّاته الشعرية، في قصائده، في هجائه لأعدائه، وفي عتابه لمحبيه، بل كان على طريقته في شتى أحواله، فإن كان المتنبي قد سُجن وقُتل جراء شعره، فقد أُعفي القصيبي من عمله مرتين بسبب شعره، الأولى: في قصيدة العتاب التي وجهها للملك فهد بعنوان: "رسالة المتنبي الأخيرة إلى سيف الدولة" إذ كان القصيبي يرى في نفسه المتنبي، وفي الملك فهد سيف الدولة، والثانية: بعد قصيدة "الشهداء" في لندن التي فقد منصبه بسببها كسفير للمملكة السعودية في المملكة المتحدة.

من يقرأ كُتب القصيبي ورواياته، يدرك أن الرجل تعلق بالمتنبي، حتى حفظ ديوانه عن ظهر قلب، وأصبح لسان حاله، ففي العصفورية وحدها "أورد له الراوي مائتي بيت من الشعر، بعضها تمثل به في مواقف، وبعضها الآخر حشره حشراً داخل الرواية. في حين أورد مائة وخمسين بيتاً لباقي الشعراء."[1]

وسيتعرض الباحث خلال هذا المبحث للنقد الذي قدمه القصيبي في رواياته للشاعر المتنبي، وكيف وصفه، وتناول قصصه، وأشعاره.

فما سر التعلق الذي أبداه القصيبي صراحةً في جلّ أعماله بالمتنبي؟ ولماذا المتنبي دون غيره من شعراء العرب؟ وقد حفلت أمهات الكتب والدواوين بأسمائهم وأشعارهم! فهل لظروف الحياة التي عاشها المتنبي في طفولته وحياته علاقة بذلك؟ فالقصيبي ترعرع يتيمًا وكذلك المتنبي، وكلاهما نشأ في رعاية الجدة! وقد ورد ذلك عند الحديث عن القصيبي في التمهيد، ولمّا سُئل عن سر إعجابه بالمتنبي في إحدى المقابلات، أحال السائل إلى كتابه "عن قبيلتي أحدثكم" إذ يقول فيه "عبَّر المتنبي بصدق عن ظمأ هذه النفس، المتحرق إلى الأمجاد. وسخر من قيادات زمنه الأصنام التي لا تحمل عفة الأصنام، والأرانب النائمة بعيون مفتوحة ... هل يستطيع عربي معاصر أن ينكر أن هذه المشاهد العربية الأليمة لا تزال أمامنا بعد أكثر من ألف سنة من رحيل الشاعر؟"[2]

إذا يبدو أنه لا خلاف في حال العرب منذ ذلك الزمن وإلى الآن، فالمتنبي كان متبرمًا بالحال الذي عاشه في ذلك الوقت، عندما بدأت أمجاد الدولة العربية بالانهيار، ولا خلاف على أن أمجادهم اليوم منهارة بالكلية، فلم يأتِ اختيار القصيبي للمتنبي من فراغ "ولهذا الاختيار دلالة عميقة، فالمتنبي أكثر الشعراء العرب تبرمًا بعالم القرن الرابع الهجري (=العاشر الميلادي)"[3] ونجد أن القصيبي من أكثر الأدباء تبرمًا في زمانه، بشتى مجالات الفساد الحياتية، من سياسة، واقتصاد، واجتماع، وفلسفة، وإدارة، وقد وجد ضالته في شخصٍ يشبهه، صاحب همة عالية، ورؤى ثاقبة في مختلف الاتجاهات وهو المتنبي. "ويمكن اعتبار ديوانه هجاء للعصر الذي عاش فيه، وسائر العصور السيئة"[4]، فلم يكن المتنبي قاصرًا على زمنٍ محددٍ دون آخر،

---

[1] الرواية الموسوعية عند غازي القصيبي "العصفورية" نموذجا، ص5.
[2] غازي القصيبي، عن قبيلتي أحدثكم، منشورات دار الزمان، لندن، ط1، 2001، ص46.
[3] عبد الله إبراهيم، القصيبي والمتنبي، مجلة الرياض، عدد 16966، 2014.
[4] المرجع السابق، الموضع نفسه.

فالنفس البشرية واحدةٌ، وخلقها الله بطبائع، مهما اختلفت الأزمان فإنها متشابهة، فهذا الكريم وذاك الأناني، وهذا الضحوك، وذاك العبوس، وكل البشر يحزنون ويفرحون، مهما اختلفت الأزمان، لقد "كان المتنبي، ككل شاعر عظيم، قادرًا على تصوير النفس البشرية مجرّدة من قيود الزمان والمكان. لم يكن المتنبي يصور ضياعه وحده ولكن ضياع كل إنسان حين قال:

على قلقٍ كأنَّ الريح تحتي أوجّهها جنوبًا أو شمالا"[1]

ومن العوامل الأخرى التي قربت بين القصيبي والمتنبي، الأسلوب الساخر الذي اتبعه القصيبي خلال رواياته ولم يكن من بد أن يكون لسان حاله المتنبي، وقِناعه الأكثر قدرة على توصيل أفكاره ومعتقداته. "على أنه لا يمكن فهم طبيعة السخرية ووظيفتها في المدونة السردية التي كتبها القصيبي إلا إذا جرى شبكها بالمتنبي، فعلاقة القصيبي بالمتنبي علاقة شائكة ولكنها متلازمة؛ فقد اتّخذه قناعا لأفكاره ومواقفه وأحكامه، واستعاره نائبا عنه فيما كان يخطر له"[2]

ولعل القومية والالتزام من العوامل الرئيسية التي قربت بين القصيبي والمتنبي، فكلاهما حامل للهم القومي العربي، وملتزم بهمومه ولأواه، ولا نحتاج لدليلٍ من باحثٍ أو ناقدٍ على عروبة كليهما فدواوينهما طفحت بالعروبة، ويكفي من القصيبي أدلة من الروايات موضوع الدراسة؛ بما أننا ندرس رواياته وليس شعره.

"ولكني لم أتنكر لمبادئي القديمة. وضعت لنفسي هدفين رئيسيين: نهضة الأمة العربية، وتدمير إسرائيل."[3] فالبروفسور أفنى عمره باحثًا عن الطريق؛ للنهوض بالأمة العربية، بل وأهلك ثروته في سبيل ذلك، وتدمير الجسم السرطاني البغيض في جسد العروبة "إسرائيل" ، "حقيقة الأمر، أني في تلك الفترة مهتمًا بالهدفين القوميين أكثر من اهتمامي بالهدف الشخصي."[4] ولا يجب أن نغفل ما جاء من نقاشات، وهموم كبيرة في شقة الحرية بما يتعلق بالوحدة العربية "أريد القضاء على الانفصال. ليس من حق أحد أن يحطم دولة الوحدة"[5] "الموضوع يتعلق بمستقبل الأمة العربية. أي مجزرة اليوم ستعرقل عودة الوحدة غدا. لقد تمت المجزرة وانتهت. قُتلت الوحدة ودُفنت."[6]

أما المتنبي فقد قال الكثير:

وإنّما النّاسُ بالمُلُوكِ ومَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُها عَجَمُ[7]

وسر حبه لسيف الدولة كان دائمًا في أنه حامي حمى العرب، ومطهرهم من الغازي الأجنبي:

كَيفَ لا تَأمَنُ العِراقُ وَمِصرٌ وَسَراياكَ دونَها وَالخُيولُ

أَنتَ طولَ الحَياةِ لِلرومِ غازٍ فَمَتى الوَعدُ أَن يَكونَ القُفولُ[8]

---

[1] عن قبيلتي أحدثكم، ص47.

[2] عبد الله إبراهيم، القصيبي والمتنبي، س. ذ.

[3] العصفورية، ص146.

[4] العصفورية، ص158.

[5] غازي القصيبي، شقة الحرية، رياض الريس للكتب والنشر، د.م.ن، ط5، 1999،ص458.

[6] شقة الحرية، ص459.

[7] المتنبي، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط ، 1983، ص93.

[8] ديوان المتنبي، ص431-432.

بل بلغ اعتزازه بالعروبة حتى جعل العرب سيوفا:

تُهابُ سُيُوفُ الهِنْدِ وَهْيَ حَدائِدٌ فكَيْفَ إذا كانَتْ نِزارِيّةً عُرْبَا[1]

بدأ القصيبي حديثه عن المتنبي في العصفورية مستطردًا في قضية الحسد، التي جرّه إليها حديثه عن غرور العقاد، فقال: "الحسد! الحسد آفة العلماء والأدباء، والعباقرة عمومًا.

"كل العداوات قد تُرجى مودتها. * إلا عداوة من عاداك عن حسد".

والمتنبي كان مهووسا بالحسد. ولهذا سمّي ابنه مُحسّد. وأسميه أنا أبا حسيد. كان يعتقد أن كل الناس يحسدونه"[2] ويروي أن التسمية تمت في عالم الروح فيقول: "في عالم الروح، يا طبيب. وجدت نفسي أمام بوابة كبرى، ووجدت أمام البوابة رجلاً في انتظاري... عندها، قررت أن أسميه أبا حسيد"[3]

نجد الراوي يروي سبب تسميته للمتنبي بأبي حسيد، لأنه كان مهووسًا بالحسد، فهو يعتقد أن كل الناس يحسدونه حتى سيف الدولة الذي سيأتي خبره، وأما الذي عليه العلماء أن اسم ابن المتنبي هو محسّد، "ولا نعرف من أولاده إلا محسّدا."[4]

علاقة المتنبي بسيف الدولة:

لا يخفى ما لسيف الدولة من مكانةٍ عند المتنبي الذي لازمه تسع سنين كاملة، لم يمدح فيها غيره، بل إنه كتب فيه ما يزيد عن الثمانين قصيدة ومقطوعة، وأحبه حتى كتب أروع ما جادت به قريحته في حقه. "وليس من الإسراف في شيء أن يقال إن للمتنبي في سيف الدولة ديوانا خاصًّا يمكن أن يستقل بنفسه. وهو إن جمع في سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبي وأروعه وأحقه بالبقاء، بل من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقه بالبقاء"[5]

وسيتناول الباحث قصة المتنبي مع سيف الدولة، من خلال ما أورده القصيبي في رواياته، إذ تبدأ القصة من نهايتها عنده، أي من حيث القطيعة، فالبروفسور يحدث النطاسي[6] عن سبب القطيعة بين المتنبي وسيف الدولة، وهي أن سيف الدولة كان يحسد المتنبي، والسبب: لماذا يحسدك؟". قال: "كان سيف الدولة شويعرًا..."" ولا مجال للمقارنة بأي حال من الأحوال بين قصائد المتنبي ومقطوعات سيف الدولة، وإن كان بعض الأدباء يعتبرونه شاعرًا "وكان الأمير أديبا شاعرا له شعر يدل على طبع شاعر، ونقد يدل على ذوق سليم"[7] فهل كان واقعًا أن سيف الدولة يحسد المتنبي على مجده الشعري؟ لا يخفى أن سيف الدولة قد قرّب الأدباء والشعراء من مجلسه، وأجزل لهم العطاء، ولكنه كان رجل سيف قبل أي شيء، وأن الحاسدين هم حاشيته، الذين تعرضوا لازدراء المتنبي، إذ كان يعلو عليهم بقرب مكانته من سيف الدولة "وكلما أحس حب

[1] ديوان المتنبي، ص326.
[2] العصفورية، ص23.
[3] العصفورية، ص95.
[4] عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 2013، ص250.
[5] طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، د.م.ن، ط13، د.ت، ص169
[6] الطبيب الحاذق. وقد وردت في غير موضع من شعر المتنبي "يُعَلِّلُها نِطاسِيُّ الشَكايَا وواحِدُها نِطاسِيُّ المَعَالي
[7] ذكرى أبي الطيب، ص101.

الأمير له وتقريبه إياه ازداد ازدراؤه لغيره، واحتقاره لكل من سواه. ثم لا يكاد يقول شعرًا حتى يمتلئ به غرورًا وكبرًا"[1] الأمر الذي سيُقابل لا مُحالة بالحسد والنقمة والغيرة من حاشية الملك والشعراء الذين زادت وشايتهم بالمتنبي لدى الأمير.

ويكمل أن هناك سببًا آخر لقطيعة سيف الدولة مع المتنبي، ويكمن ذلك السبب في حب الأمير لجاريةٍ رومية أفرد لها قصرًا خوفًا عليها من غيرة بقية الجواري، وهام بها حبًا، حتى كتب فيها الشعر،

"راقبتني العيون فيك وأشفقت .. ولم أخلُ قط من إشفاقِ

ورأيت الحسود يحسدني فيك.. اغتباطًا، يا أنفس الأعلاق

فتمنيت أن تكوني بعيدًا * والذي بيننا من الود باقِ

ورب هجر يكون من خوف هجرٍ * وفراق يكون خوف فراقِ"[2]

وعرض ذلك الشعر على المتنبي، الذي لم يكن يجامل في الشعر "أنا لا أجامل في الشعر، يا بروفسور. أجامل في كل شيء إلا الشعر"[3]، فنقده المتنبي نقدًا مريرًا، لاسيما عندما أخبره أن مقياس الشعر الجيد أنك لا تستطيع أن تضيف إليه كلمة أو تحذف منه كلمة، وإذ به يحذف كلمة "اغتباطاً" من مقطوعة سيف الدولة لتأخذ القطيعة بالاستمرار.

وعند الرجوع لتلك الأبيات في كتب الأعلام تبين أن كلمة اغتباطًا لم تكن في الأبيات

ورأيت العدو يحسدني في ... ك مجداً يا أنفس الأعلاق[4]

فلماذا جاء بها القصيبي على لسان البروفسور، الذي كان يتحدث على لسان المتنبي، عن شعر سيف الدولة؟ بل إن صاحب الوفيات لا يعلم لمن نسبتها للحمداني أم لغيره؟! "ورأيت هذه الأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري، والله أعلم لمن هي منهما."[5]

أما في يتيمة الدهر فكان البيت:

وَرَأَيْت العذول يحسدني فِيك ... مجدا يَا أنفس الأعلاق[6]

فالبيت مختلف من كتاب لآخر، على ما ورد سابقًا، ولم ترد القصة التي أوردها القصيبي لا في وفيات الأعيان، ولا في يتيمة الدهر. والشاهد في الأمر، هل كان التحريف في بيت الشعر متعمدًا من القصيبي لاختلاق هذه القصة؟ فإن كانت الإجابة نعم، فيبدو أن القصيبي فعل ذلك لأمرين، لتثبيت نظرية الحسد التي قال بها، من أن سيف الدولة يحسد المتنبي، ثم انتقادًا لسيف الدولة، الذي يُفردُ قصرًا لأجل جاريةٍ روميةٍ أحبَّها، ويسرف في مال الدولة العربية، بينما البروفسور يسرف أمواله لأجل نهضة الأمة العربية وتوحيدها،

---

[1] مع المتنبي، ص259.
[2] العصفورية،ص24.
[3] العصفورية، ص24.
4ابن خلِّكَان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج:3، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1900، ص402.
[5] وفيات الأعيان، ص403.
[6] الثعالبي، يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج،1، تح: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص55.

فكأنه يريد أن يُظهر وجهًا من التاريخ لم يتطرق إليه أصحاب التاريخ، ودليل ذلك من العصفورية ذاتها إذ يقول البروفسور: "هذا، يا دكتور، ما قاله أبو حسيد، إلا أنه شاعر. والشعراء يكذبون."[1]

بل ويدّعي المتنبي على لسان البروفسور أن له علاقة حبٍ، مع والدة سيف الدولة فيقول: "اعلم أن حبيبتي الحقيقية هي أم سيف الدولة" قلت: "آر يوكدنج؟!". قال: "هذه هي الحقيقة يا بروفسور". قلت: "كيف تحب عجوزًا في سن أمك؟" قال: "عقدة أوديب!"[2] فتبدو هنا سخرية البروفسور بطريقٍ أو بأخرى من عقدة أوديب، التي يقوم عليها جانب كبير من التحليل النفسي، والنظريات الكبيرة عند فرويد فيما سيأتي الحديث عنه في مبحث النقد النفسي، ولكن القصيبي هنا يريدُ أن يُثبت هذا الأمر للطبيب النفسي الذي أبدى استغرابه من ذلك الأمر، بدعوى أن والدة سيف الدولة بعمر أمّ المتنبي، فكيف هو شعور الطبيب إن قال المتنبي إنه يحب أمه ذلك النوع من الحب؟! ولماذا اختار القصيبي أم سيف الدولة بالتحديد ليقول هذا، وذلك من وجهة نظره لأن "الرابطة كانت بين أبي حسيد وسيف الدولة كانت معقدة جدا. شأنها شأن التوائم جميعا. وأبو حسيد كان يعتبر سيف الدولة توأمه النفسي. ولهذا أحبَّ أم سيف الدولة."[3]

لقد كانت علاقة المتنبي بعائلة سيف الدولة مثيرة وشائكة "وأبو حسيد كان يعتبر سيف الدولة توأمه النفسي. ولهذا أحبَّ أم سيف الدولة. وأحبته أخت سيف الدولة. وحقد عليه ابن عم سيف الدولة. وحاول ابن العم الآخر قتله."[4] يورد القصيبي هذه المعلومات ومع ذلك يقول: "وهذا ليس موضوعنا الآن"؟! فلماذا يوردها؟ هل يريد أن يستظهر معلوماته ليبين مدى حبه للمتنبي واهتمامه به؟ وما مدى صحتها أصلًا؟ أما حبُّه لأم سيف الدولة فعقدة أوديب، وأما حبُّ أخت سيف الدولة له، فقد جاء ذكرها عندما تحدث المتنبي عن حب أخت كافور له، ولكن الراوي قد أجّل الحديث عنها "–برافو، دكتور ثابت، برافو! أنت، بين الحين والحين، تفاجئني مفاجأة سارة،. سمعت عن خولة؟! برافو لا أتحدث عن خولة الآن."[5] "وحدثني عن قصتك مع خولة" .ضحك حتى بدت له سنّ كافورية كان يخفيها، وقال: "خولة؟! سامح الله الأستاذ شاكر! ورطنا في قضية خولة. حقيقة الأمر أني لم أكن أحبها.. كانت تحبني من طرف واحد."[6] يريد القصيبي أن يبين عدم تأييده لمحمود شاكر، الذي قال بحب المتنبي لخولة، فلم يورد هذا الخبر أحدٌ غيره، وربما يستهزئ بهذا الرأي إذ جعل المتنبي يضحك حتى أبدى سنًا كافورية كان يخفيها.

أما ابن العمِّ الذي حقد عليه فهو أبو فراس الحمداني، "ولكنا نرى الرواة يتحدثون بأن خصوم المتنبي قد اجترءوا على مجاهرة الأمير بالنعي عليه والطعن فيه، حتى أنكر أبو فراس أن يعطيه الأمير ثلاثة آلاف دينار في كل عام أجرًا على ثلاث قصائد"[7] ولا يخفى كيف أن المتنبي قد حاز مكانةً كبيرةً عند سيف الدولة، الأمر الذي أوغر صدور الوشاة والحاسدين، وقد كان جلهم من حاشية الأمير، ومنهم ابن عمه "فليس غريبا

[1] العصفورية، ص25.
[2] العصفورية، ص96.
[3] العصفورية، ص156.
[4] العصفورية، ص156.
[5] العصفورية، ص46.
[6] العصفورية، ص95.
[7] مع المتنبي، ص261.

أن تكرهَ حاشية الأمير، ولا سيما الشعراء والأدباء من بينها، مقدم الشاعر وما صحبه من تهجم واستعلاء"[1] أما ابن العم الآخر الذي حاول قتله فلعله يقصد به: "وكانت أخت أبي فراس عند أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئا إليه عائذا به، وقدمه إلى سيف الدولة ففتح له بابا إلى الأمل ثم النعيم"[2] ولم يكن المتنبي حَسنُ العهد والوفاء لأبي العشائر "فكان هذا كله ميسرًا لشيء من الحلفِ الذي تم بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله جهرة في غير ذنب واضح يبيح دم رجل من المسلمين"[3] ولم تتوقف محاولات أبي العشائر عن النيل من المتنبي الذي تنكر له "وكذلك تعرض ذات ليلة في ظاهر حلب لجماعة من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه، ولكنه أحسن الدفاع عن نفسه ثم نجا"[4]

وعلى الرُغم من سخرية المتنبي بممدوحيه، إلا أنه لم يسخرْ يومًا لا من نفسه "أبو حسيد لم يضحك من نفسه قط. ولكنه ضحك من بقيّة البشر."[5] ولا من سيف الدولة، فقد استثناه من البشر الذين ضحك منهم، "أبو حسيد كان دائم السخرية من ممدوحيه، ومنهم هذا أبو البعارين. باستثناء سيف الدولة. لم يسخر من سيف الدولة قط. حتى بعد أن ساءت العلاقة بينهما."[6]

لقد تحدث القصيبي عن علاقة المتنبي بسيف الدولة أكثر من غيرها، وذلك ربما يرجع لطول مقام المتنبي عند سيف الدولة أولًا، وثانيةً: في أنه يرى سيف الدولة مثالًا يُحتذى به في قتاله للروم ومحاربته للغزاة، ولا يخفى أن القصيبي كان يرى في الملك فهد سيف الدولة، وفي نفسه المتنبي، وذلك بيّن في القصيدة التي ورد ذكرها في السابق، فهي تحكي المتنبي والقصيبي معًا، وما تعرضا له من حسد الحاسدين ووشايتهم، وما ترتب على تلك الوشاية.

صفات المتنبي لدى القصيبي:

أورد القصيبي كثيرًا من الصفات التي كان يراها، في المتنبي من أنه كان عبقريًا، وكان كثيرَ الطلبات ومزعجًا، خاصةً فيما يتعلق بالولاية والعطايا، والخبثُ بمعنى الذكاء، وفلسفته في شعره، وكثرة تنبؤاته، ومبالغاته الدائمة.

"التعامل مع أبي حسيد صعب جدا. التعامل صعب مع كل العباقرة. ولا شيء أسهل من التعامل مع السذج والأغبياء. ولكن أبا حسيد مزعج جدا. بالإضافة إلى كثرة طلباته، وكثرة طمعه، فهو كذاب أولمبي. لا تستطيع أن تصدق كلمة من كلمات أبي حسيد"[7]، "ضحك الخبيث حتى بدت له سن قرمطية، "كان الطماع يتوقع مساحة لا تقل عن 27.000كم مربعًا"[8] "ثم ينعطف أبو حسيد بغتة، وكثيرا ما ينعطف أبو حسيد بغتة،

[1] مع المتنبي، ص258-259.
[2] مع المتنبي، ص264.
[3] مع المتنبي، ص264.
[4] مع المتنبي، ص264.
[5] العصفورية، ص156.
[6] العصفورية، ص156.
[7] العصفورية، ص46.
[8] العصفورية، ص47.

فيأتي بفلسفة مالهاش داعي بالمرة"[1]، "وقد سبق أن أخبرتك أنه سُمّي المتنبي لكثرة تنبّؤاته"[2]، "وإن كان أبو حسيد يبالغ حتى في مبالغاته"[3]، "وقد كان أبو حسيد يحبّ المال حبّا جمًّا"[4] تلك مقتبساتٍ تبين الصفات التي وظفها الروائي في رواياته لوصف المتنبي.

هل سُجن المتنبي بسبب إدعائه النبوة؟

المصدر الأساس الذي قامت عليه كل الدراسات حول المتنبي، هو ديوانه، فهل وافق القصيبي مقدمة الديوان في هذه القضية؟ "وقد سمي المتنبي لادعائه النبوة في بادية السماوة من أعمال الكوفة. فلما ذاع أمره وفشا سره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيد فأسره ولم يحل عقاله حتى استتابه"[5]، بينما القصيبي لا يرى ذلك فيقول على لسان البروفسور: "قضى أبو حسيد عامين في السجن، ثم أطلق سراحه. لا أحد يعرف بالضبط، حتَّى هذه اللحظة، لماذا سُجن. المؤكد، في نظري على الأقلّ، أنه لم يسجن بسبب ادّعاء النبوّة. كان أيامها مراهقًا. ويستحيل أن يدّعي مراهق أنه نبي. خاصة إذا كان مراهقا ذكيًّا مثل أبي حسيد."[6] اللافت أن القصيبي أورد هذا الخبر ليصل بالمتلقي إلى رأيه في هذه القضية، وبعدما بيّن رأيه، أنطق الحكيم ليقول: "عفوًا، يا بروفسور! هل من الممكن أن نعود إلى القصّة؟" ليجيبه: "بكل سرور"

هذا رأي القصيبي، فالمتنبي لم يُسمَ بهذا الاسم لادعائه النبوة، ولكن لكثرة تنبؤاته، وأراد أن يبرهن على أن هذه القصة حقيقية وغير متخيلة، فأورد المدة الصحيحة التي سُجن فيها المتنبي "فأكبر الظن أن أبا طيب سُجن سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة . ولبث في السجن إلى سنة أربع وعشرين. ويؤيد قول بعض الرواة إنه حبس سنتين ما ذهبتُ إليه في هذه المسألة."[7] وقد رفض طه حسين الخبر الذي يقول بأن المتنبي قد سُجن لأنه ادعى النبوة "وأنا لا أتردد في رفض أنه ادعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها"[8] بل اعتبر ذلك من السخف، ويؤكد القصيبي على لسان راويه رأيه مرةً أخرى فيقول: "وها هو ذا أبو حسيد يتنبأ أن الكلاب ستخصص ذات يوم لصيد الثعالب. وقد سبق أن أخبرتك أنه سُمي المتنبي لكثرة تنبؤاته"[9].

السرقات في شعر أبي حسيد:

كان للقصيبي رأيٌ في السرقات التي نُسبت لأبي الطيب المتنبي "ثم إن لدينا قسمًا متخصصًا في وقوع الحافر على الحافر. – قسم حيوانات؟

لا يا عمّي! هذا اصطلاح. يستخدم عندما يسرق الشاعر بيتًا بحذافيره من شاعر آخر. وعندما يُضبط مُتلبسًا بالنشل يقول: "هاه! هاه! مجرد كوإنسدنسْ. حافر وقع على حافر". بعبارة أخرى، هذا قسم السرقات الأدبية.

---

[1] العصفورية، ص161.
[2] العصفورية، ص188.
[3] العصفورية، ص194.
[4] العصفورية، ص119.
[5] ديوان المتنبي، ص5.
[6] العصفورية، ص209.
[7] ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، ص78.
[8] مع المتنبي، ص99.
[9] العصفورية، ص188.

وأنشط زبائن هذا القسم هو المتنبي، وهو زبون متعب كثير الطلبات."[1] ويأتي بأمثلةٍ من الشعر الذي نُسب إلى المتنبي على حد قوله: "كما قال أحد الأمريكان في لاس فيجاس.

"ومن فتح البلاد بغير حرب * يهون عليه تسليم البلاد"

وهذا شبيه بشعر أبي حسيد، وكثيرا ما ينسب إليه، ولكنه ليس من شعره، كما ينسب إليه البيت الجميل الذي يقول:

"ستألف فقدان الذي فقدته * كإلفك وُجدان الذي أنت واجد"

وهذا، بدوره ليس من شعره."[2] وعند البحث في تحقيق البيت الأول: ومن فتح البلاد...، لم يُعرف صحابه، وأغلب من استشهد بهذا البيت سواء في علم البيان أو غير ذلك، نسبه إلى شاعر مجهول، وأما البيت الثاني ستألف فقدان...، فلابن الرومي، وكلام البروفسور صحيح في كلا البيتين من أنهما ليسا للمتنبي، فلماذا إذًا يورد القصيبي بيتين لا يختلف أحدٌ على أنهما ليس للمتنبي؟ رُبّما يوردهما استهزاءً بالآراء التي تقول بأن المتنبي سارقٌ في شعره، لا سيما وأنه أنطق الحكيم ليسأل: هل يتعلق هذا الأمر بالحيوانات؟! عندما سمع الحوافر في القصة، فالراوي يريد أن يجلب السخرية ليس منه هذه المرة، ولكن عبر محاوره.

وقد صُنف العديد من المصنفات، في سرقات المتنبي، ومساوئ شعره والمآخذ عليه، وفي لمحةٍ سريعةٍ لتلك المصنفات، يتضح لك القول الذي قصده القصيبي من وقوع الحافر على الحافر، فهل يوجد شعر بذاته، أي بيتًا تامًا سرقه المتنبي من غيره؟ جلّهم يتحدثون عن معانٍ سرقها المتنبي من غيره من الشعراء! وإن كان هناك شعرٌ نُسب إليه فيما بعد؛ فتلك مشكلة الرواة، والذين يعملون في تسجيل الشعر وتأريخه، وليست مشكلة المتنبي، ولا يخفى ما يكيله الدكتور طه حسين من اتهامات للشعر العربي عمومًا وللمتنبي خاصةً، فهو في خواطره المرسلة على حد تعبيره في كتابه مع المتنبي، لم يُرِدْ أن يدرس المتنبي، وأنه ذهب إلى باريس لأجل الاستجمام، وأنه لا يحب المتنبي أصلًا! وأنه لم يجد بأسًا في أن يثقل على نفسه، فيتحدث عن المتنبي مفسدا جو فرنسا الحلو[3] لذلك نجد القصيبي لا يألو جهدا في أن يدافع بطريقةٍ مواربةٍ عن المتنبي فينعت طه حسين بأنه "كان شكاكًا يشك في كل شيء، وفي كل أحد"[4] "ولا حتى الدكتور طه حسين الذي تتبع سقطات أبي حسيد كأن أمه قد نطحته. أم أبي حسيد. حسب علمي لم تكن تنطح."[5]

ولا يجد الباحثُ قولًا يُنصفُ المتنبي –من ادعاءات طه حسين، ومحمد العميدي، والحاتمي وغيرهم من النقاد والباحثين المشككين– أقرب إليه من قول الدكتور عبد الوهاب عزام: "والذي أراه أن الشاعر إذا أمده طبع شاعر، وعلم واسع فبلغ مكانة يخترع فيها المعاني أو يصور ما عرف منها تصويرا يُرى عليه طابعه، وكان لا يعجزه أن يخترع ويصور غير متطلع إلى ما سبق إليه – فهو شاعر ينطق ما في نفسه غير مفرق

[1] العصفورية، ص46.
[2] العصفورية، ص119.
[3] انظر كتاب مع المتنبي، ص8-9.
[4] العصفورية، ص20-21.
[5] العصفورية، ص150.

بين ابتداع واتباع، ويصور ما يدرك تصويرا يشبه الاختراع، ولا يعوزه النظر في كلام غيره قبل أن يقول ... إن كان الشاعر كذلك فعبث أن يعد عليه وما وافق به فلانًا، أو يوصم بأنه سرق من فلان."[1]

ويقول: "وكل ما سموه سرقات أبي الطيب ليس غرورًا في دهمة، ولا نجوما في ظلمة؛ ولكنه كلام يشاكل ما لم يدع فيه السرقة ويلائمه حتى ليدرك الناظر فيهما أنهما نتاج طبع واحد."[2] فلا يمكن أن نطعن بطريقٍ أو بآخر بالمتنبي بهذه الطريقة، مع العلم أن ديدن القصيبي كان وسطًا، فلم يكن يمدحه في كل الأمور أو يذمه في كل الأمور، على ما ورد سابقًا وما سيرد لاحقًا.

[1] ذكرى أبي الطيب المتنبي، ص345.
[2] المرجع السابق، ص345.

غزل أبي حسيد:

لم يثبت أن المتنبي أحب امرأة بعينها، وكتب فيها قصائد كاملة، فالغزل في شعر المتنبي نتفٌ متفرقةٌ في قصائده، جريًا على عادة القدماء، يقول البروفسور: " –حسنًا!. اعلم، في البداية، أن أبا حسيد نادرًا ما يكتب أشعار الحب. وعندما يكتبها نادرا ما يبدع. والسبب بسيط جدًا. السبب أنه لم يعشق امرأة. كان مشغولًا بحب نفسه. ومع هذا فله ومضات جيّدة من شعر الحب هنا وهناك." كان هذا رأي القصيبي في روايته العصفورية حول غزل المتنبي ويراه الباحث رأيًا منصفا، وقد تعرض المتنبي أكثر من غيره للنقد والتجريح والتشكيك من كثيرين، لكن آخرين رأوا خلاف ذلك "ليقل من شاء: إن الحب لم يخامر قلب المتنبي، وليقل من شاء: إنه كان غير مفتون بالمرأة؛ ... ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه في أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته، على أن توقن بأنه الفن والابتكار، ... وما علينا إذا كان المتنبي أحب أو لم يحب، ما دمنا نقع في كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة، وأرق ما يفيض به شعور المحبين."[1]

إن المتنبي لم تملك لبّه امرأة، لكنه تكلم عن المرأة في شعره، وكان شعره فيها ما بين صعودٍ وهبوط، تبعًا لمراحل حياته العمرية وتنقلاته ما بين بلاط وآخر، ولا يخفى أن آماله في الولاية والمجد السياسي قد ألهاه عن إفراد مساحات واسعة للمرأة في شعره.

النقاد وأبي حسيد:

لقد كان للمتنبي من الغرور، ما أغرى به كل من حوله للوشاية به، والحدِ من قدره حيث ذهب، ومن هؤلاء: النقاد في زمانه، والمعاصرون في زماننا بعد قرونٍ طويلةٍ من مماته، فيستغل هذه القضية الراوي ليعبر عن آرائه من خلال المتنبي "ومع ذلك لم يفهم النقاد. أنا أعتقد أن كل النقاد حمير". قلت "سامحك الله يا أبا حسيد"[2] ولا يكتفي بنعته للنقاد بالحمير مرةً واحدة فيكرر ذلك النعت على لسان المتنبي في ذات الرواية "وأنا لا أكره النقاد. أبو حسيد، سامحه الله، يعتبرهم حميرًا. أما أنا فأنظر إليهم نظرتي إلى الحلاقين. النقاد والحلاقون يجمعهم حب الثرثرة. والارتزاق من رؤوس الآخرين."[3] ورُغم ذلك فإن الباحث يجد القصيبي رحمه الله، يحمّل المتنبي آراءه من حين لآخر، فهذه نظرة القصيبي للنقاد الذين يثرثرون بلا طائل، سوى التكسب، والشهرة من خلال ما يكتبه في حق الشعراء، والمتنبي على وجه الخصوص، يأنفُ النقد والنقاد منذ أن كان صبيًا "والمتنبي في صباه قد ضم ثيابه على الغرور، وأعجب كل الاعجاب بما يبدو من خاطره، فلا يسمح أن ينظر فيه بنقد أو تغيير"[4] وربما هذا الأمر من الأسباب التي أدت إلى القطيعة بينه وبين النقاد، فغروره أكبر من السماح لهم بنقد أعماله.

---

[1] حسن علوان، المرأة في شعر المتنبي، صحيفة دار العلوم، مصر، 1963، ص200، http://hekmah.org/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A3%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B4%D8%B9%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%A8%D9%8A/

[2] العصفورية، ص96.

[3] العصفورية، ص166.

[4] المرأة في شعر المتنبي، ص194.

مقارنته بين مقصورة المتنبي ومقصورة ابن دريد:

لقد فضل القصيبي مقصورة المتنبي على مقصورة ابن دريد، ومع اعترافه بشهرة مقصورة المتنبي، إلّا أنه يعتقد أن مقصورة ابن دريد أشهر منها، بل ويُعرّض في الشاعر ابن دريد، ويؤول سبب شهرة مقصورته للحظ "ورغم أن مقصورة أبي حسيد مشهورة إلا أن مقصورة ابن دريد أشهر منها. رغم أن ابن دريد كان شاعرًا نص نص ولكن الدنيا حظوظ حتَّى في المقصورات" ولم يكن وحده القصيبي الذي فضل المتنبي على ابن دريد "هذه الألفة التي تجعل حكمة المتنبي شيئا نابضا بالحياة يختلف عن "حكمة" أبي العتاهية أو مقصورة بن دريد" التي حوت جميع المعاني"! هذه "الألفة" إما أن توجد أو لا توجد، صدقني! ودع عني تبريرات النقاد وتقعراتهم."[1]

ترجمة ديوان أبي حسيد:

لقد أبدى القصيبي تحسره في غير موضع من رواياته، حول عدم ترجمة ديوان المتنبي إلى لغات غير العربية، "كنت أنوي أن أترجم قصائد من ديوان المتنبي بالاشتراك مع سوزي كانت سوزي تحب الأبيات التي أترجمها لها من شعره بين الحين والحين ... لم يُترجم ديوان المتنبي إلى الإنجليزية حتى هذه اللحظة، يا نطاسي، مع أن كثيرا من الغثاءات ترجمت. ربما لصعوبة ترجمته. وربما بسبب الحسد الذي يتعقب أبا حسيد في حياته ومماته."[2]

تبدو الحسرة في كلام القصيبي من عدم ترجمة ديوان المتنبي، وشكواه بارزة للطبيب، ويعلل ذلك بسبب صعوبة شعره، وهذا وارد، فقد استشهد البروفسور بأبياتٍ من شعر المتنبي في قاعة المحكمة، وعندما سأل القاضي عن كلام البروفسور في المحكمة، أخبروه أنه يستشهد بأبيات من شعر المتنبي، وهذا ما فعله البروفسور في كل أسئلة القاضي له، وكان شيبوب وعنتر يحاولان ترجمة هذه الأبيات، فقاربا المعنى المُراد في ترجمة تلك الأبيات في بعض الأحيان، وفشلا في الأحيان الأخرى.[3]

لكن ترجمته ممكنة، فها هو يترجم بعض الأبيات وينشدها سوزي فتحب سوزي تلك الأبيات، ولكن السبب الذي يفترضه القصيبي هو الحسد، ويرى الباحث أن للحسد نصيبًا قليلًا في هذه القضية، فحركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى، وبالعكس، ضعيفةٌ في المجمل، وراكضة، وهذا ينسحب على الحالة العربية بالعموم، ويدعمُ هذا القول ما جاء به القصيبي في دنسكو "– المتنبي؟ الاسم ليس غريبًا عليّ. – بطبيعة الحال هل نسيت برنامج آرابيا؟ كان المفروض أن نترجم ديوان المتنبي، إلا أننا ترجمنا ونشرنا جزءًا صغيرا منه، ثم توقفنا لأننا اضطررنا إلى استخدام المبلغ في تمويل..."[4] فالعرب يفضلون أشياء أخرى كثيرة على العلم ومتطلباته.

---

[1] عبد الحميد المحادين، من ذاكرة البحرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص152.
[2] العصفورية، ص68.
[3] انظر العصفورية، ص81.
[4] دنسكو، ص74.

أبو حسيد والعَروض:

لم يتوقفْ نظمُ المتنبي على بحرٍ واحد، سهل كان أو صعب، فحتى الرجز حمار الشعراء قد نظم عليه المتنبي ليجاري بذلك النظم الشعراء، ويستعرض قدراته في النظم على مختلف البحور، عزيزها وقريبها، وليكون له يدٌ في كل لون "لكنه نظم في الطرديات من باب استعراض العضلات الشعرية ... من بحر الرجز. مع أن العرب، لسبب لم يشرحه أحد حتى الآن، كانوا يعتبرون الرجز أرذل الشعر"[1] وها هو يُحبُّ بحرًا يستثقله الشعراء، ويخافون مغبة السقوط فيه، فينكسر وزن قصائدهم. "رغم بحر المنسرح الذي هو أثقل من الضيوف الذين يعزمون أنفسهم على الغذاء. ولا يغادرون بعده. ومع ذلك، وله من هذا البحر أكثر من 15 قصيدة. وبالإضافة إلى البحر الثقيل، اختار أبو حسيد قافية ساكنة جاءت ضغثًا على إبالة ..."[2] فأبو حسيد يحب المنسرح "وهذه القصيدة من بحر المنسرح. وأبو حسيد يحبّ هذا البحر، كما سبق أن أخبرتك. ومعظم الشعراء العربستانيين المعاصرين يستثقلونه. البعض يستثقله من حيث المبدأ. والبعض يخشى أن يختل فيه"[3] فالشاهد أن القصيبي يريد أن يخبرنا من طريقٍ ما، أن المتنبي مبدعٌ، حتى في قدرته على النظم على كل بحرٍ أراده.

هل قُتل المتنبي بحثًا؟

يرفض القصيبي هذه المقولة بالنسبة للمتنبي؛ فهو يورد خلال رواياته عدة عناوين لدراسة شعر المتنبي في رسائل ماجستير. "كانت سوزي تحضر للماجستير في الأدب المقارن. كانت تنوي أن تكتب رسالة الماجستير عن وجوه الشبه بين شكسبير والمتنبي."[4] "ومرت الأيام يا نطاسي. وتخرجت أنا. وبدأت أحضّر للماجستير في علم الاجتماع المقارن. واقترحتْ سوزي أن يكون موضوع رسالتي تأثير البيئة الاجتماعية في شعر المتنبي."[5]

يبدو أن القصيبي يريد تشجيع الأدب المقارن، وتلك دعوة منه للباحثين، لمثل تلك الدراسات، فهو طالما ذكر ذلك في الرواية فذلك بمثابة التنظير منه لدراسة الأدب المقارن.

توظيف شعر المتنبي في الحوار:

لقد وظف القصيبيُّ المتنبي لسانًا في غير موضع من رواياته المتعددة، ناهيك عن الاستشهادات المختلفة بأبيات متفرقة من مكان لآخر، فالرجل مسكونٌ به لأبعد الحدود، فنجده مرةً يبدأ بالإنشاد من شعر المتنبي ترنمًا وطربًا "تعال يا أبا حسيد! أنشدني شيئا في الأطلال. أنا الآن، في مزاج طللي. هات، لله أبوك! "كيف التذاذي بالأصائل والضحى ... أحسنت! أحسنت! زدني! نعم يا أبا حسيد لمثلك يقال هذا! "لحاها الله

[1] العصفورية، ص188.
[2] العصفورية، ص160.
[3] العصفورية، ص164.
[4] العصفورية، ص70.
[5] العصفورية، ص72.

... إلا ماضييها ..."[1] فتشعر أن الراوي في حضرة الست أم كلثوم يترنم ويتمايل مع نغمات صوتها الشجي، "أنا الآن في مزاج شاعري. اسمع ما يقول أبو حسيد: "أزائرٌ يا خيال أم عائدٌ ... "[2] "قلت لنفسي: "هذى حزَّة من حزّات أبي حسيد." – عفوا، يا بروفسور! شو يعني حزَّة؟

–حزة تعني وقت. أي هذا وقت المتنبي. بدأت أترنّم بصوت جهوري أجش دافئ "تحمل المسكَ من غدائرها الريح،" ..."[3] والأمثلة كثيرة على تلك القضية في مختلف أحوال البروفسور، وهذا يقود بدوره إلى أمرين:

الأول: أن العاطفة عند المتنبي قويةٌ وصادقة، لدرجة الطرب، والتأثير القوي في نفس الإنسان.

والثاني: أن المتنبي يصلح لكل وقتٍ وحين، فأيُّ شيءٍ تريده، اذهب لديوانه تجده لينبيك عن حالك، سواء كنت حزينًا أو فرحًا مترنّمًا أو هائمًا، محبًا للوطن أو للفتاة، ساخطًا أو راضيًا، تجدُ ما خطر ببالك في ديوان المتنبي، وهذا ما دعا القصيبي لتوظيف شعر المتنبي لسانًا عن أمة العربِ قاطبةً في رواية دنسكو، فالمرشح العربي تكلم بلساننا "–سونيا! هل أنت جادّة؟ هل هناك إنسان لا يتحدث إلا شعرًا؟ –أنا جادة. ومرشح عربستان لا ينطق إلا شعرًا. –وهل يردد شعره هو أم شعر الآخرين؟ –لا يردد إلا شعر المتنبي."[4] ومن أجدر من المتنبي أن يكون لسانًا للعرب! وتجدر الإشارة إلى أن القصيبي كان يفعل ذلك كثيرًا، حيث كان يجيب على العديد من الأسئلة الصحفية بأبياتٍ من شعر المتنبي فقط، وقد رأى أن شكسبير، هو لسان الغرب؛ إذ وظَّفَ لسانَه ليتحدث بلسان أمته الإفرنجية وسيأتي حديث ذلك.

آراء متفرقة في أبي حسيد وأشعاره:

لا يسمح المقام بالتعليق على كل ما جاء به القصيبي عن المتنبي وآرائه فيه، ليكتفي الباحث بالصفحات السابقة حول هذا الموضوع، وإيراد إشارات لا يمكن إغفالها عن رأي القصيبي الواضح في بعض القضايا التي تتعلق بالمتنبي في الاقتباسات التالية، فهي مباشرةٌ في تبيان رأي الكاتب.

الطرديات:

"وأبو حسيد لم يكن من هواة الصيد. ولكنه نظم في الطرديات من باب استعراض العضلات الشعرية. والطرديات هي أشعار الصيد."[5]

الاعتذاريات:

"وأبو حسيد يرفض، ويرتجل من الاعتذارات ما يكاد يفوق اعتذاريات النابغة"[6]

[1] العصفورية، ص171.
[2] العصفورية، ص159.
[3] العصفورية، ص141.
[4] دنسكو، ص74.
[5] العصفورية، ص188.
[6] العصفورية، ص150.

الحربيات:

"لا يصبح الشاعر شاعرا ما لم تجئ في شعره، بين الحين والحين، بعض الصور المرعبة. وقد كان أبو حسيد الخبيث ملمًّا بهذه الحقيقة فأكثر من الصور المرعبة، خصوصًا في حربياته. "فكلّما حملت عذراءُ عندهم * فإنما حَلَمَتْ بالسبي والجمل"[1]

المبالغات:

"هذه مبالغة ممجوجة مثل مبالغات أبي حسيد. ولا يوجد ما هو ممجوج أكثر منها"[2] "لنفترض أني أبالغ بعض الشيء. المبالغة ليست جريمة تعاقب عليها القوانين. كما أن المبالغة ليست جريمة تعاقب عليها القوانين ... وإن كان أبو حسيد يبالغ حتى في مبالغاته."[3] وسيرد ذكر المبالغة في مبحث القضايا الأدبية.

لا يمكن أن يُقال "أخيرًا" في الحديث عن المتنبي في روايات القصيبي، فسيبقى المتنبي حاضرًا على امتداد المباحث التي سيتناولها الباحث، وهذا فرضٌ فرضه أسلوب الكاتب الذي لم يتخلَ عن المتنبي في أي روايةٍ أو قضيةٍ تعرض لها، حتى الفلسفةَ؛ فقد فلسف صاحبه المتنبي فيها قدر المستطاع، وقد عرضَ الباحثُ العديدَ من رؤى القصيبي النقدية حول المتنبي في الصفحات السابقة، التي قد توفيه حقه وقد لا تفعل، فالعمل البشري قاصر مهما بلغ.

شكسبير:

إن كان المتنبي هو لسان الأمة العربستانية في دنسكو، فإن شكسبير هو لسان أمة الفرنجة فيها، لقد اختار الأديب، شاعرين أريبين؛ ليعبرَ كلٌ منهما عن أمته ويمثلها، وقد ورد ذكر المتنبي، أما الآن فمع شكسبير ولا يخفى ما له من مكانةٍ في ميزان الأدب الغربي والعالمي على حدٍ سواء، وليس الموضوع هنا البحث عن شكسبير، فالمهم هو ما أورده القصيبي حول شكسبير، ولماذا شكسبير لسان الغرب، في مقابل عشرات الأسماء اللامعة في الأدب الأوروبي؟ فهل هذا الأمر يتعلق بقصور قراءة القصيبي في مجال الأدب الانجليزي كما يقول عن نفسه؟ "على أنني يجب أن اعترف أن الثقافة التي حصلت عليها من خلال مطالعاتي لم تخلُ من عدة ثغرات. أولها: أنني لا أتقن من اللغات الأجنبية سوى الإنجليزية وما يسببه هذا الجهل من قصور في الثقافة أمر لا يحتاج إلى بيان"[4]

ويؤكد ذلك بأنه ليس لديه الاطلاع الكافي في الأدب الغربي "ولا تتجاوز رحلتي في الأدب الإنجليزي شذرات ومقطوعات من هنا وهناك لشعراء قلائل هم شكسبير وبيرون وشيلي وجريفز..."[5] ومع ذلك فما أورده

[1] العصفورية، ص177

[2] العصفورية، ص74.

[3] العصفورية، ص194.

[4] سيرة شعرية، ص36.

[5] المرجع السابق ص36.

من أسماءٍ لأرباب الأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع...إلخ في روايته العصفورية، أدت بأدباء ونقاد إلى أن يُطلقوا على القصيبي بأنه كاتبٌ موسوعي، وأن روايته العصفورية هي رواية موسوعية "تقوم هذه الدراسة على فرضية أن الكاتب يضع الأساس للون جديد من ألوان الرواية هو الرواية الموسوعية ، وتسعى الدراسة– في الفصل الأول– إلى إثبات ذلك من خلال إظهار الكم الهائل من المعارف والمعلومات والتلميحات والشخصيات الأدبية والتاريخية والحوادث التي يسوقها القصيبي في روايته"[1] فهل ارتضى القصيبي بشكسبير أن يكون اللسان الأوروبي في دنسكو لأنه لا يعرف غيره؟ هذا أمرٌ مستبعد؛ لما للقصيبي من اطلاعٍ واسعٍ في مختلف الآداب، وروايته العصفورية تشهد على ذلك، وإن كان القصور في اطلاعه كما يقول هو عن نفسه، فإن اختياره لشكسبير لم يجئ عن قصور، فيكفي ما شغل شكسبير به الدنيا بأعماله الخالدة.

هل هناك شبه بين المتنبي وشكسبير؟

يقول البروفسور في العصفورية: "كانت سوزي تحضر للماجستير في الأدب المقارن. كانت تنوي أن تكتب رسالة الماجستير عن وجوه الشبه بين شكسبير والمتنبي."[2] فهل هناك وجوه شبه بين المتنبي وشكسبير؟ قد يكون ذلك الشبه موجودًا بين هذين الشاعرين، وعلى أية حال، لا يُتوقع في جزء من مبحثٍ أن يصل الباحث لذلك الشبه، فهو كما قال البروفسور يحتاج لرسالة ماجستير، أو حتى أطروحة دكتوراه فلكلٍ منهما قدر كبير من الأعمال، التي تحتاج إلى دراسة منفصلة بذاتها للوصول إلى ذلك التشابه، ومجاله بطبيعة الحال، الأدب المقارن، فقد يقول العرب: إن المتنبي أعظم من شكسبير، وقد يقول الغرب خلاف ذلك، ويعتقد الباحث أن هذه الأحكام، إن لم تَقُمْ على دراسةٍ علميةٍ وافيةٍ، أو محكّمةٍ على الأقل فليس لها قيمة، لأنه يجب الأخذ بعين الاعتبار عدة أمور كمقتضيات البيئة والزمان الذي عاش فيه كلٌ من الشاعرين، وهل تستوي أوروبا في القرن السادس عشر للميلاد، مع بلاد العرب في القرن العاشر الميلادي؟ وهل الظروف التي عاشها المتنبي هي ذاتها ظروف شكسبير؟ وهل تطلعات المتنبي وتطلعات شكسبير كانت واحدة؟ أين الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة من هذا القول والتعميم؟ وأغلب الظن أن تلك الأقوال التي تُلقى هنا وهناك تنبع من باب الغيرة على العربية، وشعرائها في مقابل الغرب، إن الأدب إنسانيٌ يفهمه العالم أجمع، لا سيما إن اهتم أهله بإعلاء شأنه وإيصاله للناس، فشكسبير تُرجمت أعماله إلى كل لغات الأرض، لذلك نال تلك الحظوة بين غالبية القراء في العالم، مع الإقرار بقيمة أعماله. أما المتنبي الذي قد يعتبره العربُ أعظم من شكسبير، فلم يترجموا ديوانه إلى الانجليزية حتى! وهذا ما ورد أثناء الحديث عن المتنبي.

لا ريب أن هناك وجوه شبهٍ عامةٍ بين الأدب الانجليزي والعربي بشكل عام، ولكن القصيبي يريدها علمية خاصة بالمتنبي وشكسبير، وليس أحكامًا عامة، تنتهي بالمفاضلة بين الشاعرين.

التشكيك في وجود شكسبير، وفي نسبة مسرحياته إليه:

[1] الرواية الموسوعية، ص1.
[2] العصفورية، ص70.

يعرض الراوي لهذه القضية، فيبدأ بالتشكيك بوجود شكسبير أصلًا! "هل تعرف أن عددًا متزايدًا من الباحثين يشكّكون في وجود شكسبير؟"[1] إن الكثير من المنكرين على شكسبير ادعوا أنه لا وجود له، وأن هذه المؤلفات ليست له، ونُسبت إليه لظروف واعتبارات لدى أصحابها، إذ إنهم لا يريدون الظهور في الصورة، إما لأنهم قساوسة أو نبلاء، أو غير ذلك "وأساس هذا الشك أن الرجل المعروف باسم شكسبير في التاريخ الصحيح أقل من أن تُنسَب إليه رواية من روايات المجموعة بجيدها ورديئها على السواء، وأن كل رواية من هذه الروايات أتم وأعلى من أن ينهض بها ذهن شكسبير، بما صح في التاريخ من دلائل ثقافته ودرايته ومقدمات استعداده"[2]

لقد تعرضت العديد من أعمال شكسبير للتشكيك في نسبتها إليه، وقد تطرق القصيبي لهذه القضية في العصفورية أيضًا "في الماضي، قال من قال إن مؤلفات شكسبير من وضع فرانس بيكون[3]. والآن ظهر من يقول إن هذه المؤلّفات من وضع لجنة. لجنة؟! يا نطاسي والسبب؟! السبب، يا نطاسي، أنه لا يمكن، أن يلم شخص واحد بهذا الكم الهائل من المعلومات الجغرافية والتاريخية واللغوية والنفسية إضافة إلى الموهبة الشعرية والدراما"[4] وفي الواقع إن ذلك صحيح، فالتشكيك طال العديد من أعمال شكسبير مثل "بركليس" و"تيتس" التي اعتبرها بعض النقاد دعيّةً في نسبتها إليه، وبعضهم عدّها مجهولة النسب، اضطر صاحب المسرح إلى تمثيلها فأعمد بها إلى الشاعر لكي يداري عيوبًا فيها، ويعمل فيها قلمه. وغيرها رواية "هنري السادس عشر" بأجزائها الثلاثة، فقد قيل إنها عمل أكثر من أديب، وهذا ما اصطلح عليه البعض "لجنة" كما شككوا في رواية "ترويلسي" و"كريسد" وأخذ كل منهم يسوق المبررات التي دفعته للتشكيك في هذه الأعمال أنها لشكسبير، وقد حاول بعض النقاد تبرير ذلك باعتبارات مختلفة كالبواكير والنهايات، وبما يتلاءم مع نوع المسرحية[5]، لا سيما وأنها تُمَثل أمام الناس.

ومهما يكن من تشكيكٍ في بعض روايات شكسبير، وبعيدًا عن المغالين الذين نفوا أعماله بالكلية، فـ"إن اليقين الذي نملكه –حتى الآن– يكفي لدراسة شكسبير، فمهما نأخذ أو ندع من تلك الظنون والشكوك فنحن على يقين من كيان العبقرية التي ندرسها باسم شكسبير"[6] ومن نافلة القول أن يُذكر التشكيك الذي طال المتنبي في ديوانه، وهذا من وجوه التشابه بين المتنبي وشكسبير –بالنسبة للقصيبي على الأقل– وما يؤيد رفض القصيبي لهذا التشكيك، نسبته هذا الأمر للحسد الذي كان يعاني منه المتنبي قبل شكسبير "سبحان الله! حسد يا دكتور، حسد!. "حتَّى على الموت لا نخلو من الحسد" ... وهؤلاء يحسدون شكسبير على مواهبه. لجنة؟! هل سمعت أسخف من هذا الادّعاء؟"[7]

---

[1] العصفورية، ص19.

[2] التعريف بشكسبير، ص117.

[3] Francis Bacon، (1561-1626) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على " الملاحظة والتجريب ". من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس، ويكيبيديا.

[4] العصفورية، ص19.

[5] انظر التعريف بشكسبير، ص64-65-66.

[6] التعريف بشكسبير،، ص67.

[7] العصفورية، ص19.

فهذا الراوي يستفهم متعجبًا ومنكرًا على المشككين مذهبهم المغالي في نفي أعمال شكسبير، ونسبتهم أعماله إلى لجنة، وليس له، بل تراه يصف من أراد أن يثبت أن هذه الأعمال ليست لشكسبير بالحمق والجنون، "حدثتني الأمريكية الحمقاء، ديليا بيكون[1]، التي ظلت تحوم حول مدفن شكسبير تحاول فتحه، حتى أصيبت بالجنون. كانت تريد أن تثبت أن فرانسيس بيكون، لا شكسبير، هو المؤلف الحقيقي لأعمال شكسبير."[2] بل ويقتل التساؤل الذي قد يُثيره ذهن المتلقي "ولا تعتقد أنها قريبة لبيكون، فهذا مجرد اسم على اسم."[3]

إهمال النقاد لشكسبير:

لم يبدأ الاهتمام بشكسبير منذ بداياته الأدبية الأولى، بدليل أنه لا تزال جوانب كبيرة من حياته في طي المجهول لم يعرف عنها أحدٌ الكثير من الأشياء، بل اعتبر الكثير من الباحثين أن حياة شكسبير تختفي خلف الغموض "وهو الغموض الذي ما زال يحيط بالجزء الأكبر من حياة شكسبير الشخصية ذاتها"[4] "أهمل النقاد شكسبير قرنين كاملين. اعتبروه مجرد "مشخّصاتي". وعادوا إليه على مضض. بعد "روميو وجولييت""[5] فهل من المعيب في حق الشاعر أن يهمله النقاد؟ "ومن الجائز أن تعبُر بالشاعر فترةٌ ينساه فيها النقاد والقراء ويلهون عنه بفتنة من فتن الزمن أو نوبة من نوباته، ثم تنقضي تلك الفترة فترجع ذكراه ويتعوض من النسيان إسرافًا في الإقبال عليه، كأنه ندم على جناية الإعراض عنه والحرمان من متعة الاطلاع عليه."[6] وهذا ما حدث لشكسبير بالضبط، فقد أعرض عنه النقاد ردحًا من الزمن ثم عادوا إليه أجمعين، يطّوّفون بأعماله الخالدة.

رأي الراوي في أعمال شكسبير:

لقد فاضل القصيبي على ألسنة شخوص رواياته، بين أعمال الكثير من الأدباء والشعراء، متخذًا منهم قناعًا يداري به آراءه التي يريد أن يبثّها للقارئ، وها هو يتبع ذات الطريقة مع شكسبير ليفضل رواية على أخرى "ألف شكسبير 36 مسرحية، غير الأعمال الأخرى. وأروع مسرحياته، في رأيي المتواضع، هي "روميو وجولييت"، التي أوحت بآلاف الأعمال الفنية في كل اللغات."[7] بدايةً لا بد من تحليل هذه العبارة، فقوله: "36 مسرحية" يعني أن الراوي يسوق معلومات دقيقة وحقيقية، توصّل إليها المؤرخون والنقاد "وإشارات إلى المؤلفات في أقوال المعاصرين، يتبين منها جميعًا أن شكسبير نُسبت إليه في زمنه ست وثلاثون مسرحية"[8] وقوله: "غير الأعمال الأخرى" يعني أن لشكسبير أعمال أخرى غير الرواية والمسرحية وهذا ما أشار إليه الدكتور عادل سلامة: "الكثير من قراء العربية يعرفون شكسبير شاعرًا مسرحيًا، ولكن القليل منهم

---

[1] Delia Bacon، (1811-1859) كاتبة أمريكية تعمل بتدريس الأدب، انسحبت من المجتمع والتعليم مبكرًا، وعكفت على البحث في أعمال شكسبير، رافضةً أن تكون هذه الأعمال له، لتنسبها إلى فرانسيس بيكون وغيره من الشعراء، ويكيبيديا.

[2] العصفورية، ص65.

[3] العصفورية، ص65.

[4] عادل سلامة، الأدب الانجليزي: دراسات وقضايا، دار المريخ للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1948، ص139.

[5] العصفورية، ص66.

[6] التعريف بشكسبير، ص79.

[7] العصفورية، ص65.

[8] التعريف بشكسبير، ص61.

يعرفه شاعرا غنائيًا وحكائيًا ذا باع طويل"[1] وقبل إيراد ما يفضله من أعماله تجدر الإشارة إلى قول البروفسور: ""روميو وجولييت"، التي أوحت بآلاف الأعمال الفنية في كل اللغات" فهنا يشير الراوي إلى الأدب المقارن وتأثر أدباء العالم أجمع بشكسبير، وهذا صحيحٌ وواقع، ولكنه يجب الإشارة إلى أن شكسبير قد تأثر بأدباءٍ قبله قبل أن يتأثر به من بعده. "كما كتب مارلو مسرحية يهودي مالطه 1591 والتي تصور نظرة الإنسان الأوروبي لليهودي وتعد هذه المسرحية مادة خام استفاد منها شكسبير بشدة عندما كتب مسرحية تاجر البندقية"[2] أما عمّا يفضله الراوي من أعمال شكسبير "وأروع مسرحياته، في رأيي المتواضع، هي "روميو وجولييت"" ويعلل ذلك بأنها "أوحت بآلاف الأعمال الفنية في كل اللغات."[3] ويعتبر أنها سبب عودة النقاد إليه على مضض "أهمل النقاد شكسبير قرنين كاملين. اعتبروه مجرد "مشخصاتي". وعادوا إليه على مضض. بعد "روميو وجولييت"[4] ويفضل مسرحية أخرى من مسرحيات شكسبير من حيث جمالها "أعتبر "عطيل" أجمل مسرحياته"[5]

هذا أبرز ما جاء حول شكسبير، في روايات القصيبي موضوع الدراسة لا سيما العصفورية، ويتبقى بعض الإشارات، موضعها في مبحث القضايا الأدبية وليس هنا، على أن شكسبير شاعر عظيم، مسرحي وغنائي مجيد، رُغم أطنان الشك التي تحوم حوله عبر مختلف الأزمان، ولا يضير الرجل ما نُسِبَ إليه وأُثيرَ حوله بعد موته، طالما أننا معترفون بشاعريته وإبداعه.

الأدباء الغربيون:

يُلاحظ من خلال الاطلاع على روايات القصيبي موضوع الدراسة، أن اهتمامه بالأدب الغربي، بدأ في مرحلةٍ متأخرة، فقد أشار الباحث إلى ضعف اطلاعه في الأدب الغربي، عند الحديث عن شكسبير، كما يقول الكاتب عن نفسه، وربما أن الاطلاع كان شبه منعدم، أثناء دراسته الليسانس، بمصر، وهذه الفترة تؤرخها روايته الأولى "شقة الحرية" إذ إنك لا تجد إشارات للأدب الانجليزي، خلال قراءتك لها، بخلاف العصفورية التي امتلأت عن آخرها بالحديث عن مختلف الشخصيات الأدبية، وللغربية منها نصيبٌ كبير، بخلاف الأدباء العرب، الذين تحدث عنهم منذ البدايات النثرية له، وهذا يفسر أن جل المصادر للحديث عن الشخصيات الأدبية الغربية، ستكون بالدرجة الأساس من الرواية العصفورية.

كان شكسبير من أبرز الأدباء الغربيين الذين تحدث عنهم القصيبي في روايته، ولكنه لم يكن الوحيد، فقد تحدث القصيبي الناقد عن: "همنجواي" "أوسكار وايلد" "جويس" "شتاينبك" "دستوفيسكي" "كافكا" "مستر يونيفيرس" "بلانشير" "شيلي" "توماس دي كويني" وسيتعرض الباحث لهؤلاء الأدباء الأجانب بالقدر الذي تعرض فيه القصيبي لهم، وليس أكثر، فليس ما يهم هنا السيرة الذاتية، وأعمال كلٍ منهم، فالمكتبات لم تعدم

[1] الأدب الانجليزي المعاصر: دراسات وقضايا، ص139.
[2] فوزي الحاج، المسرحية والرواية والقصة القصيرة، مكتبة الطالب، غزة، ط2، 2012-2013، ص19-20.
[3] العصفورية، ص65.
[4] العصفورية، ص66.
[5] العصفورية، ص66.

تلك المصنفات التي تتحدث عن ذلك، ولكن ما يهم بالدرجة الأساس، هو ما أورده القصيبي حول هؤلاء الأدباء في رواياته، من الآراء النقدية، مع الإشارة إلى أنه قد ذكر بعض الأدباء لمجرد الذكر أو للاستشهاد بأبياتٍ أو أسطرٍ نُسبت إليهم، وسيتم تناول هؤلاء تباعًا بحسب ورودهم في روايات القصيبي على ذات الترتيب.

همنجواي:[1]

وكعادة الراوي، يبدأ البروفسور بسؤال الحكيم: "سمعت عنه؟ بالتأكيد!" ثم يذكر باريس التي التقى فيها هدفه الآتي ويأخذ بإيراد ما يريد من المعلومات والآراء حول ذلك الأديب، عبر قناعه "البروفسور" مخاطبًا "النطاسي" وهو بطبيعة الحال المتلقي.

يرى الراوي أن الأديب الأمريكي "همنجواي "من ألمع شخصيات القرن"[2] ثم يأخذ في الحديث عن انتحار همنجواي والأسباب التي أدت به إلى الانتحار، ويؤكد أن ما يقوله ناجمٌ عن علمٍ، وليس عن تخيلاتٍ وافتراضات؛ فيقول على لسان بطله البروفسور: "أنا، يا حكيم، كنت أسّمي همنجواي بابا، كما يفعل أصدقاؤه المقربون. ولهذا تستطيع أن تعتبر كل ما أقوله عن همنجواي صادرًا عن مصدر مطّلع."[3] بل ويعتبر ما يقصه هو القصة الحقيقة لانتحار همنجواي، "اسمع القصة الحقيقية لانتحار همنجواي." ويتخذ من الأبعاد النفسية جانبًا كبيرًا في تأويله لانتحار همنجواي، "اسمع القصة الحقيقية لانتحار همنجواي. واحفظها. واكتب عنها تقريرًا لمؤتمر من مؤتمراتكم النفسية"[4] ويود لو أنه يملك الوقت؛ لألّف روايةً عن أسباب انتحار همنجواي[5]، "وهمنجواي ترك تراثًا هائلًا. لماذا ينتحر وقد قال ما عنده؟"[6] وكأنه يؤمن بنظرية التطهير، فأنت طالما كتبت كل ما تريد وعبرت عنه في كتاباتك لماذا تنتحر؟! لقد اتبع الراوي أسلوب التحليل الأدبي لفهم الكاتب، من خلال أعماله الأدبية، فهو اتخذ من الرواية الأخيرة لهمنجواي "الشيخ والبحر"[7] سبيلًا لذلك "وصل صاحبنا العجوز إلى الميناء لم يجد سوى العظام. والمقصود بالرمز؟ عبثية الصيد! لا يوجد شيء يستحق أن يُصاد. حتى السمكة الهائلة ليست، في النهاية، سوى عظام. هنا تبدأ في فهم انتحار همنجواي. لم يبقَ شيء لم يصده همنجواي حتَّى بدأ يشعر بالملل."[8] لكن آخرين اعتبروا الفشل وليس الملل هو سبب

---

[1] إرنست ميلر همنجواي، (Ernest Miller Hemingway) (1899-1961) كاتب أمريكي من أهم كتاب الرواية والقصة ، كان يُلقب بـ"بابا" بدأ بنظرة سوداوية للعالم، ثم عاد ليمجد القوى النفسية لعقل الإنسان في أعماله، شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية في البحرية الأمريكية كضابط مسعف، وكصحفي في الحرب الأهلية الأسبانية، كان سبب موته الانتحار جراء الاكتئاب الشديد الذي كان يعاني منه، ويكيبيديا.

[2] العصفورية، ص31.

[3] العصفورية، ص32.

[4] العصفورية، ص32.

[5] العصفورية، ص31.

[6] العصفورية، ص31.

[7] هي رواية كتبها إرنستهمنجواي، وحصل بفضلها على جائزة نوبل في الأدب وجوائز محلية أخرى، تدور أحداثها حول صياد عجوز يُدعى سانتياغو، يصطاد في البحر وطفل صغير، لم يكن يصطاد شء، حتى اصطاد في النهاية سمكة كبيرة، نهشتها أسماك القرش، ليقدم أروع الملاحم في مقاومة هذه الأسماك، لكن في النهاية يصل بهيكل السمكة، وبحكمة عظيمة.

[8] العصفورية، ص33.

الانتحار "فأي شعور دفع هذا الكاتب الكبير والناجح إلى الانتحار غير شعور الفشل؟ إرنست همنغواي؟ مؤلف رواية (الشيخ والبحر) والتي ضمنها أبلغ عبارة تمجد إرادة القوة: (من السهل أن يموت الإنسان لكن من الصعب أن يهزم) مات مهزوما منتحرًا لشعوره بالفشل الذريع"[1] على أية حال تكثر التأويلات ويطول الكلام في انتحار همنجواي، وليس هذا المطلوب هنا، فيكفي الإشارة إلى أن الروائي قد تتبع الأحداث الدائرة في حياة أدبائه، مُحاولًا تفسيرها وتحليلها طبقًا لأعمالهم، فكما ذكر الشيخ والبحر، ذكر وداعًا للسلاح. فهمنجواي يقتل نفسه بالسلاح وهو الذي كتب "وداعًا للسلاح"[2][3]!

قد تعرض الراوي خلال السرد الحواري بين البروفسور والحكيم في العصفورية إلى إشارات من أعمال همنجواي لا سيما "الشيخ والبحر" وأعطى آراءً وتحليلاتٍ فيها تمثلت في ثلاث نقاط، "هل قرأت قصة "الشيخ والبحر"؟ وشاهدت الفيلم؟ برافو! كالعادة، الكتاب أفضل من الفيلم. الشيخ هو همنجواي نفسه، والقصة رمزية، بطبيعة الحال."[4] أولًا: وصفها بالقصة، ويبرر الدكتور فوزي الحاج –بعد أن عرض لأهم ما فيها– ذلك بقوله: "هذا ملخص لهذه الرواية العجيبة! من ناحية الطول فإن هذه رواية قصيرة، وحتى في بنائها تكاد تقترب من القصة القصيرة، فهي لا تحفل بالشخصيات أو الحوادث وحتى الزمن محدود، لكن الكاتب كان يستقصي الحدث بكل تفاصيله"[5] إذا فالقصيبي يصنف هذه الرواية ضمن القصص، لكنه لا ينفي عنها صفة الرواية فهو يقول: "وحتى في بنائها تكاد تقترب من القصة القصيرة" قال تكاد أي أنه يعتبرها رواية. ثانيًا: يعتبر القصيبي أن الكتاب أفضل من الفيلم، فهو من أنصار القراءة بشكلٍ عام، وربما كان يقصد أن التعبير الكتابي لهمنجواي أفضل مما ممثله بطل الفيلم، ولعل من الطبيعي أن يفضل رجلٌ كالقصيبي القراءة على الأفلام، فهو يريد لعقله وقلبه أن يعملا ويتخيلا، ولا يريد للمعلومة أن تأتي جاهزةً له على ما يزعم الباحث. ثالثًا: يرى الراوي أن الشيخ هو همنجواي نفسه في الرواية، وهذا التحليل كان ممهدًا –على ما ورد أعلاه– لتأويله لانتحاره.

يرى القصيبي أن همنجواي هو أعظم صياد في التاريخ، وربما قصد بذلك أعظم كاتبٍ في التاريخ "ما هي الطريدة التي لم يصدها من قبل؟ الطريدة الفريدة التي لم يسبقه إلى صيدها أحدٌ في التاريخ؟ الطريدة العظيمة التي تضمن لصائدها الخلود؟ هل تعرف الجواب، يا دكتور؟

- لا.
- حسنًا! الجواب هو أرنست همنجواي نفسه! أعظم صياد في التاريخ"[6]

أوسكار وايلد:[1]

---

[1] عتبة السلم الرملي، ص120.

2هي رواية كتبها إرنست همنجواي خلال الحملة الإيطالية في الحرب العالمية الأولى، ونشرت عام 1929، تُروى الرواية على لسان الأمريكي فردريك هنري، الملازم في المستشفى الميداني للجيش الإيطالي، وتدور أحداثها حول علاقة حب تنشأ بين المغترب الأمريكي هنري، وكاترين باركلي على خلفية الحرب العالمية الأولى، من هزل الجنود والقتال ونزوح السكان.

3، انظر العصفورية، ص34.

[4] العصفورية، ص33.

[5] المسرحية والرواية والقصة القصيرة، ص182.

[6] العصفورية، ص33.

"وكما قال أوسكار وايلد، "كل رجل يقتل الشيء الذي يحبّه". سمعت عن أوسكار وايلد؟ بالتأكيد! الأيرلندي الذي قضى حياته يضحك من الإنجليز. وكتب روايات ظريفة مليئة بالسخرية منهم. فوضعه الإنجليز في سجن بتهمة الشذوذ الجنسي. وبعد موته أباحوا الشذوذ. لا تستهن بالإنجليز، يا حكيم."[2] ينتقل القصيبي مستطردًا إلى وايلد، بعدما استشهد بمقولة من مقولاته، ثم أخذ بالحديث المقتضب عنه، وحول رواياته الظريفة الساخرة، وهذا مؤداه أن القصيبي يستظرف روايات وايلد، ويؤكد ذلك في موطن آخر، إذ يقول على لسان البروفسور ""هل أعجبتك مسرحية البارحة" "كل مسرحيات أوسكار وايلد تعجبني""[3] وعلاوةً على الإعجاب أنه لا يمل منها، فقد حضرها خمس مرات "ولكنّنا رأيناها 5 مرّات من قبل" ."كل مرة أكتشف نكتًا جديدة"[4] وتعبيره هذا يوحي بالأسلوب الساخر الكوميدي الذي يتميز به أوسكار وايلد، وربما هذا من العوامل المشتركة بين وايلد والقصيبي، إذ لا تخلو روايات القصيبي، من نادرة هنا وهناك، متبعًا أسلوب الجاحظ في هذا بالدرجة الأساس. وورد ذكر وايلد كذلك في رواية "سبعة" في حوار "وأنت تعرفين ما قاله أوسكار وايلد عن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الإغراء،

- الاستسلام له
- تمامًا
- تبدو الفكرة مغرية جدًا
- إذن استسلمي لها."[5]

إذًا لدى القصيبي دائمًا رأي في الأدباء الذين يتحدث عنهم، فقد استظرف رواياته ولم يمل منها، ولم يلتفت إلى كونه شاذًا جنسيًا، بل اعتبر أن الانجليز ظلموه، باعتقالهم إياه بتهمة الشذوذ الجنسي ثم إباحته بعد موته، ويبدو أن هذا الرأي يُصنف ضمن آراء القصيبي الانطباعية.

جيمس جويس:[6]

الأمر مختلف هذه المرة عن شكسبير أو همنجواي أو اوسكار وايلد، أو غيرهم من الأدباء، فالقصيبي لم يكن يُعجب بجويس على خلاف باقي الأدباء "أما الكاتب الرابع الذي لم ينل إعجاب الكاتب/ الراوي فهو جيمس جويس"[7] الذي استحضره على الطريقة المعريّة؛ ليلتقيه في باريس، ولم يكن يُعجب به البروفسور –

---

[1]أوسكار فينغال أوفلاهرتي ويلز وايلد (Oscar FingalO'Flahertie Wills Wilde) (1854-1900) مؤلف مسرحي وروائي وشاعر انجليزي إيرلندي. احترف الكتابة بمختلف الأساليب خلال ثمانينات القرن التاسع عشر، وأصبح من أكثر كتاب المسرحيات شعبية فيلندن في بدايات التسعينات من نفس القرن. أما في وقتنا الحاضر فقد عرف بمقولاته الحكيمة ورواياته وظروف سجنه التي تبعها موته في سن مبكر، ويكيبيديا.

[2]العصفورية، ص33.

[3]العصفورية، ص170.

[4]العصفورية، ص170.

[5]سبعة، ص251.

6 جيمس أوغسطين ألويسيوس جويس (James Augustine Aloysius Joyce) (1882-1941) كاتب وشاعر أيرلندي، عاش عيشةً صعبة ومليئة بالمشاكل، الاقتصادية والصحية على حدٍ سواء، فقد أُصيب بمرض أدى به للعمى أحيانًا، كان يأخذ وقتًا طويلًا في كتابة أعماله الأدبية، ومن أشهر أعماله "يولسيس" "صورة الفنان في شبابه" "سهر فينيغان" كانت أعماله مثيرة للجدل، مُنعت في الولاية المتحدة في البداية، ليصبح من أعظم كتاب القرن العشرين.

[7]الرواية الموسوعية، ص5.

قناع الأديب– فروايات جويس بالنسبة له صعبة الفهم، ولا يمكن لإنسانٍ أن يفهمها "وجويس اللئيم كتب هذه الرواية وهو يعلم علم اليقين أن أحدًا لن يفهمها"[1]

يتطرق الأديب لبعض مظاهر حياة جويس "كان نظره ضعيفًا ... وقد كان يعاني من القرحة ... كان يسكر كل ليلة. ويعتمد على العجائز الطيبات في تمويل عبقريته وسكره"[2] "كانت ابنة جويس مصابة بالشيكيزوفرينيا. اسمها لوسي."[3] ويذهب بالمتلقي إلى إشاراتٍ دقيقةٍ حول أعمال جويس "قلت له: "ماذا تفعل هنا جيمس؟ ولمن تركت دبلن وحاناتها الكئيبة وسكّانها السكارى؟[4] لمن تركت الدبالنة؟[5] ومن سيرسم صورة الفنان وهو فتى صغير[6]"[7] وكأنه يريد الإخبار بأنه يعرف جويس جيدًا، وبهذا يكون قد أطلق تمهيدًا للأحكام التي سيطلقها على جويس وأعماله، إذ هي أحكام العارف.

جويس هو روائي سوزي المفضل، وهي التي عرّفته عليه، وقد بدأ نقده له من خلالها، "قالت لي سوزي إنه لا يمكن لأحد أن يتذوق "يوليسس" ما لم يكن مُلمًّا بالتاريخ والفلسفة والتراث الإغريقي والأديان المقارنة وعلم النفس وكل ما يمكن معرفته عن إيرلندا. "مطلب عسير يا سوبر!" هذا ما قلته وأقوله الآن"[8] وقد لفت هذا الأمر النقاد إلى جويس "مع اتساع عمله شمولا ازدادت نزعته الايرلندية في روحها وفي جوهرها أيضا"[9]

وبطبيعة الحال فإن القارئ لبعض روايات القصيبي كالعصفورية مثلًا، يحتاج أن يكون ملمًا بأمورٍ كثيرة، والقارئ البسيط سيفشل في الاستيعاب الكامل للرواية العصفورية، فالقصيبي ينتقد ما وقع فيه، ولو بدرجة أقل من جويس، بل إن ما يثير العجب أكثر، هو ما صرحه بعض النقاد كعبده الخال، وعثمان الغامدي، حول تأثر القصيبي بأسلوب جويس، في حين أن القصيبي قد نقد جويس نقدًا مريرًا! فكيف ينتقده ثم يحذو حذوه؟! "والد الرواية الحديثة. التي لا تبدأ ولا تنتهي. ولا يوجد فيها عقدة. ولا أخيار ولا أشرار. ولا رواية ولا مُعلق. حيث تتناثر في السطر الواحد عشرات الإيماءات والألغاز"[10] ويتحدث كذلك عن يوليسس" رواية يوليسس من أولها إلى آخرها "سِترم أوف كونشسنس". كيف تترجم هذا إلى العربية؟ تدفق المشاعر؟ تداعي الأفكار؟"[11] وقد تناول هذه القضية الدكتور فوزي الحاج في بحثه "الرواية الموسوعية عند غازي القصيبي "العصفورية" نموذجًا"، حيث يقول "ولعل الرواية في تبنيها لما يشبه التداعي الحرّ تغري بنسبتها إلى تيار الوعي، ولكن عودة سريعة إلى مفهوم رواية تيار الوعي يؤكد عدم انتساب هذه الرواية لهذا التيار"[12]

---

[1] العصفورية: ص67.
[2] العصفورية، ص34.
[3] العصفورية، ص67.
[4] موضوع أعمال جويس الأدبية.
[5] مسرحية جويس: أهل دبلن.
[6] رواية جويس: صورة الفنان في شبابه.
[7] العصفورية، ص34.
[8] العصفورية، ص66.
[9] جون جروس، سلسلة أعلام الفكر العالمي، جيمس جويس، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1975، ص32.
[10] سلسلة أعلام الفكر العالمي، ص32.
[11] العصفورية، ص67.
[12] الرواية الموسوعية، ص37.

ويقول "نستطيع الحكم بأن العصفورية لا تنتمي لرواية تيار الوعي، وإن شابهتها في بعض الأعراض لا الجواهر، فهي تقوم – كلها – على مستوى الكلام وليس فيها ما يتعلق بمستوى ما قبل الكلام، ذلك أنها تقوم على الحوار المنطوق ولا تقوم على التأمل أو التفكير السابق للكلام"[1] والباحث يتبنى وجهة أستاذه دون حيادٍ عنها في هذا الأمر، فكيف للقصيبي أن يفند أسلوبًا ثم يتبعه؟! بل إنه قد حاكم روايات جويس، ونفى كونها روايات وإن كان ذلك بشكل غير مباشر، فهي لا تتوافر فيها عناصر الفن الروائي، من حيث البداية والنهاية والعقدة والشخوص، ويستكثر ما كُتب حول "يوليسس" من أبحاث ودراسات، وكأنه لا يعترف بمواهب جويس، فيرجع هذا الأمر إلى الحظ وقد عوّدَ المتلقي على أسلوبه، فإذا أراد أن يقلل من شأن أحدٍ يقول: حظ. وإذا أراد أن يرفع من شأن أحدٍ يقول: "حسد. "صدّق أو لا تصدق! تصوّر أنه كتب عن هذه الرواية أكثر من 3000 كتاب وبحث جامعي. وأنا لم يكتب عن أعمالي شيء. حظوظ يا حكيم."[2]

ويأخذ بعد ذلك بأطرافٍ من هنا وهناك، ليؤكد رأيه بشدة حول أن روايات جويس لا تُفهم "قال لي ناقد عربستاني، مرة، إنه قرأ "يوليسس" في ليلة واحدة واستوعبها. كذاب **ابن** 60 كذابًا! رغم كل محاولات سوزي، لم أستطع أن أتجاوز مائة صفحة"[3] "إذا قال لك أي إنسان إنه فهم الرواية فقل له إنه كاذب في وجهه –والمسؤولية عليّ."[4] أكيد ليس الخلل في مدارك البروفسور، الذي طَّوف بالآفاق كلِّها، وامتلك المكتبة الكبيرة، والتقى عشرات الأدباء والنقاد العرب والغرب، لا سيما بعد كم المعلومات التي أغرق القارئ فيها، والآن لا يفهم رواية! هو لم يرد ذلك ولكن أراد أن يقول: إن الخلل في الرواية وليس في القارئ، ولا يقتصر الأمر على "يوليسس" "وإذا كانت "يوليسس" تستعصي على الفهم، فرواية جويس التي تلتها "فينجانز وَيْك"، أدهى وأمر."[5] ويجعل ذلك لسببين رئيسين كما يُفهم من خلال الرواية، الأول: المدة الطويلة التي استغرقتها كل رواية حتى تُكتب ف"يوليسس" استغرقت كتابتها سبع سنوات من العمل المتواصل ليل نهار"وقال جويس مرّة لأحد المعجبين إنه ما دام قضى 7 سنوات في كتابتها فعلى من يريد الاستمتاع بكل مغاليقها أن يقضي 7 سنوات في قراءتها"[6]، و"فينجانز وَيْك" سبع عشرة سنة وأنه كان يبقي شهرين في كتابة فقرة واحدة، ومن ذلك يتضح أن جويس قد كتب رواياته على فترات متباعدة بسبب الظروف المادية، والصحية، والرقابية التي مر بها، حتى بعد صدور روايات له، تم حظرها لمدة ثم سُمح لها بالنشر ""يوليسس" رواية غريبة جدًا، يا حكيم، ظلت ممنوعة في أمريكا حتى سنة 1933 وفي بريطانيا حتى سنة 1937. بسبب بذاءتها"[7] أما السبب الثاني: فهو عدم حب الأديب لليونان الذين يحاكيهم جيمس "تقرأ لي صفحة بعد صفحة وأنا كالأطرش في الزفة. ربما لأني لم أقرأ الأسطورة اليونانية الأصلية التي كان بطلها يوليسس. أنا أكره اليونان، وأكره أساطيرهم كما سبق أن قلت لك"[8] وهذا الأمر حقيقة معروفة وهي أن جويس متأثرٌ بالأساطير اليونانية "وأوضح نموذج يتبعه

[1] المرجع السابق، ص38.
[2] العصفورية، ص67.
[3] العصفورية، ص66.
[4] العصفورية، ص67.
[5] العصفورية، ص67.
[6] العصفورية، ص66.
[7] العصفورية، ص66.
[8] العصفورية، ص76.

جويس في يوليسيس –بالطبع هو المحاكاة أو التقليد الساخر لأوديسة هومر. ومن المحقق على نحو مقطوع أن جويس قد فعل ذلك عن قصد. وفعله بعناية"[1]

ويزيد من نقده لجويس، في أنه قد أتبع هذا الأسلوب في كتابتها، لكي لا يفهمها أحد وتثير النقاد ويزيد الاهتمام به "وجويس اللئيم كتب هذه الرواية وهو يعلم علم اليقين أن أحدًا لن يفهمها. في لحظة من لحظات التجلّي أسرّ بهذه الحقيقة لبعض من كان معه. كتب هذه الرواية لنرفزة النقّاد والقرّاء، وجعلهم يتحدثون عنها إلى الأبد"[2] وقد وقع هذا الأمر حقيقةً، فلا يذكر تيار الوعي، وتداعي الأفكار إلا ويذكر جويس، منذ زمنه وحتى الآن "إن الغضب الذي قوبلت به "يوليسيس" جعله شخصية من أشهر الشخصيات الأدبية في أيامه"[3].

وبطبيعة الحال كان جويس هو "روائي سوبر المفضل"[4] ويتعجب من حبها له "لا أدري لماذا كانت سوزي تحب جويس. سوزي كانت صادقة. وتحب الصدق في الآخرين. وكانت ترى أن "يوليسس" أصدق رواية في الأدب الإنجليزي. ألف صفحة عن يوم واحد في دبلن، ويهودي، وزوجته التي تخونه، وطالب الطب. لا يكاد يوجد في دبلن يهود ومع ذلك فبطل الرواية يهودي، اللوبي الصهيوني؟ لا! لا! كان جويس يحب أن يأتي بالعجائب، ومن العجائب وجود يهودي بين الكاثوليك الدبالنة الذين لم يكونوا أكثر البشر تسامحًا"[5] ويبدو أن الراوي يسخر من الصدق الذي اخترعه سببًا لحب سوزي لجيمس، من أجل أن ينتقده من جديد عن طريقها، فينفي الصدق عن الرواية، وهل يريد القصيبي من الرواية أن تكون صادقة؟! أو تصف الواقع كما هو؟! أم يريدها سهلة واضحة كي يفهما من يقرأها مباشرة؟! "إن روح الرواية هي روح التعقيد. كل رواية تقول للقارئ: "إن الأشياء أكثر تعقيدًا مما تظن"، إنها الحقيقة الأبدية للرواية"[6]

وعلى أية حال، كان هذا رأي القصيبي في جويس، عرضه في روايته العصفورية، وزاد من نقده حتى اعتبره مريضًا نفسيا في روايته دنسكو، إذ يقول على لسان بروفسور آخر وهو مرشح قارة الروس لاند لدنسكو "لي ذكريات ممتعة في تلك المدينة. كنت أعدّ كتابًا عنوانه "جولة في أفكار جويس" وزرت جميع المقاهي التي كان يرتادها، وخاصة مقهى "فوكيت" الذي أحببته كثيرًا. كان جويس يعاني من مشاكل نفسية خطيرة بالإضافة إلى ضعف بصره وإدمانه الخمر."[7] ومما لفت الانتباه ترجمة الروائي لاسم رواية جيمس (Ulysses) حيث كان يترجمها إلى العربية بلفظة "يوليسس" بخلاف باقي الكتب والأبحاث التي ترجمتها دومًا بـ"يوليسيس" لا سيما الكتب الانجليزية المترجمة منها، وهذا يدل على فلسفة القصيبي الخاصة حتى في الترجمة، وسيأتي الحديث عن الترجمة في مبحث القضايا الأدبية.

---

[1] روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة: محمود الربيعي، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط.، 2000، ص152.
[2] العصفورية، ص67.
[3] سلسلة أعلام الفكر العالمي، جيمس جويس، ص14.
[4] العصفورية، ص34.
[5] العصفورية، ص67.

[6] ميلان كونديرا، فن الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، عدد 267، ص17.
[7] دنسكو، ص82.

شتاينبك:[1]

إن كان همنجواي ألمع شخصيات التاريخ بالنسبة للراوي، وكانت كتابات اوسكار وايلد هي الأظرف لديه، فإن "شتاينبك" هو كاتبه المفضل الذي عرّفته عليه –كعادتها– سوزي "كما عرفتني سوزي على كاتبي الروائي المفضّل جون شتاينبك"[2] ويريد الراوي أن يبين توصله إلى هذه المفاضلة من خلال القراءة "أنا لا أحب المباهاة يا حكيم. ولكني قرأت جلّ ما كتبه العباقرة الروائيين من روس وفرنسيين وأمريكيين وبريطانيين وعرب. ويبقى شتاينبك كاتبي المفضل"[3] والشيء بالشيء يذكر، فقد قدم الراوي الروائيين الغربيين على الروائيين العرب، في الوقت الذي يعتبر أن الروايةَ فنٌ عربي، وليس غربي، فهل كان القصيبي يفضل كتابات الغرب على العرب في مجال الرواية، مع الاعتراف بسبقهم إليها؟ أم أنه يعاني من عقدة خواجة، كالتي عانى منها جل شخوصه؟

ثم يأخذ القصيبي في تبيان سبب تفضيله لشتاينبك على غيره من الروائيين، وجاء ذلك التفضيل لسببين: الأول: "الروائيون الروس يذبحونك ذبحًا بالتفاصيل ... شتاينبك لا يُفصّل إلا فيما ندر" وربما أن السبب ذاته هو أحد الأسباب التي دفعت الراوي إلى الإعجاب بهمنجواي، الذي كانت جمله قصيرة ومقتضبة. والثاني: "ولا تحتاج أن تكون موسوعة بشرية لتفهم ما يريد أن يقول" "لكن القصيبي لم يفعل ما فعله شتاينبك ، وأراد من قارئه أن يكون موسوعة بشرية"[4] ويبين مدى إعجابه الشديد بأعمال شتاينبك "بلغ من إعجابي ببطل الرواية، دوك، أن سوزي أخذت تسمّيني دوك حتى طلبت منها العودة إلى اسمي القديم"[5] ويبين مدى تأثره بكتابات شتاينبك "كنت أبكي وأنا أقرأ معها "عن الجرذان والرجال"" وفي هذا إشارة إلى العاطفة القوية والصادقة في أعمال شتاينبك.

ويأخذ بإيراد بعض المعلومات عن شتاينبك "وكان منّا أعني أنه ذهب، بدوره، إلى جامعة ستانفورد، ولكنه لم يتخرج. ضع هذا في قائمة معلوماتك التي لا تضرّ ولا تنفع"[6] والحقيقة أن شتاينبك لم يتخرج لأنه التحق بستانفورد بناءً على رغبة والديه، فقد ظل متخبطًا في نتائجه التحصيلية طوال ست سنوات حتى رسب في النهاية، وترك الجامعة دون أن يحصل على الشهادة. وأخيرًا قدم بعض الإشارات حول أعمال شتاينبك" كانت سوزي تأخذني إلى الأمكنة التي تدور فيها أحداث رواياته، ومعظمها في مونتري ما غيرها. أخذتني إلى المزارع التي كتب عنها "عناقيد الغضب"[7]. روايته الأثيرة عندي هي "شارع التعليب"[8][9] ونجده يفاضل حتى

---

1 جون شتاينبك (John Steinbeck) (1902-1968) كاتب أمريكي مشهور، اشتهر بقصصه حول الحرب العالمية الثانية، ولد في كاليفورنيا، عمل في العديد من الوظائف المتدنية، أشهر رواياته "عناقيد الغضب" حاز على جائزة نوبل وتوفي جراء مرض في القلب، ويكيبيديا.

[2] العصفورية، ص68.

[3] العصفورية، ص68

[4] الرواية الموسوعية، ص1.

[5] العصفورية، ص69

[6] العصفورية، ص68.

[7] عناقيد الغضب، رواية كتبها الأمريكي شتاينبك عام 1939، تصف حال عائلة فقيرة من أوكلاهوما، هاجرت إلى كاليفورنيا خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات من القرن العشرين، تصف حياة البؤس والمعاناة التي تعاني منها الطبقة العاملة المسحوقة، وقد فاز عنها الكاتب بجائزة بوليتزر عام 1940.

[8] شارع التعليب، واسمها الحقيقي: شارع السردين المعلب، كتبها جون شتاينبك عام 1945، يصف فيها حياة ومعاناة العمال، في معامل تعليب السردين في مدينة مونتري في كاليفورنيا.

[9] العصفورية، ص68.

بين أعمال الكاتب المفضل لديه، فيؤثر روايته "شارع التعليب" على روايته "عناقيد الغضب" والتي حصل من خلالها على جائزة بولتيزر، إلا أن للراوي رأيه الخاص، ربما لأن رواية "شارع السردين المعلب" تتناول حياة الكادحين والبؤساء، والقصيبي بدوره أديبٌ ملتزمٌ بقضايا وهموم مجتمعه؛ لذلك كان تفضيله لرواية شارع السردين المعلب على غيرها.

كافكا:[1]

إن كان موقف الراوي واضح من شتاينبك وجويس، فإن موقفه غير واضح عند حديثه عن كافكا، فهل كان كافكا مجيدًا بالنسبة للراوي، أم كان غير ذلك؟ يبدأ البروفسور بسؤاله المعتاد للحكيم: "هل سمعت عن كافكا، يا حكيم؟ بالتأكيد."[2] جاء ورود اسم كافكا هنا، نتيجةً للحالة النفسية التي كان يعاني منها البروفسور، جراء التحقيق الذي يمارسه عليه الدكتور جونسون في مصحة مونتري، فالحالة ذاتها هي التي كانت عليها شخصيات كافكا، وهي التي عليها البروفسور إذ يقول الراوي على لسانه "لا! كان هذا، بالضبط، هو شعوري. نمت إنسانًا، وصحوت حشرة كريهة قبيحة مجروحة. في مصحة عقلية. مع فارق وهو أنه في قصة كافكا لم يستجوب أحد الحشرة عن تاريخها الجنسي وعن مشاعرها نحو اليهود"[3] ويكرر هذه الجملة وشبيهاتها ثلاث مرات مع ثلاث قصص من قصص كافكا الشهيرة وهي "التحول" و"المحاكمة" و"القلعة" إذ استخدم هذه القصص للتعبير عن الحالة الشعورية التي انتابته في ذلك الوقت، وعندما أراد أن يوضحها للحكيم لجأ إلى قصص كافكا، إذًا فالمعادل الموضوعي لهذه القصص واقعي وناجح، وإلا فلمَ لجأ إليه الراوي ليبين حالته التي كان عليها في المصحة؟! فهو بعدما ينتهي من كل إشارة حول عمل من أعماله كافكا، يعقب بجملة "مجرّد خيال مريض؟" فأي خيالٍ هذا الذي يقصده، هل هو خيال بطل القصة، أم خيال كافكا ذاته؟ أم خيال البروفسور؟ ويتضح للباحث من خلال ما أورده الراوي حول كافكا أن الثلاثة شعور واحد، ويعتبر ذلك اعترافًا ضمنيا من الراوي بكفاءة كافكا، الذي استطاع أن يصف شعور الإنسان بهذه الطريقة المحكمة خلال قصصه القصيرة.

يتعرض لقضية أخرى حول قصصه التي مُثلت أفلامًا ويرى أنها "سقطت، بجدارة، في شباك التذاكر. ونجحت نقديًا"[4] وكما سبق، يفضل القصيبي القراءة على غيرها في غالب الأحيان، ثم يعترف بأن كافكا كان له الأثر الكبير في الأدب من بعده "وكافكا اليهودي ترك أثرًا هائلًا على الأدب الغربي، وبالتالي على الأدب في كل مكان."[5] وهنا تساؤلان لابد من طرحهما، الأول: هل أثر حكم الراوي على كافكا لأن الأخير يهودي؟

1فرانس كافكا، (Franz Kafka) (1883-1924) كاتب تشيكي يهودي، كتب بالألمانية، ويعرف بأنه رائد الكتابة الكابوسية، من أفضل الكتّاب الألمان، يكتب الرواية والقصة القصيرة، غالبًا ما تتضمن أعماله أبطالًا غريبي الأطوار، يتناول مواضيع نفسية، تتسم كتابته بالسوداوية والعبثية، ويكيبيديا.

[2]العصفورية، ص88.

[3]العصفورية، ص89، وهو يشير بكلامه هذا إلى أحداث رواية "المسخ" أو التحول، لكافكا.

[4]العصفورية، ص88.

[5]العصفورية، ص88.

فهو ينعته باليهودي في غير مرة عند حديثه عنه. والثاني: لماذا سيكون أثر الأدب الكافكاوي "بالتالي ... في كل مكان" لأنه أثّر في الأدب الغربي بدايةً؟ فهل الأساس هو الأدب الغربي؟! الإجابة، يبدو ذلك، فهذه المرة الثانية التي يقدم فيها الراوي الأدب الغربي على غيره من الآداب، وبطبيعة الحال العربي من ضمنها، مع أنه يرى أن العرب هم الأساس في فن الراوية، وهذا سيدرس في مبحث القضايا الأدبية، أما عن الإجابة عن التساؤل الأول، فالراوي قد أجاب عنه قبل أن يتحدث عن كافكا بقليل، خلال حواره مع الدكتور جونسون، فهو لا يكره اليهود لمجرد أنهم يهود، بل يكره فقط الصهاينة منهم؛ لاحتلالهم فلسطين، ولا يوجد أثرٌ واضحٌ لهذا الكره في الحديث عن كافكا، ولكن هناك استغراب من الراوي فهو يضيف: "الرجلان اللذان صاغا الحضارة الغربية في القرن العشرين، وبالتالي أثرا على الحضارة في كل مكان، يهوديان. ماركس وفرويد. ما قصة اليهود؟ لا يتركون العالم في حاله؟"[1] فهو يريد أن يبين تأثير وتحكم اليهود واللوبي الصهيوني في سياسات العالم، واتخذ الأدبَ والعلمَ سبيلًا لتبيان ذلك!

يشير الراوي إلى قضيةٍ هامةٍ وهي رفض كافكا نشر أعماله بعد موته، ووصيته لصديقه ماكس برود[2] بأن يحرق أعماله لكن الأخير رفض ذلك، وتم نشر تلك الأعمال الغير مكتملة في غالبيتها، فمرض السل قد نال من كافكا قبل أن يتمها، وهذا سبب وجيه لإبادتها، فهي غير مكتملة، وقد نشر كافكا بعض الأعمال القليلة حال حياته، وما يمنعه إذًا من نشر غيرها، إلا إن كانت غير مكتملة.

ويعتبر أن من أراد فهم كافكا عليه أن يكون مريضًا نفسيًا، وذلك حتى يستطيع أن يفهمه وإلا فلا مجال لفهمه! "إذا أردت أن تفهم عالم كافكا، يا طبيب، فاذهب إلى مصحة نفسية. لا تذهب طبيبًا؛ اذهب مريضًا."[3] ثم يشير كما ورد أعلاه إلى بعض أعمال كافكا وقد اعتبرها قصصًا، واختار عناوين مترجمة محددة، "هل تعرف قصة كافكا الشهيرة "التحول"؟" سمعت بقصة كافكا المشهورة الأخرى "المحكمة"؟" "هل تعرف قصة كافكا الشهيرة الثالثة "القلعة"؟"[4] فقد اختار ترجمة التحول ولم يختار "المسخ" واختار "القضية" بدلًا من المحكمة، والقلعة بديلًا عن ترجمة "القصر" أما عن وصفه لها بالقصص، فيرى الباحث أن هذه الأعمال لو اكتملت لأمكن لِراوي العصفورية أن يحدد وجهته حولها، هل هي قصص أو روايات، أما المسخ أو التحول التي نُشرت حال حياته فقد عدّها بعض النقاد رواية، وآخرون قالوا بأنها رواية قصيرة، وهذا القصيبي يعتبرها قصة، فـ42 صفحة بالنسبة للقصيبي هي قصة، وليست رواية.

ولا بد من الإشارة إلى وجه الشبه بين القصيبي وكافكا، فكليهما أعداء للبيروقراطية، وحاربوها كثيرًا في أعمالهم "وتتجسد البيروقراطية وغرابة الإجراءات في رواية القضية..."[5] "وفي هذا يتجسد إلى حد كبير

---

[1] العصفورية، ص88.

[2] ماكس برود (Max Brod) (1884-1968) مؤلف وملحن وصحفي، تشيكي يهودي، جاءت شهرته من صداقته لكافكا، إذ نشر مؤلفاته بعد موته، هاجر إلى فلسطين المحتلة، وحصل على الجنسية الإسرائيلية، ويكيبيديا.

[3] العصفورية، ص89.

[4] العصفورية، ص89.

[5] نجم كاظم، كافكا في الرواية العربية والسلطة والبطل المطارد، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الأول+الثاني، 2010، ص235.

ما ذهب إليه كثير من النقاد من أن كافكا إنما ينتقد في هذا البيروقراطية والسلوك البيروقراطي كنموذج من نماذج السلطة العصرية وممثليها."[1] وغير ذلك العديد من القضايا الملتزمة التي جمعت الكاتبين.

كانت هذه أبرز الأسماء الغربية التي تطرق لها القصيبي في مجال الأدب في رواياته عامة، والعصفورية خاصة، وبعض الأسماء ورد ذكرها بمعلوماتٍ حقيقةٍ وواضحةٍ عنها، وأخرى مجال دراستها في مبحث القضايا الأدبية وليس هنا.

[1] المرجع السابق، ص238.

المبحث الثانـي

قضايا أدبيـة

الغزو التعويضي:

لم يكن حديث القصيبي في رواياته عن الجنس بالشيء الغريب أبدًا، فقد اشتهرت عنه جراءته في طرح هذه مواضيع، وذلك منذ أول عمل روائي له "شقة الحرية" إذ تطرق إلى العديد من الأحداث الجنسية البحتة، واصفًا علاقات أبطال رواياته بمعشوقاتهم دون حرج، حتى إنه تطرق للجنس بين الذكور بإشاراتٍ متفرقة، في "شقة الحرية" وفي غيرها من الروايات، وقد مُنعت الرواية في المملكة السعودية فترةً من الزمن قبل السماح ببيعها وتداولها.

لقد فتح القصيبي الباب على مصراعيه لمن بعده، ليثيروا المواضيع الجنسية دون حرج، وخاض غمار معارك عديدة بينه وبين رموز الصحوة الدينية في المملكة آنذاك، ولم يتوقف عن نهجه، رغم كل الانتقادات، مع التنبيه إلى أنه لا يجب الظن بأن رواياته جنسيةٌ بحتة! ولكنه إن وُجد ما يستدعي الحديث عن الجنس، لم يكن يتورع في إعطاء المشهد حقه؛ يقول الراوي للحكيم: "وصلنا إلى الجنس بدأت تبتسم وتشعل سيجارة جديدة."[1]

وليس ما يهم في هذا المقام التحليل الجنسي لروايات القصيبي، بقدر ما يجب أن يُلفت الانتباه إلى قضيةٍ هامةٍ في رواياته، وقد تطرق إليها الدكتور فوزي الحاج في كتابه "غزو الغرب "رمزيًا" كتعويض، في روايات ما بعد الكولونيالية" إذ يستهدف الآخر الغربي في روايات ما بعد الاستعمار، ونظرة الروائي العربي له، صحيحٌ أن صورة الآخر متعددة لدى الروائيين العرب، لكنه يوجد نظرة تفوق الأخريات "إن هذه الدراسة لا تنفي هذا التنوع في النظر إلى الغرب، ولكنها تزعم أن السمة الأغلب التي تسود النظرة إلى الغرب هي سمة تحقيق نصر في ميدان بديل عن الميادين التي حقق فيها الغرب انتصاراته: الميدان العسكري والميدان الحضاري، فلم يجد الشرقي سوى الميدان الجنسي ليحقق فيه انتصارًا يعوّض فيه هزائمه الكثيرة."[2]

ويتضح من خلال ما ورد في روايات القصيبي حول هذا الموضوع، أنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة، فهو يفرق ما بين الحب والجنس، يقول البروفسور "لم نكن نعتبر ما يحدث بيننا فعل جنس؛ كنا نعدّه فعل حب. والجنس، وأنت سيّد العارفين، كثيرًا ما يكون فعل كره، أو فعل انتقام، أو فعل قهر، أو فعل إثبات فحولة، أو فعل احتقار، أو فعل هواية"[3] ثم يأخذ بإيراد أسماء لفعل الجنس تنم في حقيقتها عن شهوةٍ ضارية "أظنك تتفق معي، يا حفيد فرويد، أن معَسَ وطخَّ لا يمكن أن تعتبر أفعال حُبّ"[4] فالراوي يستخدم فعل الحب في حينه، وفعل الجنس في حينه، رُغم تحليلات الدكتور فوزي الحاج حول علاقة الراوي بسوزي اليهودية "نحن لسنا ملزمين بتصديق الراوي بأنه لم يعلم بيهودية الفتاة التي عاشرها، وعرف أدق تفاصيل حياتها عامين كاملين..."[5] إلا أن الراوي قد فرق بين فعل الحب، وفعل الجنس، وقال إن الذي بينه وبين سوزي فعل حب وليس جنس، وإن كان الأمر كما يقول الدكتور فوزي، فكيف للراوي أن يستغل حبًّا طاهرًا عفيفًا إلّا

---

[1] العصفورية، ص30.

2 فوزي الحاج، غزو الغرب "رمزيًا" كتعويض، في روايات ما بعد الكولونيالية، مكتبة الطالب، غزة، فلسطين، د.ط ، 2017، ص9.

[3] العصفورية، ص63.

[4] العصفورية، ص63.

[5] غزو الغرب "رمزيًا" كتعويض، في روايات ما بعد الكولونيالية، ص115.

لغرض التعويض، وسواء كانت سوزي جاسوسة أو لم تكن فإنه قتلها روائيًا في نهاية الأمر بحادثة السيارة، ودار حولها اللغط الكبير، هل هي جاسوسة للعربستانيين أم لليهود. لقد أضفى الراوي على سوزي صفة الإنسانة المحبة المخلصة وشعر منها بذلك طوال مدة لقائه بها، فكيف له أن يثور عليها ويضربها لمجرد علمه بأنها يهودية، فهل كان السبب الوحيد هو أنها استغفلته؟ وإلا فلمَ جاءت بالقلادة التي تحمل نجمة داود وأظهرتها له دون أن تحاول إخفاءها، طالما أنها جاسوسة؟! بل إنها استغربت منه لأنه لا يعرف أنها يهودية "لم أخدعك. ولم أكذب عليك. هل سألتني؟ لو سألتني لأجبتك. كنت واثقة أنك تعرف. كل الناس يعرفون أن أسرة شيلنج يهودية"[1] قد تكون سوزي بريئة من الجاسوسية ومن اتهامات الراوي لها، لكنها في النهاية أحبته وعاشت معه، ورغم يهوديتها كانت تصمت عندما يسب إسرائيل ويلعن الصهاينة، كانت تطبع له خطب تأييد القضية الفلسطينية. قد تكون سوزي وبناءً على ما سبق من معطيات، يهودية ترفض الصهيونية، واحتلال فلسطين، ويكفي أنها تعيش في أمريكا وليس في إسرائيل، فلماذا يعاملها الراوي تلك المعاملة عندما أكتشف أنها يهودية؟ ربما أراد الراوي تبيان النظرة العربية لليهود بشكلٍ عام، سواء كانوا صهاينة أم لم يكونوا، فيكفي أن يكونوا يهودًا ليكرههم العرب، ولكنه بطبيعة الحال أثبت إنسانيتها، وأحبها كما لم يحب غيرها، وقال قبل ذلك: إنه لا يكره اليهود لمجرد كونهم يهودًا! فكيف له أن يسلب هذه الإنسانية، بل ويقتل –روائيًا– طفله الذي في أحشائها ومن صلبه معها في حادثة السيارة، ألهذه الدرجة وصل فيه الحقد؟! لقد أراد الراوي أن يقطع أي رابطة بين العرب واليهود، وإن كان هذا الطفل تلك الرابطة، فليمت، نعم كان هذا مثالًا على الغزو الجنسي التعويضي، وله من المبررات التي تؤهله لأن يكون كذلك، لكن الباحثَ يزعم بوجوب تحييد الإنسانية، والحب الصادق في مثل هذه الأحوال، وإن كان اليهود فاقديها، فلا يكون العرب مثلهم.

ومن الأمثلة الواضحة على هذه القضية ما ورد في العصفورية على لسان البروفسور: "وهذه العقدة يا حكيم، موجودة في كل مكان. البريطانيون يحبون العطور الفرنسية، والمرأة الفرنسية تحبّ الرجل الشرقي."[2] فها هو يبدأ بإظهار الذكورة العربية، وحب النساء الفرنسيات له، ولا ينبع حبهن من أي غرض سوى الجنس، وذات الإشارة في قول السائقة الشقراء له "إلى أين أيها الرجل الشرقي الأسمر الشهيّ الخطير الرهيب؟"[3] فأين مكمن خطورتنا نحن العرب، وإلام ترمي هذه الشقراء؟ فليس لدى العربي في الغرب ما يفخر به سوى قدرته الجنسية، والتي فيها تضخيم وتهويل، جاء به العرب من فساد سير الخلفاء الذين ملكوا مئات الجواري، ولا سيما قضية السبي التي لا يكادون يذكرون من الدين غيرها، وذلك بعد ما حلَّ بالعرب من هوانٍ وذلٍ بفعل الغزو الغربي لهم، وإفقادهم سلطانهم على بلادهم ومواردهم، ليصبح الغزو العربي الروائي هو فعلٌ

وأكثر ما يظهر هذا الغزو التعويضي النفسي، في شكوى موظف المطار الغربي للبروفسور من أفعال مصطفى سعيد، بطل موسم الهجرة إلى الشمال إذ أنه "مفسد في الأرض يأتي إلى الشمال مهاجرًا، فيغتصب نصف نساء الشمال، ويذبح النصف الآخر" ليتبنى الراوي هذا الموقف ويقول "بيض الله وجه

[1] العصفورية، ص74.
[2] العصفورية، ص30.
[3] العصفورية، ص40.

مصطفى سعيد! لطالما اغتصب أهل الشمال أرضنا اغتصابا. وانتهبوا ثرواتنا انتهابا. ولقينا منهم بؤسًا وعذابًا"[1] فهل هذا الاغتصاب الجنسي يردٌّ للمغتصب العربي، ما سُلِب منه من كرامةٍ وأرضٍ وخيرات؟! وعلى كل حال فليس هذا الأمر إلا جزءٌ من التعويض و"فشُّ الغِل" بالنسبةِ للعربي، في مقامٍ يزري به وبحاله.

يستمر الراوي في التضخيم من قدرات العرب الجنسية؛ ليكملوا غزوهم التعويضي لنساء الغرب، فهم لا يعانون مشاكل العجز الجنسي قط "متى بدأت تعاني من العجز الجنسي؟". "لم أعرف العجز الجنسي قط. مشكلتي العكس تمامًا. مثل الخليجعربستاني الذي وصل إلى مطار هيثرو الدولي، وكتب في خانة الجنس: "زايد شوي" .. "ماذا تقصد". أقصد أني مُبتلى بقوة جنسيّة فوق المُعدَّل". "هاه! تعويض!". "تعويض عن ماذا؟". "عن مشكلتك الحقيقة. العجز الجنسي"[2] وهذا مثال دامغ على أن الراوي يعي ما يقول هنا، بمعنى أنه مدركٌ أن ما يسوقه من أحداثٍ جنسية في روايته، إنما هي مخارج للتعويض عن العجز العربي أمام المد الغربي واليهودي في بلاد العرب، وما ذِكرَه لمصطفى سعيد بطل الطيب صالح، إلا ليصل بنا إلى هذه النتيجة، فهو يحلل الأعمال الأدبية الأخرى في عمله الروائي، فهو يستخدم مصطلح "التعويض" صراحةً ويحوّره خلال حواره مع الطبيب، على الوجهةِ التي يشاء، لكن المراد في النهاية واحد، وهو التعويض الذي تحدث عنه الدكتور فوزي الحاج، كغزوٍ تعويضي للغرب.

أما المثال الأكثر وضوحًا في شقة الحرية حول هذه القضية "وهناك في ركن مظلم، على الحشائش، يبدأ الهجوم" وليس بالمطلق هذه مقدمةٌ لحدثٍ جنسيٍ أبدًا، بالنسبة للباحثِ على الأقل، فهذا الكلام بمثابة تربصٍ بفريسة، لكن الأمر ليس من هذا القبيل، فالراوي يريد أن يتحدث عن يعقوب، مع زوجات الإنجليز "لم يكن يعقوب يشعر أنه يمارس الجنس بل يمارس الثأر. لم يكن يضاجع المسز هندرسون، ولا المسز ستون، ولا بقية الشمطاوات، بقدر ما كان يغتصب الامبراطورية الاستعمارية العجوز ... وكان قد صفّى حسابه مع معظم العجائز"[3] فيعقوب القومي الذي أهمته الوحدة العربية، وانضم إلى اللجان الشعبية ضد العدوان على مصر، واعتُقِل باسم القومية العربية، لم يكن له من بدٍ في النهاية سوى حربه لأجل العروبة، في ميدان الجنس، ضد الانجليز في نسائهم.

يستحدث القصيبي طريقةً جديدةً للغزو الجنسي في روايته سبعة "قضيت ليلة بأكملها أضرب الإمبراطورية البريطانية ... – بعد منتصف الليل وجدت نفسي مع ضابط إنجليزي كبير"[4] فهذه وَجد إحدى مصادر المعلومات لصحفي سبعة، تجد نفسها مع جنرال انجليزي يطلب منها أن تضربه، فتضربه بيدها ثم بالحزام، ثم بكعب حذائها العالي لتترك الجنرال البريطاني و"الدماء تسيل من كل مكان في جسده، وكان يتأوّه في نشوة عارمة، وكنت في حاجة إلى حذاء جديد. كانت مؤخرته أشبه ما تكون ..."[5] فالغزو التعويضي لأمة الغرب لم يتوقف لدى القصيبي عند النساء فحسب، بل تعداهم إلى ذكورهم، وعلى يد نساء العرب، ولم يكن

[1] العصفورية، ص120.
[2] العصفورية، ص144.
[3] شقة الحرية، ص322-323.
[4] سبعة، ص142.
[5] سبعة، ص142.

الذّكرُ الغربيُّ، عاديًا بل كان جنرالًا بريطانيًا، ولا يخفى على أحدٍ ماذا فعلت بريطانيا بأمة العرب، ويكفي وعد بلفور.

لقد تعدى الأمر إلى ما هو أكثر من الاعتداء، فمضى إلى سلب الفحولة من الغربيين وأنهم مُثار للاشمئزازِ والقرف، "عفوًا! أنت تعرف كم أتقزّز من النوم مع هؤلاء البشر. هؤلاء الناس لا يختتنون و... – وجد! – عفوا! أنا أتقزّز منهم والسلام. – عاطفة قومية نبيلة ومشرفة. – من حسن حظي أني لم أضطر إلى النوم معه."[1]

لقد تاجر الراوي بنساء الغرب واليهود على حدٍ سواء، واتخذهنَّ للمتعة دون زواج، وإن جاءت فرصةً للتخلي عنهن لم يتوانَ عن فعل ذلك "العربستاني الذي أغوى امرأة يهودية (وصهيونية على الأرجح). على متن الطائرة. ثم جيّرها لصديق عربستاني آخر. العربستاني الذي يسبي اليهوديات."[2] في مقابل جلنار العربستانية الملائكية التي ذاب الرجال السبعة خلفها، ولم يتمكن أحدٌ منها في النهاية، بل ولمَّا وُجدت ميتة؛ كانت عذراء.

لم يقتصر الغزو الجنسي عند القصيبي على الغزو الآدمي، بل تعداه إلى الغزو الحيواني، "عندما بدأ حماري ينهق بشدّة، ويجري وراء حمارة فرنسية حسناء. سرعان ما لحق حماري بالحمارة ... وهنا ضحكت وقالت: "حمار نكاح؟!". قلت: وأزيدك شوق! عائلتي بالذات، تشتهر بالفحولة، فحولة رجالها، وفحولة حميرها". قالت: "أوه! لا! لا!"[3] ولم يقتصر الأمر على العصفورية بل ورد الغزو الحيواني في سبعة مع ديبورا اليهودية كذلك "شهقت ديبورا وقالت وهي تضحك: – أوه! أوه! أوه! ذكر واحد و500 أنثى! عرفت، الآن، من علّمكم كيف تتعاملون مع النساء. تعلمتم هذا من جمالكم"[4] كان هذا أبرز مظاهر الغزو الجنسي التعويضي، في روايات القصيبي مجال الدراسة، ليزعم الباحث أن القصيبي قد فعل ذلك، عن ذهنٍ متوقد، قاصد به فكرة التعويض تارةً، وأخرى جاءت طوعًا للنص من باب عقدة الخواجة.

الترجمة:

قضيةٌ أرقت القصيبي في غير مكانٍ من رواياته ونقاشاته، إنها الترجمة، التي لم يكن الأخير مجرد منظِّرٍ لها، بل خاض غمارها واقعًا في حياته الأدبية، إذ ترجم أكثر من قصيدةٍ وكتاب مثل كتاب العلاقات الدولية لِجوزيف فرانكل، وكتاب المؤمن الصادق لإيريك هوفر، وعن سبب ترجمة الأخير يقول: "وجدت فيه جوابًا شافيًا عن سؤال شغلني منذ أن بدأت ظاهرة الإرهاب تشغل العالم، وهو "لماذا يصبح الإرهابي إرهابيًا؟"."[5] نخلُص من ذلك أن الحاجة إلى المعرفةِ هي التي دفعته لترجمة هذا الكتاب، وجعله مشاعًا بين طلابها في الأقطار العربية كافّة.

---

[1] سبعة، ص142.
[2] سبعة، ص335.
[3] العصفورية، ص139-140.
[4] سبعة، ص249.
[5] إيريك هوفر، المؤمن الصادق، ترجمة: غازي القصيبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، إمارة أبو ظبي، ط1، 2010، ص13.

لقد أبدى القصيبي تحسره في غير موضعٍ من رواياته، وذلك بسبب عدم ترجمة العديد من الأعمال الأدبية الرفيعة، من وإلى العربية، فالأمة العربية لديها من الآداب الراقية ما يجب أن يطلع عليه الغرب، من باب أنسنة العلم أولًا، ومن ثم ليحفظ للعربية مكانتها بين لغات العالم، وهذه النظرة تم استشفافها من التزام الأديب بعروبته، أما عن نقل المصنفات من اللغات الأخرى إلى العربية، فلكي يُستفاد مما فيها من العلوم والمعارف، وأن تكون أمة العرب على تواصلٍ دائمٍ مع العلوم.

ومن أكثر الأشياء التي تثيره عدم ترجمة ديوان المتنبي، فنجده في العصفورية يتحسر على لسان البروفسور ويشتكي ويستغرب في آن واحد من عدم ترجمة ديوان المتنبي "حسنًا كنت أنوي أن أترجم قصائد من ديوان المتنبّي بالاشتراك مع سوزي. كانت سوزي تحب الأبيات التي أترجمها لها من شعره بين الحين والحين ... لم يُترجم ديوان المتنبي إلى الإنجليزية حتى هذه اللحظة، يا نطاسي، مع أن كثيرًا من الغثاءات ترجمت. ربما لصعوبة ترجمته"[1] واضحٌ ما في هذه الأسطر من نبرةٍ متداخلةٍ، يُثيرها الأديبُ في متلقيه، فطالما أن هذا الشعر بالإمكان ترجمته، بل ويستمتع المتلقي الغربي به عند ترجمته، كسوزي التي تحب الأبيات التي يترجمها لها البروفسور، فلماذا لا يُترجم الديوان؟! في المقابل إن هناك أعمالًا أقل إبداعًا منه تُرجمت! توجد الإجابة عن هذا التساؤل في موضعين: الأول في ذات الحدث إذ يقول "ربما لصعوبة ترجمته" فمعروفٌ أن ترجمة الشعرِ من أصعب الترجمات، يقول القصيبي في إحدى المقابلات "أما الشعر، فترجمته مشكلة عويصة؛ لأنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالموسيقى – وهذه كيف ترجمتها؟ –كما أن فيه كثير من الومضات والإيماءات، التي تفقد كل مدلولاتها، خارج نطاقها الحضاري."[2] فهل هذا موقفٌ متناقضٌ للأديب؟ لا، ليس الأمر كذلك، ولكن هذه إشارة منه إلى الدقة التي يجب تحريها عند ترجمة الشعر، وهذه حقيقةٌ لا حاجة إلى تبيانها، أما الموضع الثاني الذي بيّن فيه الراوي سبب عدم ترجمة ديوان المتنبي في رواية دنسكو "المتنبي؟ الاسم ليس غريبًا عليّ."

–بطبيعة الحال! هل نسيت برنامج آرابيا؟ كان المفروض أن نترجم ديوان المتنبي، إلا أننا ترجمنا ونشرنا جزءًا صغيرًا منه، ثم توقفنا لأننا اضطررنا إلى استخدام المبلغ في تمويل..."[3] ولا يخفى ما ورد في دنسكو من فسادٍ وأمورٍ غامضةٍ ومجهولةٍ حول مصادر التمويل وأوجه صرفها، إذًا فالفساد وعدم إعطاء الأمور أولوياتها ومواقعها من الأهمية، سببٌ في عدم ترجمة ديوان المتنبي إلى وقتنا هذا، كما يجدر بالعرب ومؤسساتهم وجامعاتهم العريقة أن تلتفت إلى هذا الأمر الهام.

في سبعة إشارةٌ إلى ديوانٍ روسي، في الحقيقة هو من صنع خيال الراوي، كمؤلفه الروسي الخيالي كذلك، ولكن بطبيعة الحال، ما يهم هو تعرضه لقضية الترجمة، حيث الإهمال في ترجمة الآداب إلى اللغة العربية "بدأت المقابلة بسؤال عن آخر ديوان قرأته. قلت: "أوهام المداخن" للشاعر السوفيتي سابقًا، الروسي حاليًا، نيقولا إشماتشوف. في هذا الديوان يتحدّث الشاعر برمزاوية مستعبطة عن انهيار الحلم الماركسي،

[1] العصفورية، ص68.
[2] غازي القصيبي، استجوابات غازي القصيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، 2010، ص127.
[3] دنسكو، ص74.

للأسف لم يُتَرجم الديوان بعد"[1] فهنا الراوي يكذبُ على الصحفي الذي يجري المقابلة معه، وقد وصفه بالكلب الصغير "بريق إعجاب نفّاذ في عين الكلب الصغير"[2] ، وبالتالي على الجمهور العربي الذي تعوزه الثقافة والمطالعة، ودليل التصديق موجود "للأسف لم يُتَرجم الديوان بعد" ولولا حالة الضعف الكبيرة لدى العرب في الترجمة، لما انطلت حيلة الراوي على محاوره، المحرر الثقافي!

ثم يأخذ بإيراد أمثلة عن مترجمين عرب "من لم ينفعه ظنّه لم ينفعه يقينه. المنفلوطي. أغرب مترجم في التاريخ. ترجم 7 روايات عن الفرنسية وهو لا يعرف حرفًا من الفرنسية. لم يذهب المسكين إلى باريس."3 والحقيقة أن المنفلوطي كذلك، فكيف كان يُترجم الأعمال الأدبية عن لغة لا يفهمها؟ لقد استعان بأصدقائه الذين كانوا يترجمون له الروايات، ثم يقوم بصياغتها في قالب أدبي. ويبدو أن الراوي لا تعجبه هذه الترجمات، يقول صاحب عبقرية اللغة العربية: "وأحيانا ينسى الناقل أنه ينقل عن لغة أجنبية لها حضارتها وعادات أهلها وطبيعة أرضها ومنحى التفكير فيها وخصائص تركيبها فيلجأ إلى خياله هو فيخرج ما ادّعى أنه منقول عن لغة أجنبية وكأنه قد كتب ابتداء بلغة الناقل نفسه."[4] وقد انتقد الكاتب نفسه المنفلوطي في ترجمته لأعمال غربية، فهو لم يراعِ ما سبق من خصوصيات للغة المنقول عنها، إذ إن العتاب بدأ في إحدى الروايات التي ترجمها المنفلوطي من عتاب حبيبين غربيين إلى عتابٍ شرقيٍ عربيٍ قديمٍ بحت "بدا سيرانو وهو يعاتب حبيبته روكسان وكأنه عنترة يخاطب عبلة. (ولقد كان عذر المنفلوطي أنه لم يعرف اللغة الفرنسية ولا لغة أخرى غير العربية. فكانت الروايات تسرد له سردا عاديا فيضعها هو في اللغة التي يراها مناسبة)."[5] وربما يقول قائل إن المترجم الذي ترجم للمنفلوطي أول مرة، أوردها بهذه الطريقة، فأكمل المنفلوطي على ذات المنوال! لكن الإجابة لم تغب عن ذهن الراوي إذ يقول "لم يذهب المسكين إلى باريس." فحتى لو كان ذلك الافتراض صحيحًا، فالمنفلوطي يجهل طريقة الفرنسيين في الحياة، وكفى. وعلى أية حال فجهود المنفلوطي لا يمكن تجاوزها، فالرجل مجتهدٌ وأديب له أسلوبه، وصياغته العربية المشهورة.

أما المترجم الآخر فهو الشاعر المصري، التركي الأصل: أحمد رامي، إذ وجده البروفسور في باريس مثل باقي شعرائه الذين استحضرهم في الرواية، وبدأ بإشاراتٍ حول إحدى الرباعيات التي ترجمها رامي عن الفارسية "كنت يا حكيم، في مقهى من مقاهي البيجال أرتشف قطرات من البرنو عندما "سمعت صوتًا هاتفًا في السَّحَرْ" ... "هبّوا! أملأوا كأس الطلا!"6 وها هو يورد الحدث بطريقةٍ ملؤها الفكاهة، حتى وصل إلى أن الهاتف بالسحر هو "محسوبك! أحمد رامي. شاعر الشباب.7 مجنون سومة8"9 ويبدو أن الراوي قد خص هذه

---

[1] سبعة، ص21.
[2] سبعة، ص21.
[3] العصفورية، ص35.
[4] عمر فروخ، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص291.
[5] المرجع السابق، الموضع نفسه.
[6] العصفورية، ص38.
[7] لقبه الذي عُرف به منذ أن كان ينشر أشعاره في مجلة الشباب، إذ كان يطلق عليه صاحب المجلة هذا اللقب، ثم أُلصق به؛ لخفة روحه، وحبه للحياة وتجددها في نفسه، ويكيبيديا.
[8] لم يلقب أحمد رامي بمجنون سومة، من لُقِبَ بهذا اللقب، هو أحد أعيان مصر الحاج سعيد الطحان، الذي تابع الست أم كلثوم وحفلاتها، حيث ذهبت، وصاحب المقولة المشهورة "عظمة على عظمة يا ست" وسومة "ثومة" هو لقب أم كلثوم.
[9] العصفورية، ص38.

الرباعية دون غيرها؛ ليشير إلى التغيير الذي أحدثه أحمد رامي في ترجمته لرباعية "سمعت صوتًا هاتفًا بالسحر" فأم كلثوم رفضت أن تغني قصيدةً فيها دعوة إلى الخمر والسكر، عندما يقول:

سمعت صوتا هاتفا في السحر
نادى من (ألحان) غفاة البشر
هبوا املأوا كاس (الطلا) قبل أن
(تفعم) كاس العمر كف القدر

فبادر إلى تغيير كلمات الرباعية، بحيث تتناسب مع ذوق أم كلثوم، التي أحبها وطرب بصوتها وغنائها، ولم يرفض لها طلبًا، ولو على حساب الترجمة، لتصبح:

سمعت صوتا هاتفا في السحر
نادى من (الغيب) غفاة البشر
هبوا املأوا كاس (المنى) قبل أن
(تملأ) كاس العمر كف القدر

ولم يتوقف الأمر على ذلك، بل كثيرًا ما كان يتصرف في الرباعيات، لذلك انتصرت روحه على ترجمته. "اعلم أن هذه الكلمات ليست لي". قلت: "واعجباه! ليست لك؟ كلمات من إذن؟" قال: "عمر الخيّام". قلت: "الذي يبيع بيوت الشَعَر في البطحة؟". "قال "لا! لا! عمر الخيام الشاعر الفارسي المشهور". قلت: "فارسي وينظم بالعربية؟! بيَّض الله وَجهه!" قال "لا! لا! ينظم بالفارسية" قلت: "سبحان الله"[1] يتضح من هذا الحوار وما بعده الطريقة الهزلية التي كان البروفسور يحاور بها الشاعر أحمد رامي، وكأنه المُراد من هذه السخرية والهزلية، اعتراض غير مباشر على ترجمة أحمد رامي لرباعيات الخيام "تصور يا نطاسي! شاعر عربي يأتي إلى العاصمة الفرنساوية ليترجم شعرًا فارسيًّا! الأمر الذي يذكّرني بأدونيس"[2] وإقرانه رامي بأدونيس الحداثيّ الذي لا يُفهم شعره –كما سيأتي عند الحديث عن الحداثة– يدل على ذلك الاعتراض، ولو كانت الترجمة دقيقة لاجتمعت الترجمات الكثيرة لرباعيات الخيام على معنى وأثر واحد "ولكن الشعر– اللباس اللفظي الذي يجعل من الكلام شعرا– يكون دائما شعرَ الناقل لا شعرَ المنقول عنه. إن رباعيّاتِ عُمَرَ الخيّام، مثلًا قد نقلت إلى لغاتٍ كثيرةٍ نقولًا مختلفة. ولهذه الرباعيات في اللغة نقول لـ ... ولأحمد رامي ... والفروق بين هذه النقول مختلفة باختلاف مقدرة أصحابها ولذلك فهي تمثلهم هم ولا تمثلَ عمر الخيام إلّا بما بقي فيها من المعاني الخاصة بعمر الخيام. ولو كانت تلك النقول تمثل عمر الخيام لكانت كلها تعبيرًا واحدا على مستوىً واحدٍ من الصِحّة والدِقّة والأثَر في النفس"[3] لقد ترجم أحمد رامي الرباعيات عن الفارسية مباشرةً إلى العربية، فالترجمات التي كانت إلى العربية قبله منقولةٌ عن الترجمة الفرنسة لها. أما عن سؤال الراوي كيف لعربيٍ أن يذهب ليترجم في باريس شعر شاعر فارسي؟ فالسبب بكل بساطة أن أحمد رامي قد درس علم المكتبات

[1] العصفورية، ص39.
[2] العصفورية، ص39.
[3] عبقرية اللغة العربية، ص303-304.

والوثائق في السوربون، وتعلم في معهد اللغات الشرقية في باريس اللغة الفارسية، والكتب والمخطوطات محلها باريس وليس الرياض أو القاهرة! كما أنه اطلع على الترجمات الأخرى ومنها الفرنسية للرباعيات ولا مُحالة أنه استفاد منها، رُغم ترجمته المباشرة إلى العربية.

يعترض الراوي على المترجمين العرب الذين وجدهم في باريس لأن لغتهم الفرنسية ليست قوية، فكيف يترجمون عن لغةٍ لا يفهموها جيدًا؟! "الغريب أن كل العرب الذين قابلتهم في باريس كانوا يخربطون بالفرنسية. لم يحسنها منهم أحد."[1] قد يكون الراوي مبالغًا في هذه القضية ولكن "يجب أن يعرف المترجم لغة الأصل واللغة المترجمة إليها معرفة عميقة؛ تشمل كافة الجوانب اللغوية: علم الأصوات والنحو والصرف، وعلوم البلاغة؛ إذ يرتبط مضمون النص الأصلي –مباشرة– بصيغ اللغة التي أنشئ بها"[2] ويضرب مثلًا آخرًا لذلك في العصفورية كذلك "وهنا قاطعته: "وهل يعرف أرسطو العربية فيقول هذا البيت؟". قال الملحوني: "قرأته بنفسي في كتاب "الأخلاق" ترجمة أستاذ الجيل[3]". قلت: "وهل يعرف أستاذ الجيل اليونانية فيترجم عنها؟". قال: ترجم شاعر النيل[4] "البؤساء" وهو لا يعرف حتى بونجور". قلت: "يجوز للشعراء ما لا يجوز لغيرهم."[5] وهنا تعليق آخر للراوي خلال حواراته مع شخوصه، يعترض فيه من طريق مفهوم على طريقة الترجمات إلى اللغة العربية، فهذا أستاذ الجيل، يترجم كتاب الأخلاق لأرسطو إلى اللغة العربية، وهو لم يعرف اليونانية! كيف ذلك؟! لقد تم ذلك من خلال الترجمة الفرنسية لكتاب الأخلاق، فقد استعان أستاذ الجيل في كتبه المترجمة عن اليونانية، بالترجمات الفرنسية لها، فهو إذًا يترجم المُتَرجَم، وليس الأصل. ثم ينتقل مباشرةً إلى ترجمةٍ أخرى وهي ترجمة البؤساء لحافظ إبراهيم، تلك الترجمة التي لم تعجب طه حسين "ما رأيك في أني أقرأ الأصل الفرنسي فأفهمه بلا عناء، وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها إلَّا كارهًا! ولست أتقن الفرنسية إتقانًا خاصًّا، ولا أجهل العربية جهلا خاصًّا"[6] فطه حسين وهو من هو لا يفهم لغة البؤساء العربية لجزالتها، ويرى أنها لا تلاءم روح العصر الذي قيلت فيه، ولا اللغة المستخدمة في ترجمتها، ولا تعين كذلك على فهم آراء فيكتور هوجو، بل واعتبره بأنه "يلخص ولا يترجم"[7] واعتبر ترجمته "–على ضخامة ألفاظها وفخامة أساليبها، وعلى ما لها من روعة وجمال– ليست دقيقة، ولا حسنة الأداء"[8] أما عن جهل حافظ إبراهيم للّغة الفرنسية، فقد أكد الدكتور يوسف نوفل معرفة حافظ إبراهيم لها "ولم يقتصر على اللغة العربية، فدرس اللغة الفرنسية وقرأ في آدابها، وأخذ يترجم عن اللغة الفرنسية، فترجم قصة "البؤساء" للشاعر الفرنسي فيكتور هوجو"[9]

---

[1] العصفورية، ص41.

[2] محمد منصور، الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2006، ص42.

[3] لقبٌ للفيلسوف المصري، أحمد لطفي السيد، ورائد حركة النهضة والتنوير في مصر، وأطلقوا عليه كذلك "أبو الليبرالية المصرية"

[4] لقبٌ للشاعر المصري، حافظ إبراهيم، كان معاصرًا لأحمد شوقي وذاع صيته حتى لقب بشاعر الشعب.

[5] العصفورية، ص125-126.

[6] طه حسين، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص63.

[7] المرجع السابق، ص63.

[8] حافظ وشوقي، ص64.

[9] يوسف نوفل، شاعر الشعب وشاعر النيل، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1997، ص36.

كانت الترجمة الحرفية من أهم مشاكل الترجمة التي تطرق لها القصيبي في رواياته، وما يترتب عليها من فهم خاطئ "المشكلة في الترجمة الحرفية. سينو، في الجذر اليوناني، مشتقة من كلمة كلب. وعندما تُرجمت كلمة "السينكية" إلى العربية تُرجمت حرفيًا فأصبحت الكلبية."[1] ففي حوار الفيلسوف في رواية سبعة مع جلنار، اتصل أحد المشاهدين وسأل عن الفلسفة الكلبية، ليرجع الفيلسوف السبب الرئيس لهذه التسمية، سوء الترجمة، ترجمة المصطلح حرفيًا، وذات المشكلة تعرض لها في العصفورية "رواية "يوليسس" من أولها إلى آخرها "ستريم أوف كونشسنس". كيف تترجم هذا إلى العربية؟ تدفق المشاعر؟ تداعي الأفكار"[2] وهذه مشكلة كبيرة، أدت إلى خلط وفوضى وخلط في ترجمة المصطلحات بشكل عام خاص، وليس ذلك الخلل منبعه خصوصية اللغة العربية، بل بسبب الترجمة الحرفية غير الدقيقة.

ويتعرض الراوي في سبعة لذات المشكلة "تعرف كلينت إيستوود؟ بالتأكيد! الرجل الذي اشتهر بجملة: "ميْ كماي دي!" أطلقها مثلًا. تصعب ترجمة الجملة إلى العربية حرفيًا. "أصنع يومي!"؟ جملة غير مفيدة."[3] فترجمة الجملة حرفيًا قد قتلت المعنى، فكل ما تدور به سياقات ورود هذه الجملة كانت تتمحور حول "سعادة اليوم" وليس لها علاقة بصناعة اليوم. ولم تتوقف المشكلة عند الترجمة الحرفية فحسب "الترجمة كثيرًا ما تكون مشكلة عويصة. خصوصًا ترجمة أسماء المستخرعات الحديثة"[4] فالقصيبي يرفض أن تسمى الأشياء بمسميات غربية، واللغة العربية قائمة، والحق أن الذي يخترعها حرٌ في تسميتها، وله أن يفرض على مستهلكها التسمية التي يشاء، وبأي لغة يشاء، بما أنه هو الذي اخترع وصنع.

لقد جاء الراوي بأمثلةٍ عمليةٍ عن الترجمة الحرفية في العصفورية "في مرحلة من المراحل سمعنا عنتر يغني "عمّي يا بياع الورد!" ويترجمها آنية: "أنكل! سِلْ أسْ روزيزْ!" وفي مرحلة أخرى، وصلنا صوت شيبوب يغنّي "ع اللومة اللومة اللومة!" بدون ترجمة، من حسن الحظ."[5] إن المراحل التي يتحدث عنها الراوي، هي مراحل سكر كل من عنتر وشيبوب، وترجمة المخمور بطبيعة الحال ليست كترجمة الواعي اليقظ، وفي هذا سخرية كبيرة من الترجمة الحرفية وممن يفعلها، وإلا لك أن تتخيل، معاني أغانينا العربية العاطفية، عندما تترجم كما هي إلى اللغة الإنجليزية مثلًا، بما فيها من مجازات واستعارات وتشبيهات، فعلًا ستكون مشكلةً عويصة.

ويضرب مثلًا للترجمة بالمعنى من الشعر العربي، أثناء محاكمة البروفسور في المحكمة، فقد أجاب عندما سأله القاضي عما حدث: "عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا * فلمَّا دهتنا لم تزدْنا بها علما" . التفت القاضي إلى شيبوب وسأله: "ماذا قال؟". ردَّ شيبوب: "استشهد ببيت شعر قديم". قال القاضي: "ما معناه؟". رد شيبوب: "معناه لا جديد تحت الشمس""[6] وسواء كان المعنى دقيق أم لم يكن، فالقاضي قال: "ما معناه" ولم يقل ما ترجمته، ويتعرض الراوي في موطنٍ آخرٍ إلى ترجمة ""شارع التعليب"، وهذه ترجمة حرفية ركيكة

[1] سبعة، ص83.
[2] العصفورية، ص67.
[3] العصفورية، ص49.
[4] العصفورية، ص49.
[5] العصفورية، ص61.
[6] العصفورية، ص81.

للاسم الانجليزي "كانيري رو". الترجمة، دائما خيانة للأصل"[1] "يقال: إن الترجمة خيانة للأصل. وهذا القول صحيح إلى حد ما، ولكنه يصدق على ترجمة الشعر، أكثر من ترجمة النثر."[2] وتظل مشكلة الترجمة قائمة قبل وبعد القصيبي، لقد استعرضت الصفحات السابقة، النظرة النقدية للقصيبي حول قضية الترجمة.

السرقات الأدبية:

رفض القصيبي أن يعتبر المتنبي سارقًا أدبيًا، وقد ورد ذلك عند الحديث عن المتنبي، أما الآن فنجده يورد مفهومه ومصطلحه الذي يرتضيه لتلك القضية، ويظهر أنه يورده استهزاءً وسخرية، يقول الراوي: "ثم إن لدينا قسمًا متخصصًا في وقوع الحافر على الحافر. – قسم حيوانات؟ لا يا عمّي! هذا اصطلاح. يُستخدم عندما يسرق الشاعر بيتًا بحذافيره من شاعر آخر. وعندما يُضبط مُتلبسًا بالنشل يقول: "هاه! هاه! مجرد كوإنسدنسْ. حافر وقع على حافر". بعبارة أخرى، هذا قسم السرقات الأدبية."[3] يرجع الراوي إلى العصور القديمة، مستعيرًا تسميتهم للسرقات الأدبية لكي يعبر عنها بطريقته، مبينًا المفهوم الذي يرتضيه لها؛ فهو يعتبر أن السرقة الأدبية تقع عندما "يسرق الشاعر بيتًا بحذافيره من شاعر آخر" بمعنى أن ينسِبُ ما لغيره من الشعر لنفسه، فهذا الطبيب يريد أن يحتفظ بنسخةٍ من القصيدة التي كتبتها سوزي للبروفسور، فيحذره البروفسور من نسبتها لنفسه: "قصيدة ظريفة. هل أعجبتك؟ – جدًا. هل تسمح لي بالاحتفاظ بنسخة منها؟

– بالتأكيد! بالتأكيد! ولكن لا تنسبها لنفسك وإلا قاضاك قسم وقوع الحافر على الحافر."[4]

فهل كان الراوي يعتقد أن السرقة الأدبية تقع في هذه الحالة فقط "السرقة بالحذافير، ونسبة العمل برمته للنفس"؟ على ما يبدو "نعم، إلى حدٍ ما" لأن الدلالة على تلك الإجابة توجد في رواية سبعة، عندما اتهمت "أمواج" –طالبة الأدب– الشاعر: كنعان فلفل، بأنه سرق قصيدته "أشباح المدينة" من الشاعر المكسيكي "تكيلا"[5] ليبرر ذلك بقوله "نعم! نعم! التناصّ، يا آنسة أمواج، التناصّ. سمعتِ بالتناص؟" ولكن لم تكن أمواج سهلة الإقناع فرفضت فكرة التناص "– سمعت بالتناص. ولكن ألا ترى أن الأمر، في هذه الحالة، تجاوز التناصّ؟ –هناك تناصّ محدود وهناك تناصّ مفتوح. – في هذه الحالة هناك أكثر من التناصّ المفتوح. –لا يمكن حصر التناصّ لأن ..."[6] لا يستطيع أن يكمل تبريره لأن أمواج قاطعته وبدأت تقرأ قصيدته وقصيدة تكيلا، وبسبب وجوه الشبه الكبيرة بين القصيدتين معنىً ولفظًا، عدت ذلك سرقةً أدبية "هل تقصد أننا بصدد الظاهرة التي كان نقّاد العرب يسمّونها "وقع الحافر على الحافر"؟"[7] يغضب الشاعر من هذا الاتهام، بل وعندما نشرت أمواج بحثها، الذي يتحدث حول ذلك، حاول الشاعر كنعان فلفل رفع قضيةٍ عليها، فهي شهّرت به! لأنه متيقن أن ما فعله مجرد تناص وليس سرقة أدبية "لا يستطيع أحد منعي من الحديث عن

[1] العصفورية، ص68-69.
[2] استجوابات غازي القصيبي، ص127.
[3] العصفورية، ص46.
[4] العصفورية، ص62.
[5] لا يوجد شاعر بهذا الاسم، ولكن تيكيلا اسم يُطلق على مدينة في غرب المكسيك، تشتهر بمشروب كحولي يسمى باسمها.
[6] سبعة، ص28.
[7] سبعة، ص30.

تجربة ما لأن غيري تحدّث عن التجربة ذاتها. هذه فاشية أدبية. ديكتاتورية بغيضة يا آنسة أمواج. أنا أتحدّث عن تجربة إنسانية معروفة. قديمة قدم الإنسان نفسه."[1] فالمعاني إذًا مطروحةٌ في الطريق، وليست حكرًا على أحد، وأبرز ميادين الشعر العربي الذي تبرز فيه هذه القضية، هو ميدان الوقوف على الأطلال، الذي احتل مطالع القصائد القديمة في غالبيتها، ومع ذلك فالنقاد لم يعدوه سرقة، رُغم أن معاني تلك المطالع "تجاربها" واحدة بين غالبية الشعراء، الذين يبكون طلل الديار البالي وما إلى ذلك من المعاني المعروفة. وعلى أية الحال، إن كان التناص لا يأتي بالجديد، فما فائدته؟ "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممّن تقدّمهم والصبّ على قوالب من سبقهم؛ ولكن عليهم- إذا أخذوها- أن يكسوها ألفاظا من عندهم، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها؛ فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممّن سبق إليها"[2] أما إن نُقلت المعاني والألفاظ كما هي، حتى وإن نقلت مع تغيير دون تطوير، فإنه تكرارٌ مذموم، ولا مجال للإفاضة في هذا المقام، خاصةً بما يتعلق بقضيتي السرقة والتناص، فالمصنفات قد امتلأت بهما، ولكن المهم هنا، هو إبراز ما الباحث بصدد دراسته، من آراء القصيبي النقدية في القضايا المختلفة، فالرجل يرى أن "التجارب البشرية ليست ملك تكيلا، ولا ملكي أنا، ولا ملكك أنت. ولا ملك أساتذتك العظام في الكلّية. تجارب البشر تراث البشر أجمعين."[3] ويؤكد الراوي على رأيه بطريقةٍ أخرى، وذلك عندما قاربت الرواية على النهاية، متقنعًا خلف مونولوج الصحفية العربستانية المثيرة جلنار، التي يصعُبُ إرضاؤها، ودائما تنتصر على من تستضيفهم في برنامجها التلفزيوني، إلا أن الراوي، جعلها في النهاية تقتنع برؤيتهِ حول السرقةِ والتناص، فيقول على لسانها "وشاعرنا يسرق أشعار الآخرين، الشعراء الغربيين المغمورين. والسرقة في الشعر كالسرقة في أي مجال آخر. هذا ما يقوله القاموس. إلّا أن ما يقوله القاموس خطأ فاضح. هناك سرقة وهناك سرقة وهناك سرقة. هناك فرق بين أن تسرق الحليب من الرضيع وأن تسرق أبياتًا من شاعر مغمور. السرقة هنا جريمة قتل. والسرقة هناك تلاقح حضاري. ما أروع الحضارات المتلاقحة! ..."[4] حتى أنه قبل هذا الحديثِ، كان يطعن في القاموسِ الثابتِ الجامدِ العقيم. ومجال هذا في القضايا اللغوية، بل ويؤكد أننا إذا بقينا على هذه النظرة للسرقة الأدبية، فإن "كلّ رسائل الماجستير سرقات من الآخرين. سرقات ظاهرة. وكل رسائل الدكتوراه سرقات من الآخرين. سرقات خفيّة تتستّر تحت ألف هامش. وألف مرجع. وألف صفحة من الهراء."[5] فأول ما يُنتقد به الباحث في رسائل الماجستير، وأطروحات الدكتوراه هو عدم رجوعه لكتبٍ ومصنفات اعتباريةٍ قيّمة، فبقدر ما تعود للمصادر فإن لرسالتك قيمة كبيرة، والروائي يستحضر هذا الأمر بحيَلِهِ المعتادة –مع الأخذ بعين الاعتبار الفارق بين القضيتين- ليبين هذا الأمر في مجال التناص، والتجارب، والمعاني المتكررة على مدار التاريخ، فطالما الإنسان موجود فإن هذه التجارب موجودة، ونحن بحاجة للتعبير عنها، سواءً بطريقة الأقدمين أم

[1] سبعة، ص30.
[2] أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، د.ط، 1998، ص196.
[3] سبعة، ص30.
[4] سبعة، ص328.
[5] سبعة، ص328.

بطريقتنا التي استوحيناها منهم، مع التطوير والتجديد فيها بما يتلاءم وروح العصر الذي نعيش، فالباحث يستخدم الاقتباسات من الكتب، في أبحاثه لكي يتدرج بالمعرفة من زمانها حتى زمانه، وكذلك الأديب بالنسبة للراوي، يعود لما كتبه الأقدمون ويحييه من جديدٍ بطريقةٍ جديدةٍ وعصرية، ولا ضير في ذلك بالنسبة للباحث؛ إلّا في حال أن يقوم الشاعر بطلب براءة فكرةٍ، أو تجربةٍ له، فإنه في هذه الحالِ ليس بكاذبٍ، بل مُتَهاذ، ويكفي قول عنترة العبسي، إذ قطع قول كل خطيبٍ في هذه المسألةِ منذ الجاهلية الأولى:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ منْ متردَّم أم هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهمِ[1]

الغزل بالمذكر:

لقد عُرف عن القصيبي عدم تورعهِ عن إثارة أي موضوعٍ في رواياته وأعماله الأدبية، لا سيما الجنسية منها، ويكفي تعليق نديم جرجورة على غلاف شقة الحرية إذ يقول واصفًا الكاتب من خلالها "القصيبي جريء في تصويره الشغف الجنسي والارتباك العاطفي والجسد الأنثوي"[2] وقد عدّها غيره روايةً جنسية، وإن كان الباحث لا يرى ذلك، وقد تناولَت نقطة سابقة الغزو الجنسي في روايات القصيبي، وها هو موضوعٌ جنسيٌ آخر يُثار دون أدنى ريبةٍ في الحديث عنه في تلك الروايات، في الوقت الذي يحاول المجتمع العربي إنكار وجوده، والسكوت عنه، والادعاء أحيانًا بعدم وجوده عند العرب، لكن الراوي يُخرج هذه القضية من رحم التاريخ العربي من خلال آدابهم إذ كانت ولا زالت ديوانهم .

ويستخدم تسميةً جديدةً للشذوذ الجنسي "وماذا تسمّون الشذوذ الجنسي الآن؟ – الخيار الجنسي البديل. اسم لذيذ جدًا. سكسي في الواقع. سوف أذكر هذا التعبير."[3] وبطبيعة الحال يرفض الراوي الأمر من مبتدئه، فإن كان الشذوذ خيارًا جنسيًا بديلًا فـ"فلان ليس لصًا؛ إنه يمارس الخيار الاقتصادي البديل. وفلان ليس كذّابًا؛ إنه يمارس الخيار اللغوي البديل..."[4]

ويحاول الروائي وصف الشعور الذي ينتاب من يمارس ذلك الفعل الجنسي؛ فقد أعلن يعقوب "أنه مارس الجنس مع صبيّ وقال إنه لم يشعر أنه يقوم بعمل شاذ. كان يمارس حقّه كإنسان في أن يعرف مختلف التجارب الإنسانية بكل تنوعها."[5] بهذه الطريقة ومنذ أول عملٍ روائي له، كشف القصيبي القناع عن مثل تلك القضايا الشائكة دون تورعٍ أو خجل، وما موقع الخجل أصلًا في مجال المعرفة والآداب والعلوم؟! فمن يقول بذلك لا زال في غيابات الفكر التقليدي المحنط، فليس للخجل من موضع في غير مجالس العجائز والصبية، وليس له في مقام العلم من مكان، إنْ عطَّلَ المعرفةَ والحقيقة.

يؤرخ الراوي للغزل في المذكر في الشعر العربي: "واعلم يا حفيد فرويد، أن 90% من الغزل في الشعر العربي منذ منتصف القرن العباسي وحتى بداية القرن العشرين غزل في مذكّر"[6] إذ بدأ الغزل بالمذكر

[1] الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2001، ص197.
[2] نقلًا من صفحة الغلاف الخلفية لرواية شقة الحرية.
[3] العصفورية، ص44.
[4] العصفورية، ص44.
[5] شقة الحرية، 165.
[6] العصفورية، ص65.

منذ العصر العباسي، ولم يكن موجودًا لا في أدبٍ جاهليٍّ ولا إسلاميٍّ ولا حتى أُمويّ، واستمر إلى ما بعد ذلك، ولشدة تأثر الشعراء بذلك أصبح: "حتى عندما يقصد الشاعر حبيبته يقول "حبيبي!". وحتى عندما يعني السمراء يقول الأسمر! انتشرت مفردات الغزل المذكر حتى طبعت كل الغزل العربي بطابعها."[1] وها هو في كتابه "عن قبيلتي أحدثكم" يثير هذه القضية عند حديثه عن تصنيف الشعراء، فأبو نواس وأشياعه كانوا رواد هذه الحركة التجديدية الغريبة عن الأدب العربي سواء في الخمر أم الشذوذ "لم يكن التجديد مقصورًا على اللغة وحدها، فالمضامين، بدورها، تعرضت لتغييرات هائلة ... الحب الجنسي المثلي الذي لم يكن يخطر ببال الشعراء/ الملوك أو الشعراء/ الفرسان أن يلاحظوه فضلًا عن التغني به أصبح الموضوع الأثير لدى الشعراء/ الموظفين الكبار"[2]

فالفسق والمجون قد بلغ ذروته في ذلك العصر، وحرية اللسان والفعل قد أُطلقتا على مصراعيها، في البلاط الحاكم قبل الحانات ودور اللهو والهوى، و"حل الغلمان محل البدويات العذريات في مخيلة الشعراء العباسيين."[3] وها هو يتناول عددًا من الشعراء والأدباء من العرب والغرب في حديثه عن تلك القضية، أما العرب فلم يذكر تأثير ذلك في شعرهم، بل أورد التهم التي وجهت إليهم كونهم شاذين جنسيًا، فهذا: جبران خليل جبران "هل قرأت الكتاب الذي صدر مؤخّرًا والذي يزعم أن جبران كانت لديه ميول جنسية غير طبيعية؟ – سمعت عنه."[4] فما هو السبب الذي يكمن خلفه اتهام جبران بالشذوذ؟ ذاك أنه لازم المصور الأمريكي فريد هولاند داي مدةً من الزمن و"كان اهتمام داي الاكبر التصوير الفوتوغرافي. وكان يحب تحديداً تصوير الصبية الصغار الجذابين من أعراق مختلفة وأحيانا وهم عراة أو وهم مرتدون أزياءهم الوطنية التقليدية. وكان غالباً ما ينتقيهم من شوارع حي «ساوث اند» وعندما وصل جبران إلى باب داي عام 1896 كان عمره وقتها 13 عاماً تحول لواحد من موديلات داي الذي كان مأخوذا بجبران تحديداً فجعله تلميذه ومساعده"[5]

ولا شك أن ظروفًا كهذه تثير السمعة حول المصور الفوتوغرافي الذي يهتم بالصبية، والوسيمين منهم على وجه التحديد، وبالتالي بالأطفال الذين يلتحقون به، الأمر الذي أدى إلى ملاحظة "كاميلا وأخوه بطرس ان خليل كان يقضي جل وقته مع أناس لم يقدمهم لهما. وربما قلقا عليه أيضا من احتكاكه بالبروتستانتيين ... وكذلك بالتأكيد مع داي الذي افترض بأنه شاذ"[6]

ولكن الراوي يقضي برأيه أخيرًا في المسألة "أنا لا أعتقد أن جبران كان شاذًا."[7] ورغم تبرئته لجبران من الشذوذ إلا أنه يتطرق لقضية أخرى متصلة بالجنس حوله، ومصدره في تلك المعلومة: "قال ميخائيل نعيمة في كتابه عن جبران إنه عرف الجنس، أعني جبران لا نعيمة، في سن الرابعة عشرة، مع امرأة تكبره. مشكلة جبران لم تكن الشذوذ؛ مشكلته إعجاب العجائز به."[8] وذلك موجودٌ بالفعل في كتاب "جبران خليل

---

[1] العصفورية، ص65.
[2] عن قبيلتي أحدثكم، ص36.
[3] المرجع السابق، ص36-37.
[4] العصفورية، ص26.
[5] جوان أوكسيلا، ضوء/دافع كتاب النبي...ظاهر جبران خليل جبران، ترجمة، عمرو علي زين العابدين، جريدة الراي، 2008.
[6] ضوء/دافع كتاب النبي...ظاهر جبران خليل جبران.
[7] العصفورية، ص26.
[8] العصفورية، ص26.

جبران" الذي كتبه ميخائيل نعيمة "كلامك أكبر من سنيك. فكم عمرك يا سيد جبران؟" "أربع عشرة سنة." ... أخذ جبران ينقل عينيه من السيدة إلى الخادمة ومن الخادمة إلى السيدة وهو لا يكاد يبصر لا تلك ولا هذه، لأنّه ظلّ حانقًا على نفسه كيف انقاد للسيدة فتركها تداعب شعره وتقبّله على جبينه."[1]

ولم يتوقف الأمر على ذلك اللقاء الأول عند المصور وقبلة الجبين فحسب بينه والمرأة، بل "ودّع جبران "ملاكه الحارس" نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ومعها ودّع صباه وعفّة الصبا وطهارته."[2] ودامت زياراته السرية لتلك السيدة التي تكبره، المُهمَلَة من زوجها، والمتعطشة للجنس. "مرّ عام مزدحم بالزيارات السريّة إلى البيت السري."[3] فخلال هذا العام لم يتحدث ميخائيل حول أي إشارة عن علاقة جنسية بين المصور المشكوك في أمره، وبين جبران، فالجنس موقوف على تلك السيدةِ في تلك الفترة، وليست مشكلة جبران كما يقول الراوي في أن العجائز يعجبن به، بل هي مشكلتهن هُنَّ، فيما يعانين منه من نضوب، يضطرهن إلى الصبية.

أما أدباء الغرب فقد تحدث عن أوسكار وايلد، وقد ورد ذكره في المبحث الأول إذ اعتقله الإنجليز بتهمة الشذوذ الجنسي، كما تحدث بإشارة مقتضبة عن "سومرست موم[4] كتب رواية شهيرة اسمها "عن العبودية البشرية". فيها وصف بديع لمعاناة العاشق من طرف واحد."[5] وعن السبب الذي أدى بموم إلى الشذوذ الجنسي يقول الراوي "معاناة العاشق من طرف واحد. ربّما كان هذا ما دفعه، فيما بعد، إلى الخيار الجنسي البديل[6] وقد كانت ميول موم الجنسية ظاهرة ومعروفة عنه.

أما الأديب الأخير فهو الإنجليزي شكسبير، وقد أُحيلت هذه النقطة عند الحديث عن شكسبير إلى هنا، يعتقد الراوي أن "أجمل أشعار شكسبير، مكتوبة في غلام. والدليل؟ الدليل أن الإهداء إلى رجل، وأن في بعض الأبيات نصيحة بأن يتزوج الفتى قبل فوات الأوان"[7] ثم يأخذ بإيراد مقاطع من شعر شكسبير المترجم إلى العربية والمُخاطَبُ فيه ذكر: "هل أقارنك بيوم من أيام الصيف؟ أنت أحلى وأرقّ. فالرياح العنيفة قد تسحق براعم مايو الحبيبة. وعمر الصيف قصير..."[8] وربما يكون الأمر كما يقول الراوي: إن هذه الأعمال الجميلة كُتبت في غلام، فمجمل الاتهامات بمثلية وليام جاءت بسبب إشارات في أعماله مثل سونيتة "الحب العادل للشباب" وغيرها من الأعمال التي تناثرت فيها العواطف الجياشة في حب الشباب، وقصيدته "اغتصاب لوكريس" وغيرها من المسرحيات التي ورد فيها ما يؤيد شذوذه الجنسي، ومع ذلك فلا يوجد أي دليلٍ في حياته العملية على ذلك، بل إنه تزوج وأنجب، ولما كانت زوجته حامل خانها مع أخرى، ولم يثبت في أي مرجع اطلّع الباحث عليه، أنه ضُبط بواقعة الممارسة المثلية للجنس، ومهما يكن فليس بالضرورةِ إن

---

[1] ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، نوفل، بيروت، ط13، 2009، ص54.

[2] جبران خليل جبران، ص63.

[3] جبران خليل جبران، ص63.

[4] وليام سومرست موم (1874-1965) روائي ومسرحي انجليزي مشهور، كتب في شتى المجالات (مسرحية، رواية، قصة، سياسية) يستمد كتاباته من حياة الناس الواقعية خلال أسفاره ورحلاته، عمل كجاسوسٍ للمخابرات البريطانية في الحرب العالمية الأولى، وارتفعت مبيعات رواياته التي عبر بها عن تلك المرحلة، لكن مكانته الأدبية بدأت الانحطاط؛ بسبب كتاباته الإباحية المبتذلة.

[5] العصفورية، ص232، ويكيبيديا.

[6] العصفورية، ص232.

[7] العصفورية، ص65.

[8] العصفورية، ص65.

كتبَ الأديبُ عن قضيةٍ ما، أن يكون من أربابها! فهذا القصيبي لا توجد روايةٌ من رواياته إلا وتكلم فيها عن الفعل الجنسي، سواء فِعله كراوٍ مشاركٍ في الحدث القصصي، أم فِعْلُ الشخصيات، والتي تمثل رؤاه في أحيانٍ كثيرة. ومع ذلك لا يرفض الراوي الافتراض الذي يقول: إن شكسبير قد كتب هذه الأعمال عن مذكر، فبعدما قرأ على النطاسي شعر شكسبير المترجم، والذي زعم أنه كُتِبَ في غلام يأخذ رأيه "كِيْف تشوف يا نطاسي؟ هل من الممكن أن تكون هذه الكلمات الجميلة عن رجل؟ – وايْ نوت؟!

– صدقت! واي نُوت إنديد؟!"[1]

فلا يوجد مانع من أن يكون هذا الشعر في غلام، ومع ذلك لا يوجد إثبات أن شكسبير قد فعل ذلك مع غلام. إلا أن الافتراض والاحتمال لا يزال مستمر، فالراوي لم يجزم بأن هذا الشعر الجميل قيل في غلام، فعندما سألته ماريّا كالاس[2] عن كاتب الشعر الذي ينشدها إياه أجاب ""شكسبير، تقبريني!". ولم أجد من الملائم أن أضيف أن هناك احتمالًا قويًّا أن يكون شكسبير كتبه عن غلام"[3] ويبقى الاحتمال احتمالًا رُغم قوته، ومهما يكن فقد استخدم الراوي الشعر المشكوك فيه لمغازلة فتاة وأية فتاة "ماريّا كالاس" والتي جعلها بدوره تطلب الشعر العربي، ليختار شاعره المفضل أبا حسيد، الذي يُشعره بقوميته أكثر من غيره، لا سيما في مقام جنسي كهذا، تتجلى فيه الفحولة العربية، والتعويض التي سبقت الإشارة إليه.

الشعر والإلقاء:

"ما أعظم الفرق بين قصائدي حين تغرد بها المرأة الجميلة،
وقصائدي حين يخور بها هذا الثور"[4]

هل ينقص من مقدار الشاعر أو شعره ضعف الإلقاء؟ لقد أثار القصيبي هذه القضية في غير روايةٍ من رواياته، بل وكان الإلقاء مثلبًا على صاحبه الذي لا يحسنه، وقيمةً يتفاخر بها الذي يحسنه، وهذا ما جرى عليه القدماء والمحدثون على مر العصور، وقد عبر عبد الله بن معاوية عن هذه القضية بقوله:

يُزَيِّنُ الشِّعْرَ أَفْوَاهٌ إِذَا نَطَقَتْ بِالشِّعْرِ يَوْماً، وَقَدْ يُزْرِي بِأَفْوَاهِ[5]

وقد افتخر البارودي بحسن إلقائه لشعره فقال:

فَأَلْقِ إِلَيْهِ السَّمْعَ يُنْبِئْكَ أَنَّهُ هُوَ الشِّعْرُ لَا مَا يَدَّعِي المَلَأُ الغَمْرُ
يَزِيدُ عَلَى الإِنْشَادِ حُسْنًا كَأَنَّنِي نَفَثْتُ بِهِ سِحْرًا وَلَيْسَ بِهِ سِحْرُ[6]

وها هي المسابقات تقُام، والجوائز تقدم؛ مكافأةً على حسن الإلقاء في زماننا، بل إن الشاعر الذي يُحسن إلقاء شعره يظهر على غيره، فلدينا: نزار قباني، محمود درويش، مظفر النواب وغيرهم من الشعراء الذي أبدعوا في الإلقاء، وكانت لهم أساليبهم الإلقائية الخاصة، التي قلدها بعدهم الكثيرون دون أن يصلوا

[1] العصفورية، ص65.
[2] مغنية أوبرا يونانية أمريكية مشهورة.
[3] العصفورية، ص141.
[4] سبعة، ص41.
[5] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1999، ص125.
[6] البارودي، ديوانه، تحقيق وضبط: علي الجارم، ومحمد معلوف، دار العودة، بيروت، د.ط، 1998، ص229.

إليها، وأصبحت قصائدهم المسجلة بمثابة الأغاني التي تُسمع، فتجد المريدين يستمعون إليها بطربٍ بالغٍ عبر هواتفهم النقالة وأجهزة الصوت والتسجيل لديهم، أما القدماء، فقد قرّب الخلفاءُ الشعراءَ الذين يحسنون حفظ الشعر وإلقائه، والجواري اللاتي تغنيه من مجالسهم، كما حظين بمكانة رفيعةٍ لديهم. إن "الإلقاء الجيد له أثره في نفوس السامعين؛ إذ يسمو بالشعر إلى أرقى الدرجات، كما أن سوء الإلقاء قد يخفض من قدر الشعر الجيد؛ لأن الإلقاء عنصر من عناصر الجمال في الشعر، لا يقل أهمية عن ألفاظه ومعانيه وأخيلته."[1]

وهذا الراوي في العصفورية يتعرض لهذه القضية فيما يتعلق بأحمد شوقي "وكثيرًا ما كان يصيح بشعره في وجوه الناس. لم يكن يحسن إلقاء شعره فيلقيه نيابة عنه آخرون. الحلو ما يكملشي! أمير الشعراء لا يعرف يلقي شعره."[2] يقول ذلك ساخرًا متعجبًا، ويقرنه بالبحتري الذي لم يكن يجيد إلقاء شعره كذلك "شأنه شأن البحتري الذي كان يُغضب الممدوح بإلقائه فيأمر بإلغاء الجائزة. وقد يأمر بصفعه. أو قذفه في بحيرة غير عميقة"[3] ولم يكن القصيبي الوحيد الذي قرن بين شوقي والبحتري في ضعف إلقائهما للشعر "فمن الأدباء من لا يحسن الحديث ولكنه يحسن الكتابة، كالذي حكي عن البحتري أنه لم يكن يجيد الإلقاء، ويرجو آخر في أن يلقي له شعره، وكذلك كان في عصرنا المرحوم شوقي بك، يحسن الشعر أكثر مما يحسنه حافظ إبراهيم، ولكن حافظ إبراهيم كان يحسن الحديث أكثر من شوقي"[4] أما الذي كان يستعين به شوقي في الإلقاء "كان علي الجارم يلقي شعر شوقي. وإلقاء الجارم نص/نص ولكن، كما يقول أصدقائي اللبنانيون، "الأعور على المكرسحين غزال"[5] فهل كان شوقي مكرسح[6] وعلي الجارم أعور؟ بالنسبة للراوي نعم "في مجال الإلقاء" وذلك بحسب المثل الشعبي الذي وظفه في معرض حديثه عن هذه القضية. إذًا لم يكن شوقي يحسن إلقاء شعره وكان "يوكل إلقاء شعره إلى علي الجارم في الأغلب الأعم وإلى توفيق دياب أحيانا"[7] "وتقدم "على الجارم" يلقي قصيدة شوقي، وبهذه المناسبة نقول.. كان شوقي يعهد بإلقاء قصائده إلى توفيق دياب أو على الجارم"[8] والراوي يعتبر أن إلقاء الجارم "نص/نص" لكن جابر عصفور يعتبر أن شوقي "كان يوكل ذلك إلى المقربين المتميزين في أداء الشعر"[9] والذين كانوا يلقون شعر شوقي كما سبق هما الجارم ودياب في الدرجة الأساس، وغير عصفور هناك الكثير ممن يفضلونهما في الإلقاء، لكن القصيبي في العصفورية اعتبر أن إلقاء الجارم "نص/نص" وعلى أية حال، فإن إلقاء الشعر "يحتاج إلى ملقٍ متمرس، ولابد له من أن يفهم معنى القصيدة كاملا ويحيط برويها وبحرها وكلماتها ومفرداتها ومعانيها، بمعنى أنه يجب على من يلقي الشعر أن يكون ملمًّا بفهم القصيدة والمناسبة التي ألقيت فيها، فالشعر تختلف معانيه، فإلقاء القصيدة في الرثاء على خلاف إلقاء قصيدة في الحكمة"[10]

---

[1] طه مقلد، فن الإلقاء، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، د.ط، د.ت، ص201.
[2] العصفورية، ص37.
[3] العصفورية، ص37.
[4] أحمد أمين، النقد الأدبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص225.
[5] العصفورية، ص37.
[6] مُقعد.
[7] لمعي المطيعي، موسوعة نساء ورجال من مصر، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003، ص233.
[8] موسوعة نساء ورجال من مصر، ص231.
[9] جابر عصفور، أوجه أحمد شوقي، جريدة الأهرام، العدد:44163، 5 نوفمبر، 2007.
[10] فن الإلقاء، ص205.

لقد كان القصيبي يظهر في الأمسيات الأدبية والسياسية ويلقي قصائد شعره أمام الجمهور، بكل أدبية وتمرسٍ وشعور، فقد التزم الإلقاء الجيد الذي تحدث عنه، بل إن الشجن كان ظاهرًا بينًا في حنجرته الشعرية، فمن يسمعه ينشد الشعرَ يحُسُ بالشجن النبيل، ولما سُئل عن ذلك أجاب بأن السبب يكمن في أن "تجربتنا الإنسانية محاصرة بالحزن من كل جانب"[1] وبدأ يسرد أصناف الحزن الذي يصيب الإنسانية ليتساءل "هل يمكن لشاعر أن يهرب من الحزن الذي يسكن كل ذرة أوكسجين يستنشقها أما أنا فلا أقدر. لا كإنسان، ولا كشاعر."[2] لذلك انعكس ذلك الشجن في صوته وإحساسه، أثناء إلقائه لشعره في الأمسيات والمناسبات التي ظهر وألقى فيها الشعر.

الحداثة:

لقد كان للقصيبي موقفه الخاص من الحداثة فقد عبر عنه خلال أعماله المختلفة، وكان لرواياته نصيب من تلك القضية النقدية الهامة.

كان مدخل الراوي لتلك القضية عن طريق أحد أهم رواد الحداثة "أدونيس" ومن طريقة السرد لحواره مع أدونيس، يتجلى رأيه في الحداثة "الأمر يذكرني بأدونيس. هل تعرف أدونيس؟

- الإله القديم؟

- لا يا عمّي! الشاعر المعاصر. رأيته في زقاق من أزقة باريس الضيقة ... كان في مقهى بوهيمي[3] يكتب ويمزّق كل ما يكتبه. قلت: "ماذا تفعل يا أدون؟". قال: "وما أدون؟". قلت: "ولو يا أبا الأدانسة! "ترخيمًا أحذف آخر المنادى * كيا سُعا فيمن دعا سُعادا. ..."[4] فالراوي يستخدم الترخيم مع أدونيس، ثم يكنيه بأبي الأدانسة، والذي يتبين من ذلك هو غرض الاستهزاء والتحقير لا غرض التعظيم والتكريم من الترخيم، ثم إنه كيف لأدونيس، أن يجهل الترخيم، ويغيب عنه المقصود من أدون، رُغم كونه شاعرًا، وقد أثبت له الراوي هذا اللقب عندما قال "الشاعر المعاصر" والراوي يشرح له الترخيم ويضرب أمثلة عليه، فهو بذلك يقدح في أدونيس، فكيف لشاعرٍ أن يجهل قضية من قضايا العربية كالترخيم؟! وعندما جاء ليتحدث عن الحداثة "قال: تحوّل. إجلس معي واشرب كوكتيل صدمة الحداثة". قلت: "وما كوكتيل صدمة الحداثة ؟"قال: "خُذ كفريات ابن الراوندي الملحد، وهرطقات بشّار الأعمى الناصح، وشعوبيات أبي نواس الغلاميّ الزنديق، ورُشّ عليها شكوكيات أبي العلاء المعرّي، وتقعّرات أبي تمّام"[5] فلم يترك مثلبًا من المثالب التي اشتهر بها شعراء العرب الأوائل، وذُمُّوا بها، إلا جاء به لوصف الحداثة، ولم يقف الأمر على ذلك بل جاء ببدعٍ من الكلام، بعضه له معنى وآخر ليس له معنى، وما كان له معنى لم يستسغ موضوعه في درج هذا الكلام إلا كونه هذيانًا: "ثم خُذْ خَربَقًا وسَلفَقًا وشَبَرقًا فزهزقه وزقزقه فينتج كوكتيل صدمة الحداثة"[6] وقد ذكر هذا الكوكتيل في غير موضعٍ

[1] سيرة شعرية، ص218.
[2] سيرة شعرية، ص218.
[3] ذا طابع غجري، يُستخدم لوصف الفنانين الذي يعيشون أجواء مختلفة بعيدًا عن عادات المجتمع، دون اهتمام بالمظهر، وانشغال بالفن.
[4] العصفورية، ص40.
[5] العصفورية، ص40.
[6] العصفورية، ص40.

من العصفورية "فوجدت أن الفيزياء لا تمنح إلّا لمن يشرب كوكتيل صدمة الحداثة". قال: "فلم لم تطفحه؟"[1] ولفظة يطفح في العامية تُستخدم عند الشرب غير المحمود، فهو يتم من غير تذوق ولا لذة، وعن غير طيب خاطر. ويعد القصيبي ""الحداثة"، من أسوأ التعبيرات في السوق الثقافية لأنه تعبير غامض، يفهمه كل إنسان كما يريد"[2] وأما عن حداثة أدونيس بشكل خاص فيقول "حداثة "أدونيس – في رأيي – مناهضة للإسلام، ومنهج "أدونيس" الفكري بأكمله – معادٍ للإسلام – كما يتبين لكل من يقرأ أطروحته عن "الثابت والمتغير". في رأي "أدونيس"، كل شيء يحاول تحطيم التراث الديني واللغوي، هو حداثة يصفق لها ويشجعها"[3] فالقصيبي يحدد أولًا مفهوم الحداثة ويفرق بين الحداثة المقصودة والمطلوبة من الشباب وبين الحداثة عند أدونيس، إذ يرفض حداثة أدونيس، كونها معاديةً للدين واللغة في آن واحد، ويرتضي الحداثة بمفهومها الذي يلاءم العصر ومتطلباته، وذلك جليٌ عندما استخدم البروفسور كلمات قديمة واستوقفه الطبيب "– عفوًا يا بروفسور! هذي أغاني فولكلور قديمة. – نعم! نعم! لا أنكر ذلك. ولكني طوّرتها وعصرنتها وحدّثتها. هل تعرف الفرق بين الحداثة والتحديث؟ لا تعرف؟ هذا ما توقعته! هذا حديث يطول."[4] إذًا فلا مانع من عصرنة الكلام وتحديثه على مراد الراوي، وأن هناك فرقًا بين الحداثة والتحديث، فما يفعله الراوي تحديث وليس حداثة فهو يرفضها على الهيئة التي جاء بها أدونيس، وهذا دليلٌ آخر على التحديث والعصرنة بمصطلح التطوير. "– أبو حسيد قال الموت ولم يقل السكس. ولكني أطور شعره ليتناسب مع النافع من تقنية العصر."[5]

– فلا زال الفلك يدور بمصطلح العصر والعصرنة والتطوير بما ينفع من تقنية العصر الحاضر. وهذا بدوره يحيلُ من جديدٍ إلى استجوابات غازي القصيبي إذ يقول: "قبل سنوات كانت الكلمة المفضلة هي "المعاصرة" وهي في نظري أفضل من "الحداثة"؛ لأن معناها أوضح، وهو أن يعيش الشاعر في عصره، ويكتب بلغة عصره، ويعبر عن هموم عصره، وليتنا نعود إلى هذا المصطلح، وننسى لفظة "الحداثة" التي عكرت مياه النقاش."[6] إذًا فعداوة الحداثة للدين واللغة من أهم الأسباب التي دفعت القصيبي إلى معاداتها، واتهام شعرائها بالإفلاس الفني، "ولا شك أن القصيبي كان يشير في الوجه الثالث من وجوه الإفلاس الفني إلى شعراء الحداثة الذين شبه أشعارهم بالألغاز، وذلك نظرًا لما فعلوه في اللغة من تفريغ كامل لدلالاتها التقليدية الموروثة"[7] بيد أن الظاهر في رواية سبعة تحديدًا قد يُشعر المتلقي بتغييرٍ في نظرة القصيبي نحو الحداثة، فقد كان قناع طرحه الشعري فيها: الشاعر الحداثيّ "كنعان فلفل" الذي قام بثورة بينة على الشعر القديم وشعرائه، حيث وصفهم بالمحنطين، إذ يقول قاصدًا أبا نواس: "أو كما قال المحنط "وداوني بالتي كانت هي الداء"[8] فأبو نواس صاحب التجديد الأكبر في الشعر العربي من غلاميةٍ وخمريات بالنسبة له محنط! فهل استحق أبو نواس هذا اللفظ؛ لأن الراوي يرفض معاداة الدين في الشعر كما سبق، أو بسبب النظم

[1] العصفورية، ص121.
[2] استجوابات غازي القصيبي، ص111.
[3] استجوابات غازي القصيبي، ص111.
[4] العصفورية، ص138.
[5] العصفورية، ص145.
[6] استجوابات غازي القصيبي، ص11.
[7] علي المالكي، مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، كلية اللغة العربية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 2004، ص89.
[8] سبعة، ص44.

المهترئ؟ إذ يقول "ما أحلى أن يجد الشاعر امرأة جميلة قادرة على التفرقة بين الشعر النابض بالحياة المبوثقة وبين النظم المتبطرخ بالموت المهترئ."[1] وما هي الحياة بالنسبة للراوي هنا؟ لم تكن الحياة التي قصدها القصيبي بالمعنى الأدونيسي ومنظوره للحداثة، من تهجم على تعاليم الموروث القديم من دينٍ، ولغةٍ، وعُرفِ العرب الذي تممه الرسول من مكارم الأخلاق، فهو "يرفض الجمود والتقوقع داخل أشكال وأساليب بعينها، وإنما يطلب من الشعراء أن يغامروا ويجربوا"[2]و "أن يكون التجديد في الشعر منطلقًا من داخل التراث نفسه وليس من خارجه، وبالتالي فهو يرفض أن يكون في خندق التقليديين الذين يرفضون أي شعر ما لم يكن على منوال الأشكال والأساليب التراثية القديمة ابتداء من الشكل ذي الشطرين والأساليب والتراكيب وانتهاء بالألفاظ. وفي الوقت نفسه يرفض الوقوف مع المجددين الذين لا يرون لتجديدهم قيمة إلا بازدراء التراث وإغفاله بالكلية والاقتداء بالنماذج والأفكار الغربية الوافدة من أمثال "أدونيس" ومن سار على دربه."[3] ولا بد أن تهجمه على الشعر القديم الموزون المقفى قد نبع من ذات النظرة: "لم يمنعني من الوقوف إلّا القسم الذي أقسمته ذات مساء ممطر ... أقسمت أمامها ألا أكتب بيتًا واحدًا من النظم الموزون المقفّى ... الذين يريدون الوزن أن يذهبوا إلى سوق الجزارين. وعلى الذين يعشقون البحور أن يشربوا ماءها. حتى الثمالة."[4] لماذا هذا القسم من الراوي على عدم قول الشعر الموزون؟ لأن الذين كانوا في لقاء الشعر، "شعراء يهبّون. وشعراء يدبّون. شعراء بلا شعر. فقاعات لفظية تتفجر من الأشداق مع اللعاب."[5] وتفسير ذلك في البيت الذي نظمه الراوي على منوال الشعر الذي كان ينهق –على حد قوله– به بهيج العواد أحد الشعراء الذين حضروا لقاء الحمراء الشعري، فيقول بهيج:

الحب ملحمةٌ.. والقرب مغنمةٌ والبعد مغرمةٌ.. والشوقُ معطاءُ[6]

فيرد عليه الراوي في ذهنه خلف قناع كنعان:

الشكل لخبطةٌ.. والشعر شخبطةٌ والجوّ لعبطةٌ.. والإسم حرباءُ[7]

فهل معنى ذلك أن القصيبي قد رفض الشعر الموزون في عمومه، وانتسب لقصيدة النثر الخالية من الوزن مثلًا؟ الإجابة في حياة القصيبي العملية أكثر مما هي في مصنفاته وآرائه المكتوبة، فالرجل قد نظم على البحور الشعرية، وعارض المتنبي، وكان لسان حاله في جل رواياته، يبدأ فصوله بأبيات شعره ويختم بها، ونظم قصيدة التفعيلة أيضًا، التي يسميها بعض النقاد قصيدة الشعر الحر، والذين يرون أنها كذلك قد قصروا الحرية على عدد التفعيلات والتنويع بين البحور والقوافي، والأجدر أن تسمى قصيدة النثر بذلك فحريتها أكبر وأكبر من حرية التفعيلة المقيدةُ بتفعيلةٍ أو تفعيلتين، وقد رفضها القصيبي تمامًا ولم يعتبرها شعرًا أصلًا. "ولعل هذا التعلق بالموسيقى هو الذي يدفعني إلى الاعتقاد أن الكلام الذي يتحرر من الموسيقى نهائيًا لا

[1] سبعة، ص41.
[2] مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، ص85.
[3] مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، ص85.
[4] سبعة، ص39.
[5] سبعة، ص39.
[6] سبعة، ص39.
[7] سبعة، ص39.

يمكن أن يكون شعرًا، وإن أمكن بالطبع أن يكون نثرًا بالغ الروعة. ومن هنا فإنني أعتقد أن ما يسمى بقصيدة النثر ليست بقصيدة على الاطلاق."[1] فما الذي يريده القصيبي إذًا؟! يريد "أن يقف الموقف الوسطي بين الشكل القديم والشكل الحديث"[2] ولا يريد "شاعرًا مُحنّطًا. شاعرًا يكتب كلامًا مفهومًا. شاعرًا يبول في الأطلال مع ناقته التي تبول. وهو يبكي. ويطلب من كل الناس أن يقفوا ليبكوا معه. ويبولوا إن أمكن. لتبتلّ الأرض بالماء. يريدون شاعرًا يصف الغزال والشاة والذئب. أبناء الحرام هؤلاء لا يفهمون شيئًا في الشعر."[3]

هذه القضايا التي أكل عليها الدهر وشرب، قد مضت بمضي الأولين وبزمانها، فما قيمة أن يقف الشاعر المعاصر يبكي الطلل البالي في القرن العشرين والعشرين وواحد؟ وكيف يسمح لنفسه أن يُضيع القرون هباءً ليظل يكتب بلسانهم، فيما لم يخطر على بالهم؟! ويعتقد أنه "من حق كل شاعر، وكل جيل من الشعراء، أن يبدع لغته الخاصة وأساليبه الخاصة بصرف النظر عن تسمياتنا وتصنيفاتنا. وبدون ذلك يشيخ الشعر ويهرم ويموت"[4] ولكن ما الذي قصده الراوي في قوله "يريدون شاعرًا مُحنّطًا. شاعرًا يكتب كلامًا مفهومًا"[5] فقد جاءت هذه العبارة في معرض الذم للمحنطين الأقدمين الذين يكتبون الكلام المفهوم، وهذا يجبر البحث على التطرق إلى موقف الروائي من قضية الغموض، حتى نستطيع التوفيق بين نظرته للحداثة وما يكتنفها من غموض، وبين ذمه للذين يكتبون الكلام المفهوم.

لقد رحب القصيبي بالغموض العفوي البلاغي، ورفض الغموض المتعمد الذي لا يفهمه حتى قائلوه، وفرق جيدًا بين الغموض والإبهام "وبالرغم من أن القصيبي من المنادين بالبساطة في التعبير ... إلا أنه يرى أن غموض الشعر ليس بمشكلة، ولكنه في الوقت نفسه يفرق بين نوعين من الغموض هما: الغموض "المطلق" والغموض "النسبي" فالنوع الأول هو "الذي لا يفهمه القراء المتذوقون، وربما لا يفهمه حتى الذين كتبوه!!" فهو يرفضه تماما، في حين أنه لا يعترض على الغموض "النسبي"، والسبب أن ما لا يفهمه شخص ما قد يفهمه شخص آخر وبسهولة، وهذا راجع إلى خلفيات ثقافية أو نفسية أو حضارية"[6] فالغموض المبالغ فيه مرفوضٌ البتةَ لدى القصيبي، بل ويكيل الاتهامات لمن يفعل ذلك من الشعراء "ومن هنا يأتي رفضه لمسألة الغموض المتعمد الذي يصل إلى حد التعمية والإبهام الذي يستخدمه بعض الشعراء إما من أجل إضفاء شيء من الهالة والتعظيم لشعرهم وإما لإفلاسهم فنيًا."[7] وعلى الصعيد الآخر فهناك وجوه أخرى من الإفلاس ذكرها الروائي الناقد "ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يضع الشاعر رحيقه القديم في قوارير جديدة: أن يجترّ تجاربه القديمة في قصائده الجديدة. ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يعجز الشاعر عن الحديث بلغة معاصريه فيلجأ إلى لغة "تأبط شرًا" و"السُّلَيك بن السُّلكة". ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يبحث الشاعر عن لغة مبتكرة –أو عن لغة يفجّرها بمعرفته– فيعجز فيبدأ يتحدّث بالمعميات والألغاز والأحاجي التي لا يفهمها

---

[1] سيرة شعرية، ص37.
[2] مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، ص116.
[3] سبعة، ص22.
[4] سيرة شعرية، ص224.
[5] سبعة، ص22.
[6] مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، ص154.
[7] سيرة شعرية، ص2.5

أحد. ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يأتي إنتاج الشاعر مرقعًا بخرق يمكن إرجاع كل خرقة إلى مصدرها دون عناء."[1] ويمضي بألوانٍ أخرى من وجوه الإفلاس الشعري الذي يعده القصيبي أشد تعقيدًا من الإفلاس التجاري، ويختصره بكلمتين إذ يقول "باختصار، عندما يشيخ قلبه!"[2]

بعد هذه الآراء العميقة في القصيدة الحديثة كيف يريدها الراوي، وما هي المعايير التي يرتضيها لها؟

أولًا: أن تكون قصيدة إنسانية حسية وليست مجردة من الشعور والإلهام، لفظيةً صوتيةً فحسب "أنت تعرف نظريتي. كل الناس يعرفون نظريتي. ذهب زمان الشعر المسموع وجاء زمان الشعر المقروء. الذي كان الدكتور مندور يسميه الشعر المهموس"[3]

ثانيًا: ألا تخلو من روح الشعر، فقد اعتبر القصيبي أن "روح الشعر هي التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والإيماءات. وإذا زالت هذه، فماذا يبقى من أسلوب الشعر؟ مشكلتنا مع كثير مما يكتب هذه الأيام، أنه يقع ضمن دائرة الغموض المطلق؛ لذلك فهو أدب لا يستمتع به سوى الذين كتبوه، هذا إذا فهموه هم."[4] وقد عبر الراوي عن هذه المشكلة في العصفورية مخاطبًا الطبيب ليصرح بأن "المشاكل مع الحَرْفيين، يا طبيب، جزء من مأساتي. الحَرفيون لا يفهمون المجاز ولا الاستعارة ولا التشبيه ولا الجناس. والجناس غير الجنس! ولا بقيّة أدوات التعبير الفنّي. هم الذين دفعوا الناس إلى متاهات الغموض دفعًا"[5]

ثالثًا: أن تحتوي القصيدة على الغموض الموحي الجذاب، وليس المبهم الذي لا يفهمه حتى قائلوه.[6]

رابعًا: ألا يتجرأ الشعر الحديث على الدين وعلى اللغة، كما سبق أعلاه.

خامسًا: أن يكون بالإمكان حفظ القصيدة الحديثة وإنشادها وغنائها وألا تتخلص من الموسيقى بطبيعة الحال. "هذه المرأة الجميلة جدًا تحفظ قصيدتي. ويقول النقّاد / البقر إن الشعر الحديث لا يُحفظ. ليتهم كانوا الآن هنا ليسمعوها تغنّي –أي نعم تغنّي– قصيدة من الشعر الحديث"[7]

سادسًا: ألا يخلو الشعر الحديث من العاطفة "كانت هناك، بالفعل، دموع تلمع في عينيها. ويقول النقاد/البقر إن الشعر الحديث لا يحرّك المشاعر. الخنازير أبناء الخنازير! هذه المرأة الجميلة جدًا تبكي– تبكي يا عالم!– وهي تقرأ شعري."[8]

كانت هذه بعض المعايير التي طرحها الراوي في رواياته موضوع الدراسة والتي يجب أن تكون عليها القصيدة الحديثة، وهناك العديد من المعايير الأخرى في المصنفات المختلفة للقصيبي، كأن يكون الشعر نابعًا من إطار التراث واللغة وليس دخيلًا عليه أو أسيرًا له في ذات الوقت، وأن يلتزم الشاعر قضايا وهموم أمته، وقد كان ذلك واقعًا في دواوين القصيبي المختلفة، وبطبيعة الحال هذه ليست دراسة لمفهوم الشعر عند القصيبي، وإنما وردت تلك المعايير في إطار القضايا الأدبية والنقدية التي تعرض لها القصيبي في رواياته.

---

[1] سيرة شعرية، ص233.
[2] المرجع السابق، ص233.
[3] سبعة، ص33.
[4] استجوابات غازي القصيبي، ص123.
[5] العصفورية، ص63.
[6] انظر استجوابات غازي القصيبي، ص122.
[7] سبعة، ص36.
[8] سبعة، ص38.

الفصل الثاني

النقد السياسي

اختلف النقاد في تصنيف روايات القصيبي، هل هي ذات طابع سياسي، أم أنها ذات طابع اجتماعي، أم نفسي أم ديني؟ واعتبر آخرون أنها سيرٌ ذاتيةٌ لا أكثر. ومثال ذلك الخلاف، ما دار من جدلٍ حول تصنيف روايته العصفورية، "لقد أثارت رواية العصفورية جدلاً واسعاً حول المدرسة الفنية التي تبعتها هذه الرواية، نسبها البعض إلى تيار الوعي وجويس، في حين نسبها البعض الآخر إلى ما يسمى بالميتاقص، وجعلها البعض رواية سيكولوجية مرة وبعد حداثية مرة أخرى، بينما نسب الكاتب روايته إلى طريقة الجاحظ في الاستطراد، والتنقل بين مواضيع متعددة. وقد أطلق عليها الباحث اسم "الرواية الموسوعية" وكان لكل فريق من هؤلاء أدلته وأسانيده ، أو وجهة نظره المجردة في الرواية."[1]

فرواية العصفورية قد تناولت شتى المواضيع والمجالات، وكأنها بوحٌ كامنٌ في نفس الراوي، ولم يجد مكانًا يقبل بكل ما عنده، غير مستشفى المجانين، إذ لا أحد يمنع من هم فيها من قول الذي يريدون، من بابِ ليس على المجنون حرج، صحيحٌ أنه "قد سيطرت السياسة على ثلثيْ الرواية."[2] ولكنها لم تكن المجال الوحيد الذي تناوله الراوي في روايته، فقد احتوت العصفورية على سبعة مجالات تحدث فيها الراوي "الأدب، علم النفس السياسة، الإدارة، الفلسفة، الدين، ومعارف عامة"[3] وأغلب تلك المجالات ليس لها علاقة مباشرة بالسياسة، وهذا مؤداه أن نظلم الراوي إذا قصرنا موضوع روايته على المجال السياسي، وإذا تجاهلنا باقي المجالات التي تحدث فيها، فقد كان يتحدث في كل مجالٍ ما لو فكّكناه؛ لشعرنا أنه لا يعرف من العلوم إلا ذلك المجال، من دقة ما جاء به من معلوماتٍ، وأفكارٍ، حوله.

والأمر ينسحب على باقي رواياته كذلك، فالسياسة من المواضيع الركيزة الثابتة فيما يتناوله دومًا، من باب أنه رجلٌ سياسيٌّ في المقام الأول، فبداياته السياسية كانت ببعثته إلى اليمن ضمن وفد دبلوماسي سعودي، ثم عمله وزيرًا، وقد كان رجل دولةٍ مرموقًا، وتنقل بين العديد من السفارات العربية والغربية أيضًا، وكان عميدًا للسلك الدبلوماسي العربي كذلك، إضافةً إلى كونه كاتبًا ملتزمًا، مهمومًا بقضايا شعبه وأمته، فتلك الصراعات التي تطحن آمال وطموحات الشباب العربي، والأحزاب السياسية والجماعات الدينية، التي تحاول السيطرة على عقول أولئك الشباب وأدلجتها على طريقتها، كان لها نصيبٌ وافرٌ في شقة الحرية، وكذلك السجن، فقد أشار إلى ذلك الموضوع في شقة الحرية وفي العصفورية، وإنه لمن المواضيع السياسية الساخنة، لا سيما في ظل أنظمة الاستبداد والقهر العربي "دون أن يستطرد في الوصف لعلمه أن عبد الرحمن منيف قد قام بذلك في "شرق المتوسط"[4] ولم يغب عنه الإشارة إلى الحكومات العربية الديكتاتورية،

---

[1] الرواية الموسوعية، ص1.
[2] المرجع السابق، ص2.
[3] الرواية الموسوعية، ص1.
[4] المرجع السابق، ص20.

والفساد المستشري في أوصالها، وقد كان همه الأول والأخير، هو الوحدة العربية، والنهوض بأمته سواء في روايته شقة الحرية أو في العصفورية، أما السياسة الدولية وموقفها من العرب، وطريقة النظرة إلى الشعوب العربية فكانت روايته "دنسكو" قد آتت أُكُلَها في توصيف هذا الموضوع، وفي "سبعة" تطرق إلى حياة قائد سياسي وحكومي ليظهر الفساد الكامن في أجهزة الدولة وأنظمتها وأحزابها السياسية، وطرائق الحكم الميكافيلية المستعان بها لدى السياسيّ العربيّ، حيث الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت.

ورغم كل ما سبق فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يتم تصنيف روايات القصيبي، على أنها رواياتٌ سياسيةٌ خالصة، فالسياسة كما سبق إحدى موضوعاته، ولكنها ليست الموضوع الوحيد لديه.

المبحث الأول: نقدُ الأحزابَ السياسية والجماعات الدينية:

أولًا: نقدُ الأحزاب السياسية:

تعددت الطرائق التي تختلف بها قلوبُ الأعراب، منذ الزمن الأول وحتى بعثة الرسول ووصيته لهم "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"[1] والأرض الخصبة لذلك دومًا هي عقول الشباب، فالأحزاب السياسية والدينية على حدٍ سواء، تهدف أولًا وبشكلٍ عملي، إلى الحشد والتنظير والتأطير، وذلك الأمر مُتاحٌ وسهلٌ إن لامسَ آمال الشباب، والتي عبَّر عنها الراوي في العصفورية وكأنه يصف حال شباب شقة الحرية، الذين يمثلون الشاب العربي بمختلف توجّهاته "كنا نحلم بولايات عربية متحدة وبجيش عربي واحد وبعلم عربي واحد. كنا نحلم بمجتمع يحفظ للإنسان العربيّ كرامته. مجتمع لا يجرجرونك فيه إلى القسم بلا سبب. ولا يحتجزونك بدون تهمة. ولا يعتقلونك بدون أمر قضائي. كنا نريد أن نحيا مثل الأمريكان، من ناحية الحقوق والضمانات لا من ناحية الثراء. كنّا نحلم بأن نركب السيارة من المحيط وننطلق فلا نقف إلا في الخليج. لا يسألنا أحد عن التأشيرة..."[2]

يحاول الراوي أن يُجمل الأوجاع التي يعاني منها الوطن العربي الممزق، وما يطمح إليه شبابه الحالم المثقف، خاصةً وهو يعيش في وطنٍ قد عانى من الويلات على مرِّ العصور "يحسّ يعقوب أنه يعيش، شخصيًا، كل عذابات الأمّة العربية التي عانت من الاستعمار كما لم تعانِ أيّ أمّة أخرى على وجه الأرض. منذ الصليبيين، وهجمات الاستعمار على العرب لم تنقطع..."[3] وتلك الأماني رفعتها الأحزاب كشعاراتٍ لها، وأنها تحلم وتسعى إلى تحقيقها، وروّجت إلى أنه لن يتم ذلك إلا من خلالها: "– يا فؤاد! من غير حزب طليعي قائد لن تتمكّن الأمّة العربية من أداء رسالتها الخالدة. لا بُدّ من حزب رائد يتغلغل في كل مكان من الوطن العربي، يعلّم الجماهير، وينظّمها، ويحرّكها، وفي الوقت المناسب يفرض الوحدة العربية، يصهر الكيانات القطرية في الدولة القومية الواحدة. كيف يمكن أن يتم هذا كلّه من غير الحزب؟"[4] وكأنه دربٌ من المستحيل أن تتم الوحدة العربية في آراء هؤلاء اليساريين دون أن يكونوا هم طليعتها وقياداتها، ولا يدرون أنهم جزءٌ من شق الصف العربيّ، حتى في داخل اليسار ذاته.

لقد تعرض الروائيُّ إلى العديد من القضايا السياسية والحزبية في رواياته، وعرّى بها الأحزاب السياسية وأهدافها المعلنة والفجوة ما بين النظرية والتطبيق فيما كان وسيكون، ولعل النصيب الأكبر مما سيتم الحديث عنه في هذا المبحث، ستكون ذخيرته من رواية شقة الحرية.

---

[1] صحيح البخاري (4905)، ومسلم (2548).
[2] العصفورية، ص53.
[3] شقة الحرية، ص52.
[4] شقة الحرية، ص77.

الانخراط في الأحزاب والتنظير لها:

لقد كانت الطريقة التي ينتمي بها الشبابُ العربيُّ إلى الأحزابِ السياسية، من جملة القضايا التي تعرض لها الروائي في رواياته، فهذا الأستاذ محسن البعثيّ ينظّر لحزبه في المدرسة بين طلبته: "كان فؤاد قد سمع عن حزب البعث في المدرسة الثانوية. كان الأستاذ محسن من المدرّسين البحرينيين القلائل في المدرسة. وكان قد تلقى شهادته الجامعية، ومبادئ حزب البعث، من الجامعة الأمريكية في بيروت. حاول الأستاذ محسن إغراء الطلبة الذين يتوسّم فيهم النضج بالدخول في عالم البعث"[1] فالأستاذ مُحسن ينظّر على الطلبة الناضجين للدخول في حزبه، في داخل المدارس التي يدرّس فيها، وكأن التنظير للحزب جزءٌ من المهمة التدريسية لديه! "وكان فؤاد من بين هؤلاء الطلبة. أعطاه الأستاذ كتاب ميشيل عفلق[2] "في سبيل البعث""[3] ومع ذلك لم يفهم فؤاد شيئًا من ذلك الكتاب، لكنه في النهاية انتمى لحزب البعث كما يوضح الراوي، ليس لأن مبادئ الحزب تتفق وطموحاته الوطنية والقومية؛ بل محاولةً منه لإرضاء الفتاة التي يحبها: "يا فؤاد! ألا تؤمن بالوحدة، ألا تؤمن بالحريّة؟ ألا تؤمن بالاشتراكية؟ هذه هي مبادئ البعث. ما دمت مؤمنًا بها فأنت بعثي، أدركت ذلك أم لم تدرك. – يا سعاد! أؤمن بالوحدة لأنها تعني قيام دولة عربية واحدة. ... ولكنّي لا أفهم ما هي الاشتراكية. كيف أؤمن بشيء لا أفهمه"[4] وظل الجدال والنقاش قائمًا ما بين فؤاد وسعاد تارةً، وبين فؤاد وزملاء شقة الحرية تارةً أخرى، حتى إنه في النهاية أذعن للاشتراكية البعثية لأجل قبلةٍ من سعاد! "– هل تحبني يا فؤاد؟ – نعم يا سعاد. – قلها. – أحبك يا سعاد! – هل ستنضمّ إلى الحزب؟ – نعم يا سعاد! وضاعا في القبلة الثانية."[5]

إذًا فالحب المشروط هو السبب لانتماء فؤاد للبعث وليس القناعة، فقناعته كانت تقوم بكل بساطةٍ على اعتقاده الآتي: "كانت الأمور، كما بدت لفؤاد وقتها وكما تبدو له الآن، لا تحتاج أكثر من الجماهير العربية وجمال عبد الناصر. أيّ شيء يدخل بين القائد وجنوده، مهما كان اسمه، هو بعثرة للجهود ومضيعة للوقت."[6] فالأسلحة المنطقية قد فشلت معه وبجدارة ونجحت العاطفة!

وكذلك كان انتماء فؤاد –الصوري المؤقت– لحركة القوميين العرب، كان بسبب الضغط عليه، ولكن ليس هذه المرة من سعاد بل من صديقه ماجد، الذي تعرّف عليه في إحدى الجلسات البعثية السرية، ليتركا البعث معًا ويتجه ماجد لحركة القوميين العرب، ويحاول محاولاتٍ مستميتة لضمِّ فؤاد إلى حركته "صرخ ماجد بانفعال: – لا يمكنك أن تتجنّب القرار إلى الأبد. آن الأوان. لا بُدّ أن تقرّر الآن."[7] وبطبيعة الحال القرار الذي ينتظره ماجد من فؤاد، هو الموافقة على الانتماء لحركة القوميين العرب، بدعوى "إننا في الحركة نشعر

---

[1] شقة الحرية، ص78.

[2] (1910-1989) مفكر قومي عربي، مسيحي أرثوذكسي، من أبرز مؤسسي حزب البعث، ولد في دمشق، ودرس في باريس، تنقل بين العديد من العواصم العربية، توفي في أحد مشافي باريس، ودُفن في بغداد بحضور الرئيس العراقي البعثي صدام حسين، ويكيبيديا.

[3] شقة الحرية، ص78.

[4] شقة الحرية، ص78.

[5] شقة الحرية، ص81.

[6] شقة الحرية، ص78.

[7] شقة الحرية، ص382.

أنّ الوحدة أصبحت في خطر. كل المسيرة الوحدوية في خطر. نحسّ أن الزخم الجماهيري بدأ يضعف."[1] ففؤاد بالنسبة لماجد ولقيادة الحركة هو مركب النجاة!

ولا يتم ذلك الانتماء إلا بإحدى وسائل الإقناع لدى المنظّرين، وهي القيام على أنقاض الآخرين والتسفيه منهم، وتقليل قيمتهم: "جمال عبد الناصر زعيم سياسي عظيم. ولكنه زعيم بلا رؤية. بلا أيديولوجية. من دون حزب كالبعث العربي الاشتراكي لن يستطيع أن يحقق شيئًا باقيًا. عواطف الجماهير لا تدوم. ما يدوم هو التنظيم الحزبي."[2]

وها هو ماجد يقلل من قيمة حزب البعث الذي كان أحد أعضائه يومًا ما، "تصدّق أن البعثيين أصبحوا الآن أعداء الوحدة وأعدى أعداء جمال عبد الناصر؟"[3]

يبدو أن الحزبيين لا يعدمون الوسيلة للتقليل من قيمة الآخرين، في سبيل إقناع أحد المستهدفين لينتمي لحزبهم، بل ويرفعون من شأنه لدرجة كبيرة حتى ينتمي للحزب، فسياسة "تكبير الرأس" هي سياسة الأحزاب كلها للسيطرة على عقول الوافدين، وإعطائهم تقديرًا لذواتهم بشكلٍ أكبر مما هم عليه، وهذا نعيشه واقعًا في الحياة العملية، وليس في الخيال الروائي فحسب، كما قد يظن القارئ، فالقصيبي يقدم مزيجًا إبداعيًا قائمًا على المزج بين الرواية السياسية الواقعية، والتخييل السياسي لإيصال الفكرة "ويمكن التمييز نقديا بين الرواية السياسية و التخييل السياسي، فإذا كانت الرواية السياسية تقدم الأحداث كما هي في الواقع بطريقة مباشرة أو عبر المرآة الجدلية لتصوير فظاعة هذا الواقع وفظاظته المأساوية باستعمال أسلوب سردي تقريري يقترب من أسلوب الأطروحة الشعارية أو أسلوب الروايات الإيديولوجية الحرفية ذات البرامج السياسية لقراءة الواقع الراهن المتردي على جميع المستويات، فإن التخييل السياسي يتعامل مع المادة السياسية من خلال الأقنعة الرمزية و الاستعارية، أي بطريقة غير مباشرة متكئا في ذلك على التاريخ و استنطاق التراث و الموروث الشعبي و صيغه اللغوية و الأسلوبية، مستهدفا بذلك الحوارية و الإسقاط والتماثل بين الماضي و الحاضر."[4] فما قدمه القصيبي في هذا المجال، هو نقدٌ سياسيٌّ يسبقه التوصيف القائم على الواقع والخيال في آنٍ واحد.

العقول الحزبية المُسيَّرة:

بمجرد الانتماءِ لحزبٍ سياسيٍّ ما، يصبح الشخص المنتمي مرآةً لذلك الحزب، من حيث طريقة الحوار، والأفكار، وحتى الأشكال، وتعطيل الفكر، وترك المنظومة الحزبية تسير كل شيء، وما على المنتمي إلا الطاعة وأن ينفذ ثم يناقش، وفي حالات لا يناقش أصلًا!

يسعى المُحِزِّبون إلى بت الصلة ما بين الشخص المُحَزَّبِ وماضيه، لتتم عملية إجرائية في عقله، فحواها، طرد الماضي بما فيه من آراء وأفكار، والإحلال الجديد للرؤية الحزبية التامة، وذلك بدعوى الطبقية

[1] شقة الحرية، الموضع نفسه.
[2] شقة الحرية، ص77.
[3] شقة الحرية ، ص383.
[4] جميل حمداوي، الرواية السياسية والتخييل السياسي، ديوان العرب، 11-3-2007، http://www.diwanalarab.com/spip.php?article8092.

مثلًا "– احذر! احذر يا فؤاد أن تترك جذورك الطبقية تتسلّل إلى تفكيرك. المثقفّون الشرفاء يستطيعون تجاوز الطبقة، والانتماء الطبقي. كما فعل تولستوي، والأستاذ."[1] والمثال المُحتذى به "تولستوي، والأستاذ مشيل عفلق" وذلك معناه تغير القدوة التي كان يتخذها الإنسان لتصبح قادة الأحزاب والآباء الروحيين لتلك الأحزاب.

وسلبُ الإرادة الشخصية من مقتضيات العمل الحزبي ""شبلي"؟ ما هذا الاسم؟ ألا أستطيع اختيار اسمي بنفسي؟ – لا. هذا اسمك. انتهى الموضوع. عليك أن تتعود الانضباط"[2] فالموضوع منهيٌّ ولا نقاش فيه، وحرية الاختيار مسلوبة، والانضباط واجب، وهكذا شيئًا فشيئًا، يستمرئُ العقل الحزبي ذلك، وخير مثالٍ على ذلك :"ماجد تحوّل إلى كائن حزبي، أقصد حركي، فقد القدرة حتى على الانفعال. لو قالت الحركة: "اضربوا الانفصال"، لصرخ ماجد "اضربوا الانفصال" لو قالت الحركة: "لا يجوز استخدام القوة" لخرج في الشارع يهتف في مظاهرة "لا يجوز استخدام القوة". تحوّل إلى أيديولوجية بشرية تنازلت عن حقّها في التفكير والانتقاد والاحتجاج"[3] كان ذلك في حركة القوميين العرب، وليس معنى ذلك أن يختلف عنه حزب البعث أو حتى حركة الإخوان في الأيديولوجية المتبعة في السيطرة على عقول الأتباع، ورغم ذلك تظل بعض الاستفسارات في عقول المتحزبين، تتعلق بما لم يستطيعوا تجاوزه من القضايا المصيرية والدين هو الجزء الأهم من تلك القضايا "ثم قال يعقوب ان لديه أسئلة عن علاقة الحزب بالأديان وانه يود طرحها في الاجتماع القادم. قال "رامز" ان الاجتماعات لا تناقش مسائل فلسفية، وأنه شخصيًا ليس خبيرًا في الموضوع"[4] فالدين أصبح بالنسبة له فلسفة ليس مكانها الاجتماعات الحزبية، ولكن يبدو أن المساحة التثقيفية التي منحها الحزب لقائد المجموعة "رامز" لا تسعفه لمثل هذا النقاش والإجابة على تساؤلاتٍ ربما تزعزع من مكانة الحزب في نفس يعقوب، فيضطر إلى الاستعانة بصاحب حجةٍ ولسان، ليقنع يعقوب.

يتدخلُ الحزبُ في حياة أعضائه حتى إنه يغير معاني النشوة لديهم، فهذا يعقوب "لم يشعر خلال سنين حياته الماضية بنشوة غامرة عارمة كالتي تتملكه وهو يغادر مكان الاجتماع ويبدأ روتين التحقق من عدم المطاردة"[5] ليتطور الأمر من ذلك إلى مرحلةٍ أشد خطورة "هذه روعة العمل الثوري! هنا الفرق بين القصائد والقنابل، بين الكلمات والطلقات، بين الشعب الأعزل والشعب المسلح. زجاجة عادية، وكمية صغيرة من البنزين، وتشب النار. وتشعل دبابة أو عربة مصفحة أو بناية"[6] فقد تملك الحزب على هؤلاء عقولهم، حتى صيّروا التفكير البريء بالوطن الواحد، إلى دمار وقتل ونار وإرهاب، مهما كانت الوسيلة، استخدموها بدون أي اعتبارات، ليزيد التطرف الفكري لدى هؤلاء المنتمين لدرجةٍ أشد خطورة مما قبل "في نهاية الاجتماع استفسر يعقوب من "رامز" عن القنابل الحقيقية ومتى يتعلمون صنعها."[7] وتزيد النشوة لدى يعقوب مع أول

[1] شقة الحرية، ص78.
[2] شقة الحرية، ص252.
[3] شقة الحرية، ص461.
[4] شقة الحرية، ص276.
[5] شقة الحرية، ص253.
[6] شقة الحرية، ص275.
[7] شقة الحرية، ص276.

مهمةٍ يقوم بها "كانت هذه مهمته الحزبية الأولى، توزيع منشور يدين الإقطاع الذي عاد إلى الريف رغم الاصلاح الزراعي ..."[1] وبدأ يرسم سيناريوهات متعددة في ذهنه، لِما سيترتب على تلك المنشورات من انتصارات للمسحوقين، ومن طعنات للدولة "وجد يعقوب صعوبة بالغة في النوم بعد عودته. تصوّر ماذا سيحدث عندما يجيء الصباح، وتزدحم المناطق وتُكتشف المناشير"[2] ويمضي الراوي يبين بكل دقة وواقعية الحالة التي كان عليها يعقوب فترة انتمائه للحزب "كلما ازداد الخطر ازداد شعور يعقوب بالسعادة. متى تجيء ساعة القنابل؟ أو على الأقل ساعة "المولوتوف"؟"[3] ويبين الراوي في العصفورية أن من ينتمي للحزب في سنٍ متقدمة من عمره فإنه يعيش لأجله فقط: "تشرَّب مبادئ الحزب وكرّس حياته كلّها للعمل الحزبي"[4] فلا يُتوقع من مثل هذا أن يُخلِصَ للدولةِ على حساب الحزب، إن تقلد مقاليدها، وهذا ما حدث فعلًا مع برهان سرور الذي تحدث عنه الراوي في العصفورية.

رؤىً وخلافات:

لا يستقيم الأمرُ لأي حزبٍ دون أن يسفّه من غيره، ويرى في نفسه الأفضلية والبديل الأكثر مناسبةً على الساحة، ولا يمكن أن يكون له مكان، دون أن يكون مختلفًا عن الآخرين، وإلا فما مبرر وجوده؟! وهذا من جملة ما تعرض له القصيبي في رواياته ضمن نقده لتلك الأحزاب. "– لقد انضممت خلال عطلة الصيف إلى حركة القوميين العرب. – ما هذه المفاجأة؟ – وجدت عندهم ما افتقدته لدى البعث؟ – عند القوميين العرب؟! – نعم. – هل نسيت كم كُنّا، في فترتنا البعثية، نسخر من هتافاتهم: "دم! حديد! نار!" كنا نسمّيهم جماعة "الشيش كباب". هل نسيت؟ – البعثيون لا يطيقون منافسة من أحد."[5] ماجد يمثل حركته التي ينتمي إليها، وقد أصبح أحد قادتها القطريين فيما بعد، يترك البعث الذي كان ينتمي إليه، ويذهب للحركة التي كان يسخر منها، فيغير وجهته الفكرية بشكلٍ تام، وتصبح لسان حاله، ثم ينتقد الحركة التي كان ينتمي إليها، وهذا عبد الرؤوف الإخواني يناكف فؤاد[6] هذا يدافع عن الإخوان، ويتقلد الإسلام، وينتقد عبد الناصر، وذلك يدافع عن عبد الناصر ويرفع من شأنه. قاسم يستمر على مبدئه ومنهجه الذي ارتضاه حيث رفضه لجميع الأحزاب، بل ويعتبرها متآمرة "– ألا تملّان الثرثرة عن السياسة والأحزاب؟! ألا تشبعان؟! ردّ ماجد بغيظ: – ماذا تريدنا أن نبحث؟ البنيّات أم السيارات؟ – أليس هذا أحسن من التآمر؟ – تآمر؟! من الذي يتآمر؟ – أنتما! فؤاد يتآمر على حكومة البحرين. وأنت تتآمر على حكومة السعودية."[7] إلا أنه مع ذلك لا يملك همًا قوميًا تجاه أمته، ويلاحق ملذّاته وتجارته الرابحة، ويترك السياسة للحكام الذين كانوا فحسب، فهم بالنسبةِ له أعلم بشؤون البلاد من غيرهم، ويكف عن نفسه عناء التفكير في السياسة من الأساس. أما فؤاد فقد جرب وأيقن أنه لا خلاف بين تلك الأحزاب والحركات، وكلهم واحدٌ في النهاية وإن اختلفت الشكليات

[1] شقة الحرية، ص335.
[2] شقة الحرية، ص335.
[3] شقة الحرية، ص362.
[4] العصفورية، ص209-210.
[5] شقة الحرية، ص219.
[6] شقة الحرية، ص215-219.
[7] شقة الحرية، ص220-221.

"أخبرني زميل من الحركة؟ ألا تسمّون الأعضاء رفاق؟ احمرّ وجه ماجد، ولم يجب. وضحك فؤاد: – عادت حليمة إلى عادتها القديمة."[1] "لا تزال تجربتي مع البعث حيّة في ذهني. أنا لا أصلح للانضباط الحزبي. – قلت لك اننا لا نعتبر أنفسنا حزبًا. نحن حركة. – هذا فرق شكلي في التسمية."[2] اعتبر نفسه ناصريًّا لكنه في النهاية تخلَّى عن كل ذلك، بعدما انهارت الوحدة العربية. وغيره يرى في عبد الناصر برجوازي "يا أستاذ صبحي! لا تبدأ الحديث عن جمال عبد الناصر! أنت تعرف شعوري نحوه.– وأنت تعرف شعوري نحوه. مُجرّد برجوازي صغير يحاول أن يصبح برجوازيًا كبيرًا."[3] فهذا الأستاذ صبحي المعيد ينتقد عبد الناصر ويعتبره ديكتاتوريًا متسلطًا[4] ويعطي الإمامة والألوهية لماركس وفرويد، ويقدم الاشتراكية الشيوعية على أي دينٍ آخر، ويعتبر أن النظرية الماركسية ستزيل الرأسماليين وتحل محلهم الشعب، وعندما يواجهه يعقوب بالاتحاد السوفييتي والحكم الحزبي المسيطر هناك، يتعلل بأن تلك مرحلة مؤقتة، وأنها مجرد خطوة نحو الطريق إلى الشيوعية الحقيقية![5] وهذا بالضبط رد برهان سرور على البروفسور في العصفورية، عندما وجد الأخيرُ أن حزب الانطلاقة يسيطر على كل مقاليد الحكم في الدولة، فتعلل أنها شكلياتٌ مؤقتةٌ حتى تنتهي الترتيبات الدستورية.[6] وعندما يواجه يعقوب الأستاذ صبحي، بمجازر ستالين، يعتبرها تجاوزات فردية! تلك تناقضات كبيرة، يظهرها الراوي من خلال الحوار؛ ليبين العقلية الحزبية على أصولها، ويفضح رؤيتها المنغلقة على نفسها، والتي تدعي التقدمية والانفتاح. أما العامل المشترك بين الاشتراكية والوجودية بالنسبة للراوي في شقة الحرية، فهو أنهما غير واضحات، وغير مفهومات "أعطاه الأستاذ كتاب ميشيل عفلق "في سبيل البعث" غير أن فؤاد لم يتمكن من إكماله. ولم يكد يفهم منه شيئًا ... – ولكن ما هي الاشتراكية؟ قرأت بعض كتابات الأستاذ ولم أجد فيها تعريفًا واضحًا للاشتراكية"[7] "ولكنّي لا أفهم ما هي الاشتراكية. كيف أؤمن بشيء لا أفهمه"[8] "يسأله عبد الرؤوف: – هل تستطيع أن تشرح لي الوجودية باختصار؟ لقد قرأت كل ما كتبه أنيس منصور عنها ولم أفهم شيئًا"[9] في الواقع أن الراوي يعي الفرق جيدًا بين كلا الفكرتين، ويدرك الأساس الذي تقوم عليه كلًا من الماركسية والوجودية، لكن دائمًا هناك حلقات مفرغة في كليهما، يحاول المنظرون تأخيرها عن أذهان المنظر عليهم، حتى لا ينفروا منها مبكرًا، ويكفي الإشارة إلى واحدة من أهم الحلقات التي تُعري التجمعات السياسية، وهي الانسلاخ من الدين، وتلك كانت المشكلة الأساسية بالنسبة لفؤاد وزملائه، علاقة الأحزاب بالدين.

فسادُ الأحزاب والهوةُ بين النظرية والتطبيق:

[1] شقة الحرية، ص220.
[2] شقة الحرية، ص270.
[3] شقة الحرية، ص97.
[4] شقة الحرية، ص97.
[5] انظر شقة الحرية، ص96.
[6] العصفورية، ص238.
[7] شقة الحرية، ص78.
[8] شقة الحرية، ص78.
[9] شقة الحرية، ص163.

لكل حزبٍ مبادؤه ونظرياته، التي انطلق لتطبيقها في المجتمعات التي ينشأ فيها، وتكون في مجملها للنهوض بالأمة العربية، ووحدتها، وتحرير فلسطين، وعدالة التوزيع، والشراكة السياسية، والتخلص من الظلم والإقطاع، والرأسمالية، والفساد، ونهب الخيرات، والقهر السياسي، والتخلف والرجعية، وما إلى ذلك من الشعارات الرائدة الرائعة، وللقصيبي رأيه المختلف في حقيقة تلك الشعارات المرفوعة، ومدى تطبيقها على أرض الواقع، وبثّها بين الجماهير، وذلك واضحٌ وبينٌ من خلال رواياته: "وكانت علاقته بالحزب تمّر بمأزق بعد مأزق. لا يزال فؤاد يؤمن بمبادئ الحزب النظرية، إلّا أن واقع الممارسة الحزبية يسبّب له الكثير من القلق."[1] وذلك القلق من نواحٍ عدة، فقيادة الأحزاب مثلًا، تشعرُ وكأن الحزب وقفٌ عليها، تتصرف فيه كما تشاء وكأنه إرثٌ أُسَري، لا يمكن التخلي عنه بحالٍ من الأحوال، واتباع كافة الطرق للمحافظة عليه "حضرة الرئيس! بلغني أنه سوف تكون هناك لائحة انتخابية أخرى هذه السنة. قلت بذهول: – عفوًا؟! – سوف يرشح عضو نفسه لرئاسة الحزب ومعه لائحة منفصلة عن لائحتنا. – من هو؟ – رزق البندورة. رزق البندورة؟! هذه نهاية العالم! الفلاح القذر ابن القذر! هل غرّته الشهادة الجامعية؟ ..."[2] ثارت ثائرة رئيس الحزب عندما اقتربت الانتخابات، ووُجِدَ منافسٌ له، ثم تبدأ عملية التخطيط والتدبير للانتهاء من هذا الطارئ غير المعهود، "– ألا تعتقد أننا يجب أن نحذّره من مغبّة أعماله؟ – ولوّ يا معالي الوزير! حذّرته عشرات المرات. – ولم يتراجع ابن الحرام؟ – لم يتراجع. – وماذا نفعل الآن. – اترك الموضوع لي. – ماذا تنوي أن تفعل؟ – عند رزق سيارة بيجو نصف عمر. – حسنًا؟ – ويصلحها عند إفرام أبو الزوق، عضو الجهاز. – حسنًا؟ – وهي، الآن، عند إفرام لإجراء تصليحات شاملة. – سعيد! برافو! برافو! قل لإفرام أن رزق البندورة محسوب عليّ ..."[3] حوارٌ أشبه ما يكون بحوار قطّاع الطرق، والعصابات والمافيا، يدور بين رئيس حزب ومساعده، للتخلص من منافسٍ نوى أن يترشح لرئاسة الحزب في الدورة الانتخابية الآتية، فكان جزاؤه الموت بكل بساطة.

"وربما يبرز في الوسط الحزبي لاسيما في الكادر المتقدم مَنْ يرفض رمزية شخص ما، وعندها تبدأ حملة تصفيات في الوسط المتقدم للحزب بدعوى الخيانة للمبادئ والمؤامرة"[4] ولم يتوقف الأمر لدى هذا الزعيم الحزبي على قتل منافسه على رئاسة الحزب وحسب، بل قتل من قبله أخاه"– لم تكن الزعامة تهمني. حقيقة الأمر أن المرحوم أبي كان يهيّئ أخي الأكبر للزعامة، ولم يزعجني ذلك... – ومات المرحوم أخوك. – قتل في.. – أعرف الظروف. مأساة! وأصبحت أنت، رغمًا عنك، ولي العهد. – هذا ما حدث."[5] وتعدى الأمر التصفية ليصبح الحزب طائفيًا وعشائريًا بامتياز! "أعلن أمين الصندوق، بولص مصاري، أن الخزانة مليئة بتبرعات أنصار الحزب. قرر المكتب السياسي زيادة 25% على المخصصات التي تدفع لعوائل الطائفة،

---

[1] شقة الحرية، ص132.
[2] سبعة، ص310.
[3] سبعة، ص311.
[4] خليل الربيعي، الازدواجية في سلوك الأحزاب السياسية، مؤسسة مدارك لدراسة آليات الرقي الفكري، http://www.madarik.net/mag2/2.htm
[5] سبعة، ص319.

أعني عوائل الحزب المحتاجة"[1] "نصف دخلي وربّما أكثر، يذهب إلى العشيرة ... وما قيمة الإنسان بلا عشيرة؟ هل كان بوسعي أن أصل إلى ما وصلتّ إليه لولا العشيرة؟ هل كان بوسعي أن أبقى في موقعي الحالي لولا العشيرة؟"[2] والدخل المقصود هنا، هو دخل الحزب كما تبين أعلاه "وتنتهي الأحزاب السياسية في ممارستها هذه إلى الدكتاتورية، التي تكون عاملاً من عوامل هدم الحزب واختزاله بالقائد أو القيادة وأحياناً تتحول هذه القيادة إلى قيادة عشائرية أو طائفية وأحياناً عائلية تبعاً لقوة شخصية الزعيم"[3]

تتغير مبادئ الأحزاب بتغير المصالح، وتبعًا للمتغيرات التي تفرضها تلك المصالح، تصبح المبادئ مجرد سطورٍ في مصاحف تلك الأحزاب ودساتيرها المعطلة، فعبد الناصر الاشتراكي الذي يحاول توحيد الأمة العربية كان حزب البعث من خلفه يهدف لذات الهدف، بل ويعتبر نفسه سببًا يدعم عبد الناصر لتحقيق تلك الوحدة، يخالف رغبته في السر ويطبقها في العلن! "مع قيام الجمهورية العربية المتحدّة حلّ حزب البعث في سوريا نفسه نزولًا عند رغبة جمال عبد الناصر الذي اشترط حلّ الأحزاب. توقع فؤاد أن تنتهي اللقاءات الحزبية بصفة تلقائية. إلا أن هذه اللقاءات لم تتأثر على أي نحو بقرار حلّ الحزب. سأل سعاد: – لقد حلّ الحزب نفسه فلماذا نواصل اجتماعاتنا هنا؟ ... – الوضع في سوريا يختلف تمامًا. لا تنس أن الحزب هو الذي سلّمه مقاليد سوريا. نحن الذين علّمنا الجماهير الوحدة. نحن الذين طالبنا بالوحدة الفورية. سوف يكون هو رئيس الدولة أما القيادة الفكرية والسياسية فسوف تكون لنا."[4]

حتى حركة القوميين العرب كانت تعتمد ذات السياسة التي يتبعها البعث، "كما تبيَّن لفؤاد أن الحركة رغم اندفاعها الناصري الواضح لها أولوياتها التي ستصطدم، آجلًا أو عاجلًا، بأولويات جمال عبد الناصر. السلطة! فتّش عن السلطة! إذا وصلت الحركة إلى السلطة مع المدّ الناصري فبها ونعمت. وإلّا فستُقدّم اعتبارات السلطة على الولاء الناصري. لم يقل أحد هذا الكلام صراحة ولكنه كان مختفيًا في المداولات."[5] وحتى جمال عبد الناصر ذاته وما ينادي به من شعارات، لم تجد مكانها في واقع الممارسة السلطوية له، وسبب إيراد ذلك هنا؛ أن عبد الناصر كما هو معروفٌ عنه محسوبٌ كمًا وكيفًا على الاتحاد الاشتراكي العربي، فالرجل يساريٌّ بامتياز. "علمته إقامته في مصر أن الشعارات الناصرية البرّاقة لم تغيّر الظلم الاجتماعي الرهيب الذي رآه بعينيه. ما الذي تغيّر منذ أيام الملكية؟ باستثناء مصادرة بعض الأراضي الزراعية لأسباب سياسية بحتة استهدفت تقليم أظافر الطبقة الإقطاعية القديمة، لم يتغيّر شيء. نشأت طبقة جديدة حاكمة من الضباط، أسوأ من الطبقة القديمة وأشرس..."[6] طبيعيٌ جدًا أن تكون أشرس فما الذي ينتظره الشعب من حكم الضباط والعسكر؟! لقد تمتع عبد الناصر بشعبيةٍ قلَّ نظيرها في الأوساط العربية في العصر الحديث وحتى عصرنا هذا. "بطبيعة الحال، تتمحور الأحزاب السياسية في العديد من الأنظمة الديمقراطية –ظاهريًا– حول القادة أصحاب الكاريزما، أو مجموعة صغيرة من النخبة الحاكمة، وهي تطبّق

[1] سبعة، ص310.
[2] سبعة، ص312.
[3] الازدواجية في سلوك الأحزاب، س.ذ.
[4] سبعة، ص90.
[5] سبعة، ص435.
[6] سبعة، ص195.

في أغلب الأحيان سياساتٍ غير متطوّرة بما فيها الكفاية"[1] واستمرار تلك السياسات مقتضاها التخلي عما هو ظاهر، من الشعارات، وحلول الديكتاتورية محل الديمقراطية "وبغض النظر عن التباين في المفردات ذات الدلالة على المشاركة وعدم التفرد في العمل الحزبي كالشورى والديمقراطية واللامركزية وغيرها فإن الممارسة العملية تنتهي إلى الدكتاتورية من خلال شخصنة القرار في أغلب الأحزاب."[2] لقد تحول عبد الناصر بفعل خطاباته وتنظير الإعلام له إلى رمزٍ للشعوب العربية قاطبةً "تدور أغلب الأحزاب ذات الطبيعة الدكتاتورية في القيادة حول مفهوم (الرمز) الذي يشكل عمودا مهما من أعمدة الدكتاتورية حتى وإن انتخب بالطريقة الديمقراطية."[3] وهذا حاصلٌ لدى الأحزاب السياسية بشكل عام ولم يتوقف على الأحزاب التي ارتقت لسدة الحكم بأي طريقة كانت. "والقيادة الجماعية التي تتباهى بها الحركة قد توجد في أذهان أتباعها ولكنها لا توجد في الواقع. في نهاية المطاف، يتّخذ "الحكيم" الدكتور جورج حبش، كل القرارات الرئيسية. الروح الديموقراطية التي تتغنى بها الحركة لا توجد"[4] وحتى العملية الديمقراطية بالنسبة للراوي فإنها تختلف عما هو شائع عنها بشكلٍ عام ودون أن تتوقف على حزبٍ بعينه "خرج فؤاد من التجربتين بشعور متناقض نحو الانتخابات ونحو الديموقراطية بشكل عام."[5] لماذا هذا الشعور المختلف بالنسبة لفؤاد؟ بكل بساطة لأن المشارك في العملية الديمقراطية –الانتخابات على سبيل المثال– هو ديكتاتوري في أصل تكوينه، وكي يفوز سيتبع الأسلوب الذي يراه مناسبًا للفوز مهما كان. "تحوّلت شقة برّاك النافي إلى غرفة عمليات، توضع فيها الاستراتيجية وترسم التكتيكات. كانت الحملة مليئة بالأساليب الميكافيلية، الوعود والوعيد والإشاعات، وحتّى الأكاذيب المُغرضة."[6] فبالنسبة له يتساءل عن الأسباب التي أدت بأقليات مؤطرة إلى فرض مرشحيها على الغالبية –المتعلمة– غير المؤطرة وغير المهتمة بالسياسة أصلًا! "وتمّ كل هذا عن طريق ديموقراطي، بالانتخابات، وبالاقتراع السرّي. هل الديموقراطية، إذن، مجرد تغليف ذكي لسيطرة الأقلية الحزبية؟ وإذا كان بالإمكان تضليل الصفوة العربية من الطلاب المثقفين بإطلاق الإشاعات الكاذبة عن هذا المرشح أو ذاك، ألن يكون من الأسهل خداع الجماهير العربية الأميّة؟"[7]

إذًا، يمكن أن تكون بعض ملامح قلق فؤاد، من الممارسات الحزبية قد تبدت في شقة الحرية، والتي لا يمكن حصر جميعها لضيق الحيز، ولا يعني ذلك المرور عن تجربة بروفسور العصفورية العملية في ذات المجال، فقد التقى في معتقل صلاح الدين المنصور بالمناضل الحزبي الشاب برهان سرور، والذي تم اعتقاله بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم، وقد كان ينتمي لحزب الانطلاقة كما يخبرنا الراوي، وأنه انضم للحزب منذ صغره، وكرّس حياته للعمل الحزبي، أُعجب به البروفسور؛ لصفاء تفكيره ووضوح رؤيته،

[1] نورم كيلي، وسيفاكور أشياغابور، الأحزاب السياسية والديمقراطية من الناحيتين النظرية والعملية، المعهد الديمقراطي الوطني، ص7.
[2] الازدواجية في سلوك الأحزاب السياسية.
[3] المرجع السابق، نفسه.
[4] شقة الحرية، ص435.
[5] شقة الحرية، ص398.
[6] شقة الحرية، ص397-398.
[7] شقة الحرية، ص398.

وقوة منطقه، وطلاقة لسانه، لا سيما وأنه كان يسخر من الحكم العسكري، ويرى أن خلاص الأمة العربية لا يتم إلا عن طريق حزبه، فهو يملك النظرية المتكاملة، ويعرف الطريق إلى فلسطين.

بتلك الصفات والمعلومات شعر البروفسور أن الشاب برهان، هو أمل الأمة العربية الضائع، ففاوض صلاح الدين المنصور عليه، فأطلقه الأخير مقابل 50 مليون دولار، وبعد نقاشٍ استمر شهرين في ريو دي جينيرو، قرر البروفسور أن حزب الانطلاقة هو السبيل إلى الوحدة العربية، والقضاء على إسرائيل، اتفق البروفسور مع برهان "أن يكون حزب الانطلاقة هو الطليعة. الطليعة فقط، ثم نفسح المجال لديمقراطية كاملة. أقسم لي على المصحف أنه لا يطمع في الحكم. لا لنفسه. ولا لحزبه. أقسم لي أنه سوف تكون هناك انتخابات نزيهة."[1] كانت تلك الوعود التي يلقيها برهان سرور على مسامع البروفسور، ويعده ويمنّيه بها، هي ذات الوعود التي كان يطلقها أبطال القومية العربية، والقادة الثوار، والذين تحولوا فيما بعد إلى ديكتاتوريين ميكافيليين، حنثوا بالقسم المعظّم بمجرد أن ذاقوا شهوة السلطة والجاه، وذاتها الوعود التي يطلقها الأبطال الديمقراطيون في انتخاباتهم النزيهة، لتتحول فيما بعد إلى شعاراتٍ على ورقٍ باهت اللون على جدران الشوارع، بعد انتهاء الحملة الانتخابية. دفع البروفسور 500 مليون دولار لبرهان ليبدأ في التخطيط وتنفيذ الثورة، ليتعجب الحكيم "– نص مليار دولار؟! – أي نعم! الثورات باهظة التكاليف، يا نطاسي. هناك رواتب الكوادر. وثمن الأسلحة. والمخصصات التي تدفع للعمال المضربين. والمصاريف الإعلامية. ونفقات من كل نوع لا تخطر ببالك."[2] وبكل تأكيد القصديةُ متحققةٌ في كل كلمةٍ من روايات القصيبي، فالتعجب من الحكيم، لم يرد عفوًا؛ وإنما ليبين الراوي أن غالبية ما يحدثُ من ثورات في أرجاء هذا العالم، ولا سيما الوطن العربي الممزق، ليس الغرض منها في المقام الأول الوطن، وأن الثورات التي تُنجز في وقتٍ قصير، ممولةٌ من جهة ما، إما لغرض شرق أوسطٍ جديد، أو لصفقة قرنٍ ما، تُريح الهيمنة الاستعمارية الجديدة في الوصول إلى حلٍّ يُقرّبُ وجهات النظر، ويطيل أمد إسرائيل، والمد الأجنبي في الأرض العربية، بخلاف ما يهدف إليه البروفسور، من تمويل لتلك الثورات، وهذا الأمر يفضي وعلى مراد الراوي إلى نتيجةٍ فحواها، أنه لا يوجد حزبٌ يعمل إلا لمصلحته ابتداءً وانتهاءً، وما الأوطان إلا مطيةً لتلك الأحزاب.

وبطبيعة الحال فإن جماهير، كجماهير الأمة العربية، تعاني من الظلم والقهر والاستبداد السياسي وغير ذلك من الألوان السوداوية التي تعيشها الشعوب العربية، سيستجيبون طوعًا وبدون ترددٍ للثائر المخلّص، كالغريق يتعلق بالقشة! "وكان حزب الانطلاقة نشطًا. يحرّك الجماهير كما يحرّك المايسترو الفرقة"[3] جرت الأمور في البداية كما هو مخططٌ له "رفض برهان رئاسة الدولة. ورفض أن يكون هناك مجلس قيادة. وأصر على ألَّا يتولّى أي منصب. وتمّت انتخابات حرة أنتجت الجمعية التأسيسيّة الدستورية ..."[4] وبعد أقل من سنتين عاد البروفسور إلى عربستان 49 حيث الدولة العربستانية التي نجحت فيها ثورة برهان سرور، عاد على إثر "برقية منحوسة. لا بارك الله فيها، ولا في من أرسلها. من فريد، وهو اسم حركي.

---

[1] العصفورية، ص221-222.
[2] العصفورية، ص222.
[3] العصفورية، ص222.
[4] العصفورية، ص222.

وفريد زميل من زملاء برهان سرور. يطلب مني الحضور فورًا إلى عربستان 49. البرقية لم تجئ من فريد مباشرة، لأنه كان في السجن ..."[1] يُفترض أن الأمور تسير كما كانت عليها قبل أقل من سنتين، قبل رحيل البروفسور عن عربستان 49، إلا أن الأمر كان خلاف ذلك "–رجعت، يا عمي، رجعت. وليتني لم أرجع. ولكن إذا وقعت يا فصيح لا تصيح. غبت أقلّ من سنتين، ووجدت أن كل شيء قد تغيّر."[2] ويبدأ الراوي يسرد ما أفسده برهان في البلاد، حيث صار يسمي نفسه "السيد الأمين العام" "حُلّتْ الجمعية التأسيسية الدستورية. شُكّل مجلس قيادة كل أعضائه من حزب الانطلاقة. أصبح برهان سرور رئيس الدولة ووزير الدفاع ووزير الداخلية ووزير الخارجية. وتحوّل الحزب إلى نسخة من الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي أيام عنفوانه. نسخة أكثر نهمًا وشراسة وتحكمًا. حُظر العمل السياسي خارج حزب الانطلاقة. واكتظت السجون. انبثقت الجداريات من كل جدار، ونمت التماثيل في كل ميدان. أعدم الآلاف. ساد الرعب"[3] ولم يجئ الروائي بهذه الأشياء من ذهنه فالواقع العربي، خير إلهام يستلهم منه الراوي تلك المصائب.

في لقاء البروفسور مع برهان سرور، اتخذ برهان موقع الحمل الوديع وبدأ يبرر ويفند تساؤلات البروفسور حول ما يحدث في عربستان 49، حتى أن ما جاء به قد سبب العَجب للحكيم، مما دفعه إلى سؤال البروفسور: "– وصدقت ها الحكي يا بروفسور؟ تجليط في تجليط! – طوّل بالك، يا حكيم، طوّل بالك. "أنت فاكرني هندي؟""[4] بذلك تتضح الملامح أكثر وأكثر لما تريده الأحزاب، ومن النتائج التي يصل إليها الوطن من تلك الأحزاب، يُعذَّب البروفسور، ويُبتز كل يوم في معتقل برهان؛ لكي يوقع على وثائق تفيد أنه يخطط لقلب نظام الحكم، تُهمةٌ جاهزةٌ، ومملةٌ في ذات الوقت، من كثرة ما استخدمتها و تستخدمها الأنظمة العربية في حق معارضيها، وفي النهاية يصدر الحكم القضائي البرهاني لإعدام البروفسور، ليتعرف خلال مدة ما قبل الإعدام، على مُنظّرٍ جديدٍ يتبع التيار الإسلامي، وليأتي الحديث حول ذلك في الجزء الثاني من هذا المبحث، والشاهد في الأمر أن الراوي يذهبُ كل مذهبٍ قد يظنه المتلقي هو السبيل إلى الخلاص، هل هو الانقلاب العسكري من العسكر ليحكموا البلاد ويخلّصوا العباد كما عند صلاح الدين المنصور؟ أم هو الحزب التقدمي الثوري كما عند برهان سرور؟ أم هو الإسلام السياسي كما عند ضياء الدين المهتدي؟ في نهاية الأمر وعندما حانت لحظة الإعدام تتدخل سطوة الجنِّ، لتنقذ البروفسور من الإعدام المحقق، ولتبدأ رحلته المعرية الأدبية الفلسفية.

انهيار الأسطورة الحزبية:

كل ما سبق وغيره من الحقائق المتراكمة، أدى إلى تكشف الحقيقة الحزبية، وانهيار أسطورتها، حيث الانقسام والانفصال عن تلك الأحزاب، بسبب غياب الديمقراطية، وعدم قبول الآخر، والازدواجية الظاهرة ما بين النظرية والتطبيق. "والحزب الذي يتصف بالازدواجية في علاقة الممارسة بالنظرية سيؤدي فيما بعد إلى

[1] العصفورية، ص234.
[2] العصفورية، ص235.
[3] العصفورية ، ص236.
[4] العصفورية، ص242.

اكتشاف الجماهير لهذه الظاهرة، مما يفقدها ثقتها به بحيث تحاول إيجاد البديل في أحزاب أخرى"[1] وهذا ما عبر عنه الراوي على لسان ماجد في شقة الحرية، الذي انتقل بعد ذلك لحركة القوميين العرب. "إذا كان البعث لا يصلح فلا بُدّ أن هناك طريقًا آخر للعمل العربي. لا بُدّ أن يكون هناك تنظيم أقرب إلى الواقع العربي، تنظيم يعرف الأمّة العربية على نحو أفضل"[2] ولم يدفعه إلى ذلك التفكير إلا ما عايشه من مشاكل لدى حزب البعث، فقد توصل ورفيقه فؤاد إلى أن "– البعث يا ماجد حزب أقليّات. أنشأه مسيحي ... – هل لاحظت اصرار فيكتوريا في كل اجتماع على علمانية الحزب؟ على فصل الدين عن الدولة؟ وموافقة بسّام ومحمد؟"[3] ظل هذا التفكير ملازماً لفؤاد ولم يستسلم له، ففي نقاشه مع أبيه قبل السفر إلى الولايات المتحدة أفصح عن ذلك: "لم تنذرني أني سأواجه، ذات يوم، مشكلة التوفيق بين الإسلام والقوميّة العربية. كل أهل البحرين عرب، وكل أهل البحرين مسلمون. – فأين الإشكال؟ الإشكال يا سيدي أن أقليّات غير إسلامية هي التي وضعت النظرية القومية التي تنتشر في العالم العربي اليوم."[4] في إطارٍ آخر كان ماجد قد انتمى لحركة القوميين العرب و"بدأ، بالفعل، يتصرّف كما لو كان زعيمًا. يتحدّث، من دون أن يشعر، بصيغة الجمع: "في دولتنا"، في "برنامجنا"، في "تنظيمنا""[5] لكن ذلك الأمر لم يستسغه فؤاد الذي لم يقع في براثن الحركة بشكل كامل بعد، والشاهد في الأمر طالما أن الإنسان خارج إطار أيديولوجي ديماغوجي، فإنه لا يزال يحتفظ بفكره الخاص، وتساؤلاته لا تزال قائمة، ولا يستطيع أحد أن يكبحها، ويقتلها بالفرض.

وقد زاد من ذلك الشعور لدى فؤاد، ذهابه لمؤتمر حركة القوميين العرب: "يتمنّى فؤاد، الآن لو لم يذهب إلى المؤتمر. صحيح أن التجربة كانت من أكثر تجارب حياته خصبًا وإثارة ... إلّا أنه، رغم هذا كلّه، خرج من مداولات المؤتمر التي استغرقت ثلاثة أيام وفي فمه، وفي قلبه، شيء من المرارة، اتضح له أن الفروق بين البعث والحركة أضأل بكثير مما كان يتمنّى"[6] فبالنسبة للراوي تتعدد الوجوه والأسماء، لكن الجوهر واحدٌ في النهاية.

ومما زاد الهوة أكثر وأكثر بين فؤاد والأحزاب بشكلٍ عام، لقاءاته بقادة تلك الأحزاب. "جاء لقاؤه بالأستاذ ميشيل عفلق صدمة كبرى. ظلّت سعاد تحدّثه، يومًا بعد يوم، عن هذا اللقاء وتتطلع إليه بلهفة كالمجنون. وجاء اليوم المشهود. وذهب مع سعاد إلى الفندق الفخم القابع على النيل، حيث يقيم الأستاذ"[7] الاشتراكية والبعثية والشيوعية والعمال والفقراء والطلبة والمطحونون والمرأة، كل تلك الشعارات، حطمها ذلك اللقاء في نفس فؤاد، فكيف لمن يرفعها أن يقيم في ذلك الفندق الفخم؟! وها هو يعقد مقارنة بين عميد الرواية العربية نجيب محفوظ الذي يكتفي بالجلوس في مقهى شعبي كواحدٍ من الشلة وبين الأستاذ ميشيل. "في المقهى الشعبي البسيط، جلس نجيب محفوظ تحيط به مجموعة من الأدباء، المخضرمين والناشئين. ما أعظم

---

[1] الازدواجية في سلوك الأحزاب السياسية.
[2] شقة الحرية، ص146.
[3] شقة الحرية، ص146.
[4] شقة الحرية، ص438.
[5] شقة الحرية، ص437.
[6] شقة الحرية، ص435.
[7] شقة الحرية، ص132.

الفرق بين مجلس ميشيل عفلق ومجلس نجيب محفوظ. ميشيل عفلق يتصرّف وكأنه نبيّ يحف به حواريّوه. أما نجيب محفوظ فمجرّد واحد من الشلّة، مجرد حرفوش من الحرافيش. لا توجد هنا نظرات تقديس، ولا كلمات حكمة ساقطة من عل. بل مجموعة أصدقاء يتبادلون النكت والتعليقات ويدخنون الأرجيلة."[1] والذي زاد الطين بِلّة ازدراء الأستاذ لموهبة فؤاد "– تركت القصص لأنها مضيعة للوقت. عبث رومانسي. وصمت. وهزّت سعاد رأسها موافقة."[2] أما سعاد والتي كانت متيمة بالبعث لدرجةٍ لا يمكن تصوّرها فقد أدركت في النهاية أن الخلاف على السلطة بين البعث وعبد الناصر ضيّع الوحدة مع سوريّا. "تصمت سعاد ثم تزفر: – كنت على حق يا فؤاد. آه، كم كنتَ على حق! دبّ الخلاف بين جمال عبد الناصر والرفاق، واستقال الرفاق، وسقطت سوريا في قبضة الإقطاع."[3] أما الوحدة فقد ماتت ولم يعمل عبد الناصر ولا الأحزاب والحركات القومية على إنقاذها، بدعوى أنه لا يجب أن يسفك الدمُ العربي الدمَ العربي، وحقيقة الأمر أن تدخلًا بسيطًا كان ليحمي الوحدة، لكن الخلاف السياسي أقوى من الوحدة العربية "– جمال عبد الناصر قتل الوحدة؟! – نعم. عندما سمح لحفنة من الضباط بوأد أعظم إنجاز في تاريخ العرب الحديث ... من قال ان الوحدة ماتت؟ سوف يسقط الانفصال خلال أسابيع. حركتنا سوف تقاوم بضراوة. – حركتنا، أقصد حركتكم، لا تملك الدبّابات ولا الطائرات. حركتكم لا تملك سوى الشعارات والمنشورات. لا يفلّ الحديد إلّا الحديد."[4] فلا عبد الناصر تدخل ولا الحركة قاومت، وظل الانفصال قائمًا حتى يومنا هذا، أما الحرب الأهلية التي كان يخشاها دعاة القومية العربية "– لا أدري ماذا حلّ بعقلك يا فؤاد. هل تريد إشعال أحقاد بين الشعب العربي في مصر والشعب العربي في سوريا؟ هل تريد حربًا أهليَّة؟"[5] فقد كانت في أماكن أخرى ولأسباب غير الوحدة العربية، "عند قيام ثورة اليمن في سنة 1962م "كنت متحمّسًا للثورة وللتدخل المصري الذي تبعها. عندما رأيت بعيني، وما راءٍ كمن سمعا، هذه القوة الضاربة الهائلة متمركزة في اليمن، بعيدة كل البعد عن ميدان المعركة الحقيقية في فلسطين، أدركت أن هناك خللًا ما. لا يمكن، كائنةً ما كانت الأسباب والمُبرّرات، أن يخوض أكثر من ثلث الجيش المصري غمار حرب أهلية عربية"[6] فأكثر من ثلث الجيش المصري على جبهة عربية وفي حرب أهلية عربية، وفي المقابل ولا طائرة تتوجه إلى دمشق لحماية الوحدة العربية!

إذًا انهارت الأسطورة الناصرية والقومية والبعثية في نظر الراوي بناءً على ما مر به من تجارب في شقة الحرية وساكنيها، بل والمنظومة الشيوعية بشكل عام "وقعت كلمة الرفيق كالمطرقة على رأس فؤاد. كان يتصوّر أن استخدامها وقف على الشيوعيين"[7] انهارت في نظره الأنظمة الشيوعية، باستبداديتها الحزبية الديكتاتورية "الجديد في النظرية الماركسية انها عندما تزيل الطبقة الرأس مالية المسيطرة لا تحلّ محلّها طبقة أخرى، بل تحلّ محلّها الشعب الذي يملك وحده كل الثروة. – هذا كلام جميل ولكنه كلام نظري. – نظري؟!

---

[1] شقة الحرية، ص199.
[2] شقة الحرية، ص133.
[3] شقة الحرية، ص308.
[4] شقة الحرية، ص458.
[5] شقة الحرية، ص458.
[6] حياة في الإدارة، ص46-47.
[7] شقة الحرية، ص89.

هذا كلام واقعي. ونحن الآن نراه بأعيننا يُطبق في الاتحاد السوفياتي والصين وأوروبا الشرقية. – ولكن يا أستاذ في كل هذه الأماكن الذي يحكم هو الحزب وليس الشعب."[1]

بهذا ينتهي الجزء المتعلق بالأحزاب السياسية، حيث لا حزب يعمل لأجل الوطن بإخلاص، وإذا ما وصلت تلك الأحزاب الحكم ذابت شعاراتها الأولى بين طيات الجاه والفساد، كما رفضت التنازل عن الحكم، فضاعت الديمقراطية وضاع الوطن.

ينتقل الروائي بين ذوات شباب شقة الحرية، ويعيش موقف كلَّ واحدٍ منهم كما لو كان موقفه، تتعدد الأصوات بتناقضاتها وخلافاتها ورؤاها، ولا يشعر المتلقي بفجوةٍ أو ضعفٍ في التعبير عن هذا الموقف أو ذاك، حتى لو لم يكن موقف الراوي، فهو أعطى المبررات لكل فريقٍ، ليمكن تصنيف رواية شقة الحرية على أنها رواية بوليفونية فهي "تعتمد على تعدد المواقف الفكرية، واختلاف الرؤى الإيدولوجية، وترتكز كذلك على كثرة الشخصيات"[2]

وفي النهاية يصل المتلقي إلى الوجهة التي يريدها، لكن الراوي يؤمن بأن الأحزاب السياسية ليست هي الخلاص، لا في شيوعيتها ولا قوميتها، فالنظام ذو القطب الواحد لا يمكن أن يصنع وحدة عربية، ولا حتى دولة ديمقراطية.

ثانيًا: نقد الجماعات الدينية:

يبحثُ هذا الجزء من المبحثِ في التيارات الإسلامية السياسية، وتجلياتها في روايات القصيبي موضوع الدراسة، وذلك من الناحية النقدية.

تصل بعض الجماعات الدينية السياسية للحكم، وفي بعض الأحيان بطريقةٍ ديمقراطية بحتة، وذلك من خلال الصندوق، وبعد برهةٍ ليست بالكبيرة يبدأ الناس بالامتعاض والندم؛ بسبب ما اقترفته أيديهم داخل الغرف المحاطة بالستائر، فالشاهد فيها على اختياراتهم، ضمائرهم في أغلب الأحيان، وذلك قبل تطور طرق بيع الأصوات الانتخابية، فلماذا يختار الناس الإسلاميين؟ لعل الإجابة الأمثل لهذا السؤال في رواية العصفورية، على لسان "موشيه بن عادياء" الجنرال اليهودي الصهيوني، الذي تابع البروفسور في مختلف محطاته أثناء سعيه للقضاء على إسرائيل، وتحقيق الوحدة العربية، ومن بابٍ أولى أن يكون الجنرال صادقًا، فهو عدوٌ لبيب، يأخذ بأسباب بقاء دولته، ويراقب بشكلٍ جيدٍ ما آلت إليه البلاد العربية، إذ يقول مجيبًا على السؤال أعلاه: "اعلم يا بروفسور، أن الجماهير تشعر بالكثير من المرارة. وبالكثير من الغضب. تشعر أن الأنظمة الفاسدة تخنقها وتمصّ دماءها. تشعر بحنين إلى تغيير شامل. إلى حركة تقتلع الأشياء من

[1] شقة الحرية، ص96.

[2] جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، موقع الألوكة، 8-3-2012، http://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/

جذورها."[1] فلا فُض فوه الجنرال، فوصفه دقيقٌ لحال الأعراب، ويصدق عليه قول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "صدقك، وهو كذوب"[2] فابن عادياء الشيطان في ثياب البشر.

كما ينبغي الإشارة إلى أن القصيبي قد أثار العديد من القضايا الدينية، والتي ارتبطت بطريقٍ أو بأخرى بالحديث عن التيارات الإسلامية، فالجماعات الإسلامية هي: "تلك الجماعات التي تشترك معًا في اعتبار أحد جوانب الإسلام أو تفسيراته هي الإطار المرجعي لها سواء فيما يخص وجودها أو أهدافها، والتي تنشط بطرق مختلفة من أجل تطبيق الصورة التي تراها للإسلام في المجتمعات والدول والمجالات التي توجد بها"[3] فهي أساسًا قائمة على فهمٍ معينٍ للدين، لذلك جاء القصيبي بقضايا دينية مختلفة خلال السرد الحكائي في رواياته، كقضية الحاكمية، والإمامة، والتكفير، والدعوة، والجهاد، وتطبيق الشريعة إلى غير ذلك من القضايا الفقهية والدينية، والتي ارتبطت بالفرق الإسلامية، من خوارج، وصوفية، ومعتزلة، وشيعة، وسنة، وعلاقة تلك الفرق بالسياسة، فبالنسبة للراوي أن أغلب تلك الخلافات تدور حولَ: فيمن تكون الولاية؟ فالشيعة مثلًا "لا يرون الخلافة إلا للإمام الفاطمي المعصوم المُعين بأمر إلهي. ولهذا الإمام وحده الحق في السمع والطاعة، حاضرًا كان أم غائبًا."[4] فهم لا يرضون خليفةً غيره، وهذا ما كان محور النقاش مع ضياء المهتدي في العصفورية، فحتى لو قامت الخلافة التي تنادي بها الجماعات الإسلامية، هل سيكون هناك خليفةٌ في الحجاز وآخرٌ في الأهواز؟ وقد مرَّ على المسلمين ذلك في تاريخ الصراع السلطوي الطويل، الذي راح ضحيته الآلاف من المسلمين الأبرياء، ففي وقت واحدٍ كانت هناك خلافة الزبيريين في الحجاز والعراق، والأُمويين في الشام ومصر، وخلافاتٌ متفرقةٌ للشيعة الشيبانيين من جهة، والأزارقة من جهة أخرى، وللمختار الثقفي من جهةٍ ثالثة. وقد كانت الحروب طاحنة بين جماعات المؤمنين على الرياسة، ولم يتوقف ذلك على العصور التالية للخلافة الراشدة، بل كانت والنبي بين ظهراني الصحابة "حتَّى في صدر الإسلام كان هناك أكثر من حزب، حتَّى في عهد النبوّة". قال فضيلته مستغربًا: "كيف؟" قلت: "كان المهاجرون حزبًا. وكان الأنصار حزبًا" ... فيما بينهم كانت هناك مناوشات تعرفها كما أعرفها، تداركتها، دائمًا، حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام."[5] وعند وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم– "برز الأنصار حزبًا سياسيًا في مواجهة حزب المهاجرين. وكأيّ حزب سياسي قدّموا مرشحهم لرئاسة الدولة"[6] ثم يتطرق الراوي بعد ذلك لفتنة مقتل عثمان، وفعل السيدة عائشة وخروجها على علي –كرّم الله وجهه– بجماعة من الصحابة، وشيعة عليٍّ، وجيش معاوية، وصفّين والجمل[7]، والدم العربي المسلمُ المُراق في الصحراء، كل ذلك بالنسبة للراوي كان سببه الخلاف السياسي، وكل تلك التجمعات بالنسبة له هي أحزابٌ سياسية، وهي كذلك.

---

[1] العصفورية، ص280.
[2] صحيح البخاري (5010)، ومسلم (1497).
[3] مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، دليل الحركات الإسلامية في العالم، العدد الأول، ص17.
[4] العصفورية، ص276.
[5] العصفورية، ص275.
[6] العصفورية، ص275.
[7] انظر العصفورية، ص275.

فلولا الصراع السلطوي عند غالبية تلك الفرق لما حدث الذي حدث، وحتى بعد ذلك، بعد قتل الخلفاء والصحابة تعود الخلافات؛ فيقتلوا ابن بنت رسول الله عليه السلام، في صحراء نينوى، لأجل الخلافة والرياسة! تاريخٌ ملطخٌ بالصراعات السياسية التي اتخذت الطابع الديني؛ بسبب الشعارات التي يرفعا أصحابها "كل حزب يطرح شعارات. "كل حزب بما لديهم فرحون""[1]

وقد تعرض الراوي لكل ما سبق، ليكون ذلك بمثابة المدخل لفهم العصر الذي يعيشه، فحرب الخليج الأولى دامت ثماني سنوات تقريبًا، وراح ضحيتها مئات الآلاف ودمرت الكثير مما يضيق ذكره هنا، كانت تُرفع فيها شعارات الشيعة والسنة بالدرجة الأساس، وقد لعب النظام العراقي في رأي العديد من السياسيين على تلك القضية لأجل كسب التعاطف العربي لحربه، وكذلك النظام الإيراني من جهته لعب ذات الدور بين أحلافه، وفي الحقيقة أن الإسلام بريءٌ من كل النعرات الطائفية منذ فجر تاريخه "كما أن الإسلام لم يكن هو الذي فرق الناس إلى دروز وعلويين وخوارج ومعتزلة.. بل لم ينقسم الإسلام على نفسه، وإنما المسلمون هم الذين فرقتهم الأهواء والأغراض وطوحت بهم الأطماع السياسية في شتى الطرق والسبل ومزقتهم شر ممزق وجعلتهم أحاديث."[2] وإلى يومنا هذا لا تزال النعرات الطائفية تعصف بالعرب والمسلمين، فإيران تحاول فرض سيطرتها وكسب أكبر مناطق نفوذ، بتدخلها في القضية الفلسطينية ودعمها للحركات "الإسلامية" في فلسطين، ودعمها المتواصل لحزب الله في الجنوب اللبناني، ولحرب الحوثيين في اليمن، وللنظام البعثي في سوريا، وللثورات المتكررة في البحرين، أما عن العراق فحدّث ولا حرج، وهكذا المملكة السعودية تقوم بنقيض الدور الإيراني في جميع الأقاليم السابق ذكرها، مما يشتت الأمة ويضعفها ضعفًا على ضعفها.

التجربة السياسية للجماعات الإسلامية:

ضرب الراوي ثلاثةَ أمثلةٍ تفصيليةٍ في روايته العصفورية، لنماذج حكمت لدى العرب، الأول القوميّ الضابط المنقلب الثائر الحر "صلاح الدين المنصور" والثاني الحزبيّ الطلائعيّ التقدميّ "برهان سرور"، وقد انقلبت الأمور عند كليهما إلى النقيض بشكلٍ تام، ويبدو أن السبب في ذلك هو السلطة. "السّلطة تحدث أشياء غريبة، يا حكيم، في الناس وفي المبادئ. تبدو النظرية رائعة في كتاب وتتحول إلى مشانق وسجون في التطبيق"[3] فهل يسقط النموذج الإسلامي كما سقط الأولان؟ هل تتحول النظرية، إلى تطبيق يعاكس النظرية المكتوبة؟

في سجن برهان سرور تعرف البروفسور إلى فضيلة ضياء المهتدي، السجين الفقيه، الذي يقضي الأوقات مع المحكومين بالإعدام قبل تنفيذ الحكم، وقد حُكم عليه بالإعدام من برهان، دون تحديد موعد التنفيذ، على العكس من البروفسور الذي صادق برهان على حكم الإعدام فيه. دار نقاش روحاني إيماني بين كل من الشيخ ضياء والبروفسور، ليتبين الأخير أن الشيخ ضياء "يحمل الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة هامبورج. وأنه عاش في أوروبا وأمريكا ردحًا من الزمن. وأنه أسّس حزب النور في عربستان 50.

---

[1] العصفورية، ص275.

[2] مصطفى محمود، أكذوبة اليسار الإسلامي، دار المعارف، د.م، ط2، د.ت، ص54.

[3] العصفورية، ص152.

وانتشرت فروع الحزب في كل مكان ..."[1] ويبدو أن الراوي قد تعمد ذكر هذه المعلومات، فأيُّ حزبٍ إسلامي هذا الذي يؤسسه مغتربٌ في بلاد الكفر والهوان؟! وكيف لمؤسس ذلك الحزب أن يأخذ العلم الشرعي من هامبورج؟! أليس هي تلك النظرة الإسلامية –المتحزبة– لأمريكا وأوروبا؟! وألا يذكّر ذلك بطليعة الأحزاب الإسلامية في العصر الحديث، حيث جاء دعمها من الغرب؟ "وبحلول أواخر الخمسينيات، كانت المخابرات المركزية قد بدأت هي أيضًا في تمويل الإخوان؛ ويزعم أن الوكالة رعت بالاشتراك مع شركة أرامكو الأمريكية للنفط والسلطات السعودية، إنشاء خلايا دينية صغيرة في السعودية تعارض القومية العربية."[2] على أية حال، دار في اليوم التالي حوارٌ آخر بين الرجلين، بدأ فيه الشيخ ضياء يلقي الحبال أمام البروفسور "لا ينتهي عجبي من رجل رزقه الله حظًّا من الفقه يتعاون مع أعداء الله"[3] وبدأ يعاتب البروفسور لماذا يمول زنديقًا وملحدًا؟! وكأنه يقول: وتترك عبدًا لله طائعًا! في النهاية ودَّع الشيخ البروفسور على أمل أن يلقاه إن نجا من الإعدام، وبالفعل الروائي، نجا البروفسور من الإعدام، عن طريق زوجته دفاية إلى عالم الجن، ومضى البروفسور في رحلته في ذلك العالم العجائبي، ثم عودته إلى عالم الإنس، وبعد ملل البروفسور من رحلاته في العوالم الغيبية والأرضية المختلفة، والتجارب المتعددة في شتى المجالات من التجارة إلى الصحافة فمجمع اللغة، فالتأليف، فالأوبرا ...إلخ شعر بمللٍ شديد، اضطره إلى أن يذهب إلى مصحة جنيف، وفي الحقيقة أنها ليست كذلك فـ"لا يوجد لهذا المكان اسم"[4] فهي تقوم بكافة الخدمات الصحية والعلاجية التي تخطر ببال البشر لا سيما التجميلية منها، كما أنها باهظة التكاليف والقليل من يتحملون تكاليفها، قريبةٌ من جنيف في مكانٍ سياحي جبلي، وقد وجد فيها صلاح الدين المنصور، ووجد والدة برهان سرور كما وجد الجنرال اليهودي موشيه، والمفاجأة الأكبر: "وجدت على شاطئ بحيرة جنيف شخصًا يهجم عليّ، ويعانقني، ويردد "وقد يجمع الله الشتيتين بعدما * يظنان كلّ الظن ألّا تلاقيا". تأملت، فإذا بي أمام ضياء المهتدي""[5] أما المفاجأة الأخرى فإجابته على سؤال البروفسور: "ماذا تفعل في سويسراء؟ ". قال: "أشرف على الجهاد. وأبشّرك أن النصر قريب جدًا. وعندما تقوم دولتنا الإسلامية في عربستان 50 سيتبعها العالم الإسلامي كله. من أقصاه إلى أقصاه"[6] انتقل البروفسور والشيخ إلى الفندق وبدأ النقاش، حيث يسعى الشيخ ضياء إلى إقناع البروفسور، لكي يمول ثورته الإسلامية، ويؤكد أنه سيلتزم بوعوده ولن يكون كسابقيه "لن أخدعك. ولن ألتزم بوعود وأتخلّى عنها"[7] وقدّم برنامجه للبروفسور، الذي كان كتاب سيّد قطب، والذي عدّه الشيخ أهم كتاب "خلال القرون الخمسة الأخيرة!"[8] ومع إدراك البروفسور لأهمية الكتاب إلّا أنه يرى "إن استشهاد سيّد قطب أضفى على أفكاره من البريق ما لم تكن لتحصل عليه لو انه مات ميتة طبيعية"[9] ولِمَ لا يكون رأي

[1] العصفورية، ص248.
[2] مارك كورتيس، التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين، ترجمة: كمال السيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012، ص118-119.
[3] العصفورية، ص248.
[4] العصفورية، ص263.
[5] العصفورية، ص272.
[6] العصفورية، ص273.
[7] العصفورية، ص273.
[8] العصفورية، ص274.
[9] العصفورية، ص274.

البروفسور صحيحًا! فمعالم في الطريق على سبيل المثال، لم يُطبع منه سوى نسخ محدودة، نشرتها مكتبة وهبة، ولكن بعد أن حُكِمَ بالإعدام على سيد قطب وأُعدِمَ، أصبح الكتاب يطبع يوزع في العالم كله بآلاف النسخ، مع أن أصله مأخوذٌ من ظلال القرآن!

لاحظ الراوي التقديس الكبير من الشيخ ضياء لشخص سيد قطب، في المقابل لم يكن النقيض عند البروفسور، فقد كان يحترمه وإذا ذكره يشفع ذلك بدعائه: "رحمه الله" ولم يقف ذلك الأمر على روايات القصيبي، بل في كتبه الأخرى، فها هو يصف كتابه في ظلال القرآن بالعظيم "من آراء "سيد قطب" –يرحمه الله– في كتابه العظيم: "في ظلال القرآن""[1] فالمشكلة إذًا، تكمن فيمن يُضفون هالةً من القداسة لكتب البشر، تشبه القداسة التي أعطاها الله للقرآن، لا سيما ما يتم الحديث حوله هنا، حول كتب أرباب الدعوة الإسلامية ككتاب "معالم في الطريق" لسيّد قطب، فهذا الكتاب يمثل الأساس الفكري للجماعات الإسلامية، ومعلومٌ أن هذا الأساس "ذو مكانة خاصة بالنسبة للحركات الإسلامية حيث يمثل للبعض منها نصًا دينيًا "مقدسًا" تسعى لتطبيقه دون اجتهاد أو تعديل"[2] ويحاول البروفسور توضيح الفكرة للشيخ ضياء حول حقيقة وماهية الكتاب "عفوًا يا أخي ضياء! هذا الكتاب هو مجموعة مقالات. والمقالات تضمّ اجتهادات. بعضها مصيب وبعضها مخطئ. وهي، في النهاية، تعميمات. الكتاب لا يضم أي برامج مفصّلة أو خطوات محدّدة يمكن ..."[3] فرد عليه الشيخ بمقتبسٍ من كتاب الإمام الشهيد، لكن البروفسور عاد وكان أكثر عمليةً وواقعيةً في طرحه من الشيخ ضياء "أما أنا فأواجه مستقبلًا موجودًا هو وصول حزب النور إلى الحكم عن قريب. تعميمات الشهيد تصلح شعارات للوصول إلى الحكم. ولكنها لا تصلح برنامجًا للحكم"[4] فيتعلل الشيخ ضياء بأن أنظمة الحكم الحالية لا تحكم ببرامج مثالية "سبحان الله يا أخي! وهل الأنظمة الجاهلية التي تحكم في كل مكان تحكم ببرامج ممتازة مثالية متكاملة؟"[5] فيكون الرد المنطقي من البروفسور "... ما الفائدة من حزب جديد وشعارات جديدة بدون برنامج جديد؟"[6] حتى ينطق الشيخ ضياء بخلاصة الأمر التي يعتقدها "قال فضيلته منفعلًا: "ولكننا لسنا حزبًا عاديًا. لسنا كالآخرين. نحن حزب الله!" قلت: "عفوًا! ماذا تقصد؟". قال "أعلنها الإمام الشهيد مدوية حين قال: "إن هناك حزبًا واحدًا لله لا يتعدّد. وأحزابًا أخرى كلها للشيطان والطاغوت"[7] وتلك هي المشكلة الحقيقة التي يعاني منها المسلمون في تلك الجماعات والأحزاب، أن "كلا منهم يتحدث وكأنه الراعي الرسمي للإسلام، أو أنه المكلف بتوكيل من الله مباشرة (والمسلمون لا يعلمون لغفلتهم)، أو أنه الناطق باسم جميع المسلمين بعد تفويض منهم مسجل بالشهر العقاري ومختوم بختم النسر، أو باختصار بأنه الإسلام نفسه، وأن غيره ليس كذلك بالمرة."[8]

---

[1] استجوابات غازي القصيبي، ص117.
[2] دليل الحركات الإسلامية في العالم، ص18.
[3] العصفورية، ص274.
[4] العصفورية، ص275.
[5] العصفورية، ص275.
[6] العصفورية، ص275.
[7] العصفورية، ص275.
[8] سيد قمني، أهل الدين .. والديمقراطية، دار مصر المحروسة، القاهرة، ط1، القاهرة، ص179.

وقد تطرق الروائي لذات القضية في روايته شقة الحرية "موقف الإسلام يجسده أولئك المشايخ الذين قادوا النضال ضد الفرنسيين في الماضي، ويمثله في الوقت الحاضر الإخوان"[1] فمن بين كل المسلمين في الدنيا ومن بين كلِّ الجماعات والطوائف يرى عبد الرؤوف أن موقف الإسلام يمثله الإخوان! وهذه المشكلة تنسحب على جميع الجماعات الإسلامية، رُغم بعض التصريحات الظاهرة، إلا أنه تلك هي الحقيقة المستبطنة خلف وجودهم، وإلا فما المبرر من وجودهم كأحزاب مختلفة إن كانوا يؤمنون بذات المبادئ، فهم يتبعون لطوائف وسياسات وأهداف مختلفة "وفي بعض البلاد، مثل السودان ولبنان، كانت التجمعات الحزبية مجرد إطار سطحي يعكس انقسامات دينية وطائفية عميقة."[2]

وهذه القضية الهامة التي تتعلق بالطائفية قد أثارها الروائي في غير روايةٍ من رواياته، ففي العصفورية يتساءل البروفسور عن الشيعة "وماذا ستفعل بهؤلاء المجتهدين المخطئين؟ تقبلهم في حزب الله؟ أم تنفيهم إلى الحزب الآخر؟"[3] وذات التساؤل جاء في شقة الحرية على لسان عبد الكريم الشيعي مع عبد الرؤوف: "– رغم كل هذا أودّ الانضمام الى الاخوان. – هناك شيء آخر. لا تغضب يا كريم. لا أعتقد أن في الإخوان شيعة. – سنة! شيعة! حتى أنت يا بروتوس؟! – كل ما أريده هو الإيضاح. صحيح أنه صدر بيان من شيخ الأزهر يعترف فيه بالمذهب الجعفري. ولكن رأي شيخ الأزهر شيء ورأي الاخوان شيء آخر."[4] فهنا الإخوان المسلمون يرفضون الطوائف الأخرى على لسان عبد الرؤوف في شقة الحرية، ويعتبرهم الشيخ ضياء "اجتهدوا وأخطأوا"[5] والغريب أن أصحاب تلك الجماعات بشكلٍ عام يعتبرون تصورهم للإسلام هو الصحيح، وغيرهم خطأ! ويصل الأمر عند بعضهم أن يكفّروا الآخرين "لا بد أن نتساءل لماذا يكفرون أصحاب الطرق الأخرى في فهم الإسلام؟ أم هم يرون كل المسلمين قد كفروا وارتدوا وأصبحوا بحاجة إلى الدعوة الإسلامية من جديد؟"[6] ولا تقف تلك الاتهامات عند الجماعات والطوائف بل تطال الأزهر الشريف، على اعتبار أنه مؤسسة دينية مهادنة للحاكم "سوف أريحك من العناء. شيخ الأزهر والمفتي والبقية موظفون عند رئيس الجمهورية."[7] فهم يرفضون أي تجمع إسلامي كائنًا ما كان إن لم يكن تابعًا لهم.

ويستمر النقاش بين البروفسور والشيخ ضياء حتى يصل إلى نقطةٍ حسّاسة مما جاء به سيّد قطب في كتابه: "معالم في الطريق" وهي قضية توحيد الحاكمية. "ألا ترى أن تكفير المسلمين المؤمنين لمجرد عدم اتفاقهم مع سيد قطب في مسألة الحاكمية لا يخلو من تطرف؟" قال: "نحن لا نكفّر أحدًا. الذي لا يؤمن بحاكمية الله يصبح كافرًا بالله تلقائيًا"[8] بل وجعل من المجتمعات الحالية مجتمعات جاهلية "ما جدوى الإيمان بإله لا تقبل حكمه؟ من هذا المنطلق رأى الإمام الشهيد أن المجتمعات المعاصرة مجتمعات جاهلية."[9]

---

[1] شقة الحرية، ص304.
[2] أسامة حرب، الأحزاب السياسية في العالم الثالث، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 117، 1987، ص102.
[3] العصفورية، ص276.
[4] شقة الحرية، ص403.
[5] العصفورية، ص276.
[6] أهل الدين .. والديمقراطية، ص182.
[7] شقة الحرية، ص304.
[8] العصفورية، ص277.
[9] العصفورية، ص277.

والجاهلية بطبيعة الحال هي الكفر، وفي الحقيقة "أن الولاء هنا وهناك أصبح ولاء سياسيا ولم يعد ولاء دينيا ... والهدف من يحكم.. ومن يتسلط.. ومن يقفز إلى الكرسي..؟؟!! وكل طائفة تحمل سيف الآية الكريمة: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}44–المائدة {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}45–المائدة {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}المائدة–47 وكل طائفة تتصور انها وحدها التي تحكم بما أنزل الله.. وأن معها التفويض بالخلافة والحكم وإقامة شرع الله في الأرض"[1] ولم تقف تلك النظرة التكفيرية المتطرفة على رواية العصفورية، بل ورد ذكرها في شقة الحرية "فهذا رؤوف لا يعتبر مصر بلدًا مسلمة! لمسألة مشابهة لمسألة التحكيم، وهي مسألة تطبيق الشريعة "– من قال إن مصر بلد مسلمة؟ – عفوًا؟ – من قال إن هذه بلد مسلمة؟ – ماذا تقصد؟ – أين الإسلام في هذه الدولة؟ – يا رؤوف! أعرف تعاطفك مع الجماعة. وأعرف مأساة أخيك. ولكن لا تكن أبلهًا"[2] ومثله الشيخ والعالم الكبير أبو زهرة في ذات الرواية ينفي الإسلام عن البلدان العربية الإسلامية، ولكنه لا يعين بالاسم بسبب الرقابة والمخابرات. "أي بلد لا تقيم حدود الله ولا تأخذ كل أنظمتها من شريعة الله، ولا تستمد كل مقومات وجودها من كتاب الله وسنة رسوله، هي بلد غير إسلامية"[3] وليس الموطن هنا هو موطن تخريج لتلك القضايا الشائكة، ولكن الخلل ليس في الإسلام أبدًا، فـ"الإسلام دين شامل يمكن أن تجد فيه عندما تريد وتقصد، ما تريده، وما تقصده، ستجد فيه السياسة والاقتصاد والفن وعلوم الإنسان من النفس إلى المجتمع إلى التاريخ، لأنه كان دينا متفاعلا مع واقع زمنه"[4] ولا يريد منه أولئك "الإسلاميون" سوى الوصول إلى الحكم.

ويستمر النقاش بين البروفسور والشيخ ضياء، حتى يقرر البروفسور في النهاية أن "حزب النور يستحقّ الفرصة التي نالها غيره. ومن يدري؟ قد يكون رأيك هو الصواب ورأيي أنا الخطأ""[5]

كان موشيه بن عادياء يتنصت على كل كلمةٍ بين البروفسور والشيخ ضياء، ويؤكد له أن ضياء ليس جاسوسًا، وأكد له أنه "سوف يحكم عربستان 50 في القريب. خلال سنة. أو سنتين على الأكثر"[6] والسببُ أن "المد الأصولي، هناك كاسح كالسيل."[7] ولكنه كان مطمئنًا بأنه لن يكون القضاء على إسرائيل من خلال دولة ضياء المهتدي، لأنه ببساطة "بعد وصوله إلى الحكم بفترة قصيرة ستنشب حرب بين عربستان 49 وعربستان 50. وستدمر القوة العسكرية للبلدين"[8] وحرب الخليج الأولى ليست عنا ببعيدة، حاول البروفسور الاستفهام أكثر من موشيه، وكيف يمكن أن تندلع تلك الحرب، وكيف لإسرائيل ألا تخاف من المد الأصولي الساحق في عربستان 50، والذي يقوده حزب النور، حزب ضياء المهتدي، كان رد الجنرال بكل بساطة "لا نخاف أي حركة تنتهي بتسلّط فرد. التعامل مع فرد أمر سهل. بمجرد أن تعرف نقاط ضعفه تصل

[1] مصطفى محمود، الإسلام السياسي والمعركة القادمة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص25-26.
[2] شقة الحرية، ص215-216.
[3] شقة الحرية، ص215-216.
[4] أهل الدين .. والديمقراطية، ص61.
[5] العصفورية، ص279.
[6] العصفورية، ص280.
[7] العصفورية، ص280.
[8] العصفورية، ص280.

إلى مقتله"[1] حاول البروفسور أن يحذر ضياء المهتدي وأن ينصحه "تجنب الاحتكاك ببرهان سرور. تجنب ذلك بأي ثمن" لكن ما حدث هو أن "اربدّت ملامح ضياء المهتدي وقال بغيظ لم يفلح في كتمانه: "ما هذه النصيحة، يا بروفسور؟! هل نسيت أنه حاول إعدامك وحاول إعدامي؟" قلت: "لم أنس. ولن أنسى حتى أموت. ولكن القضية تتجاوز الثأر الشخصي"[2] لم يكف البروفسور عن محاولات الإقناع، وذكَّر ضياء بالأبرياء، والضحايا الذين سيموتون دون ذنب، وأن قوة برهان تفوقه، وأن عليه الإعداد والتريث، لكن الشيخ ضياء، قرر أن يستضيء بشعاراتٍ ومقتبساتٍ من كتاب "معالم في الطريق" فيبدو أن الثأر الشخصي قد أعمى بصيرة ضياء، وبدأ يجند كل شيء لغرضه.

نجحت ثورة ضياء المهتدي، وثارت الملايين وهتفت باسمه، وعندما عاد البروفسور لزيارته، وجده على حاله "لا حرس ولا مواكب. الوقار والهيبة والملامح المشعّة بالضياء"[3] وأصبح يسمّى بـ"سماحة المرشد الأعلى للثورة الإسلامية"، "نشبت الحرب بين عربستان 49 وعربستان50"[4] ولم يفلح البروفسور في إخمادها، وظل الشيخ على حاله وكتاب سيّد قطب "ألا تنوي أن تعطي "معالم في الطريق" إجازة؟ إجازة مؤقتة؟"[5] فشلت مساعي الصلح وظلت الحرب.

تلك كانت تجربة الراوي مع الإسلاميين والسياسة، انفصالٌ عن الواقع، وتقديسٌ للبشر، وأخذ ما جاءوا به كمسلمات، وفي النهاية {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين}[6] فالحرب التي يخوضونها غالبًا هي بين المسلمين، وليس ضد العدو الحقيقي، الذي أنهك الأمة وأضعفها، ولا يعني ذلك بحالٍ من الأحوال أن الخطأ في الإسلام، بل فيمن ينادي بالإسلام، فالإسلام المطلوب، هو الذي جاء به الرسول من عند الله، على مراد الله ورسوله، وليس الأحزاب المتأسلمة، بل الإسلام المنهجي القويم "الإسلام الذي يريد ان يشق شارعا ثقافيا آخر. ويرسي قيما أخرى في العامل ونماذج أخرى من الفن والفكر.. الاسلام الذي ينهض بالعلم والاختراع والتكنولوجيا ولكن لغايات أخرى غير التسلط والغزو والعدوان والسيطرة ..."[7] ذلك الإسلام الذي يجب أن يكون لا الإسلام الحزبي، الذي ينفي تلك الصفة عن الآخرين، وذلك ضمن فلسفات الراوي[8]، فالإخوان المسلمون يسمون أنفسهم بهذا الاسم، ولكن لا يعنى ذلك أن الباقين كفار.

في النهاية يرأف الجنرال اليهودي "موشيه بن عادياء" بحال البروفسور فيدله على الحل، وعلى ما تخاف منه إسرائيل "حسنًا! حسنًا! ولكن قبل أن أذهب دعني أترك معك السر الأكبر. سر الأسرار! السرّ الأعظم! نحن لا نخاف إلا الديمقراطية. عندما يزول حكم الفرد وتبدأ تجربة ديمقراطية حقيقية في أي مكان من عربستان فسوف تكون هذه بداية النهاية لنا. ولكن أين أنتم من الديمقراطية؟ أين أنتم من الديمقراطية؟

---

[1] العصفورية، ص281.
[2] العصفورية، ص281.
[3] العصفورية، ص293.
[4] العصفورية، ص297.
[5] العصفورية، ص297-298.
[6] الحشر:2.
[7] الإسلام السياسي والمعركة القادمة، ص17.
[8] "أحيانًا يسمّونهم روّاد المدرسة العقلية، وهذا اسم مضلّل بعض الشيء، فالآخرون ليسوا من المجانين." العصفورية، ص152.

شالوم أيها الولد الحبيب!"[1] "أين أنتم من الديمقراطية" تلك الخلاصة التي أراد الراوي أن يوصلها للمتلقي، بعد التجارب المريرة التي مرّ بها، والمحاولات المضنية، لتحرير فلسطين، والقضاء على إسرائيل، وتوحيد الأمة العربية، لكن هناك الكثير من المعوقات التي تحول بين العرب وبين ذلك، في مقدمة تلك المعوقات، الأحزاب السياسية والجماعات الدينية.

[1] العصفورية، ص283.

المبحث الثاني: نقد الحكومات والأنظمة العربية:

كان لا بد أن يتحدث المبحث الثاني من هذا الفصل حول الحكومات والأنظمة العربية، لأن غالبية تلك الأنظمة بحكوماتها المختلفة، قد تشكلت لبناتها الأساسية من الأحزاب المسيطرة والمهيمنة في الدول العربية، والتي وصلت إلى الحكم عبر الطرق المختلفة، المتمثلة في الثورات والانقلابات في غالبيتها.

يتعرض المبحث إلى عدة نقاط تجلت في روايات غازي القصيبي، فيما يتعلق بالأنظمة العربية وحكوماتها، والتي عايشها الوزير الدبلوماسي، خلال مراحل عمره، وخلال عمله السياسي، فالسياسة الحكومية في الأزمان التي تناولها، لا تختلف كثيرًا عمّا نمر به، فالتاريخ مستمرٌ وماضٍ، ولكن أحداثه تتكرر، وتعيد نفسها، في الأزمان المختلفة، ومن خلال الوجوه المتعددة.

أولًا: الفساد الحكومي:

لم تغب هذه القضية الملحّة عن ذهن الروائي في رواياته المختلفة، بل تشعر أنها كانت هاجسًا يلاحقه من عملٍ أدبيٍ إلى آخر، فلا تكاد تخلو رواية من رواياته من تلك القضية.

إن الفساد "ظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية توجد في كل دول العالم، وإن كان الأمر متفشّيا في البلدان التي يدعونها العالم الثالث حيث يتم الوصول إلى الحكم عادة بطرق غير مشروعة. ويتلخّص ذلك الفساد في قيام السياسيين باستغلال مراكزهم من أجل المصلحة الخاصّة."[1]وهذا ما أشار إليه الراوي في العصفورية بكل دقة، فريمون أبو شوكة هو وزير السياحة والتعاون الدولي في رواية سبعة، وكذلك هو رئيس حزب المساواة المطلقة، ورئاسته للحزب هي التي أهّلته لأن يكون وزيرًا كما هو واضح، المهم أن ريمون كان يمثّل الوزير العربي الفاسد في رواية سبعة، وقد وظف الكاتب شخصيته توظيفًا دقيقًا ليبين الفساد المستشري في أوساط الدولة العربية. "أريد أن أبدأ بالسؤال الذي أصبح تقليديًا لكثرة ما رُدّد ومع ذلك اسمح لي، معالي الوزير، أن أقول إني لم أسمع، حتى الآن، ردًا مقنعًا. كيف يمكن لرجل إقطاعي أن يرأس حزبًا يُسمّي نفسه "حزب المساواة المطلقة"؟ –إقطاعي؟! أين الإقطاع؟! هل تعرفين أن مجموع الأراضي الزراعية التي أملكها لا يتجاوز 2000 دونم. هل يُسمّى هذا إقطاعًا؟"[2] ف2000 دونم بالنسبة للوزير اليساري لا تُعد إقطاعًا! فما هو الإقطاع بالنسبة له؟! ولا يتوقف الأمر على كونه إقطاعيًا معاصرًا، بل يتعداه إلى استغلال نفوذه وعلاقاته لأجل زيادة أملاكه ومنافعه وزيادة مساحة نفوذه أيضًا، وهذا ركن ركين مما يسمى بالفساد السياسي، ف"الفساد السياسي هو إساءة استخدام السلطة من قبل القادة السياسيين من أجل تحقيق الربح الخاصّ ومن أجل زيادة قوّتهم وثروتهم. ولا يحتاج الفساد السياسي إلى دفع الأموال مباشرة، بل قد يتخذ شكل "تجارة النفوذ" لمنح الأفضليّات التي تسمّم الحياة السياسية والديمقراطية."[3]

---

[1] سمير التنّير، الفقر والفساد في العالم العربي، دار الساقي، بيروت، ط1، 2009، ص16-17.
[2] سبعة، ص292.
[3] الفقر والفساد في العالم العربي، ص31.

أما ما يتعلق بتحقيق النفوذ في حديث الراوي عن الوزير ريمون في سبعة، "كان الزائر الأول ابن عم دولة الرئيس. جاء يطلب ترخيصًا لفندق جديد، وحصل على الترخيص. لا يستطيع أحد أن يتّهم دولة الرئيس بالبطء!"[1] فلا بد أن يجد الوزير ريمون حظوة لدى دولة الرئيس لأنه ييسر أمور أقاربه، دون أن يحتاج الأمر الرجوع إلى الرئيس، وسيعرف دولته بهذا الأمر عاجلًا أم آجلًا بهذا التيسير. ومثال آخر على ذلك "بعد خروج الوفد الكحلعيوني زارني المستر ستيوارد، المدير الإقليمي لشركة طيران "يونيفرس". طلب السماح لشركته بمضاعفة عدد رحلاتها إلى العاصمة. أخبرته أني متعاطف جدًا مع الطلب إلا أن الموضوع يخص وزارة النقل. وعدتُ ببذل جهدي لإقناع معالي وزير النقل الموافقة. لا يعلم إلا الله الثمن الذي سيطلبه معاليه. وإن كنت أرجّح أنه سيطلب تخصيص أسهم كثيرة في عدة فنادق للأشخاص الذين يحدّدهم."[2]

فالوزراء كلهم متشابهون، وما يعطونه من تراخيص في الوطن، كأنهم يعطونه من أملاك الوالد! فيأخذون حصصهم عليه، ووزير سبعة ريمون يبدو في العلن، أنه لا يستفيد شيئًا من ذلك، لكن الحقيقة تقتضي أنه سيستفيد المزيد من القوة والنفوذ لدى أصحاب الفخامة والمعالي في الدولة.

وأما مثال الفساد الذي يمارسه وزير السياحة ريمون، ويزيد ثروته، "أودّ أن أسأل معالي وزير السياحة والتعاون الدولي عن السبب الذي يجعل وزارته محتفظة بـ15% من أسهم "الكازينو الدولي" رغم وعود معاليه المتكرّرة بطرح هذه الأسهم للجمهور." فهذا السؤال يُطرح على الوزير من أحد أعضاء البرلمان، فيجيب الوزير إجابتين: الأولى ذهنية، والثانية علنية. أما الذهنية "السبب الحقيقي هو أن التخلي عن هذه الأسهم يعني، تلقائيًا، التخلّي عن كل الامتيازات التي أتمتع بها، حاليًا، في الكازينو: العشاء المجاني واللعب المجاني لي ولضيوفي. إلا أن البرلمانات لم توجد لبحث الأسباب الحقيقية لأيّ موضوع"[3] وأما السبب البروباجندائي الذي دبجه الوزير للبرلمان "–أشكر سعادة النائب المحترم على سؤاله الوجيه. وأؤكد له أن الوزارة بصدد إعداد الترتيبات النهائية لطرح هذه الأسهم للجمهور ... بمجرّد الانتهاء من بعض الإشكالات القانونية..." وهكذا يدبلج ويدبج الوزيرُ الكذبَ لأعضاءِ البرلمان، والحقيقة تكمن فيما يستفيده الوزير من خلال الاحتفاظ بأسهم الكازينو على قيود الوزارة، والتي يعتبرها مُلكية خاصّة! وحتى النزوات النسائية الليلية للوزير تتم على حساب كونه وزيرًا للسياحة في الدولة، وليس على حسابه الخاصّ، فسهراته الليلية تتم في شقة الحزب المطلة على البحر، والخاصة منها تتم في قاربه أو يخته الصغير الذي يبلغ طوله 60 قدمًا. وضيفته في ذلك اليخت كانت المذيعة العربستانية المثيرة جلنار، وكعادة الوزير "عقدت اجتماعًا خاصًا جدًّا مع سكرتيري الخاص جدًا، طوني، للتأكد من أن المساء سوف يمر كما أريد له أن يمرّ. طلبت من طوني أن يحضر العشاء من "ونترلاند"، وأن يتأكد كونه خفيفًا لذيذًا، مكوّنًا من كافيار ومأكولات بحرية. وطلبت منه أن يحضر من نفس الفندق 6 زجاجات شمبانيا ماركة "روتشيلد" (من دواعي سرور أي فندق أن يُطلبَ منه تقديم هذه التسهيلات البسيطة بين الحين والحين)"[4] والتوصيف الدقيق لهذا الفساد الظاهر البيّن هو توصيف

[1] سبعة، 299-300.
[2] سبعة، ص300.
[3] سبعة، ص300-301.
[4] سبعة، 313.

الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه عامله فقال: "هذا مالكم وهذا هدية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا"[1] فالقصد من هذا أن الوزير أو المسئولين بشكلٍ عام، يأخذون الرشوة على شكل هدية ويفتخرون بها لأنفسهم، بل ويجاهرون بها أحيانًا، وهي لم تعطَ لهم أبدًا إلا لمنصبهم الذي هم فيه، هذا غير السفاح الخلقي الذي يمارسه أصحاب المعالي، كما ورد في روايات القصيبي، وغيره من أنواع الفساد الذي يمارسونه بحكم سلطانهم.

أما روايته شقة الحرية فلم تخلُ من الآراء النقدية التي يوجهها الراوي مباشرةً إلى الحكم الحزبي الناصري، ويلخص الراوي كل شيءٍ في حكاية عبد الكريم وفريدة، فبعد الحب والوعود بالزواج وما إلى ذلك من أمورٍ بين الحبيبين، تتركه فريدة، وتتزوج غيره! والسبب بكل بساطةٍ على لسان نشأت، "باختصار، أثناء الصيف جاء لفريدة خطيب، ضابط في الجيش، برتبة يوزباشي التي أصبحت نقيب ببركة الاقليم الشمالي، ووافقت، ووافق أهلها، وتزوجا. –بهذه السرعة؟ –يبدو أنهم اعتبروه لقطة. ألم أقل لك ان الضبّاط هم الملوك الجدد في مصر؟[2]

ويدعم هذا الرأي ما جاء في العصفورية خلال حوار البروفسور مع صلاح الدين المنصور، "يقول الناس إن الضباط أصبحوا الطبقة المستغلّة الجديدة. ويقول الناس إن الأموال المصادرة وضعت تحت تصرف هذه الطبقة الجديدة"[3] فالثورة المصرية آنذاك قد انبثقت من فكرة القومية العربية، وبهذه الفكرة حكم عبد الناصر، ويبدو أن ذلك قد توقف على الشعارات فحسب دون أن ينفذ إلى الواقع العملي، وذلك حاصلٌ بشكل عام في مختلف التوجهات، ونتيجة الفساد المستشري في ذلك الوقت بين الضباط الناصريين ضعفت هيبة الدولة المصرية، وفقدت مكانتها في نفوس المثقفين، وانهار الأمل بالكليةِ فيهم، بعد الهزيمة النكراء التي حاقت بهم عام 1967، "إنّ النتيجة الأولى للفساد هي التسبّب بإضعاف الدولة وهيبتها. وعند ذلك تتهاوى الرقابة والمتابعة، وينتشرّ جو الفساد."[4] حتى أنه وصل لشخص الرئيس جمال عبد الناصر في رأي قاسم، "– لماذا يركب سيارة "كدلك" إذا كان من الزعماء الشعبيين؟"[5] فقد كان قاسم ينتقد جمال عبد الناصر حتى أنه كان يعد ربطات العنق والبدل التي يملكها جمال عبد الناصر، ولم يكن ذلك الاعتقاد موقوفًا على قاسم فحسب، بل كان والد نشأت ينظر ذات النظرة لشخص جمال عبد الناصر، ويضرب مثلًا حول تكلفة صيانة يخت مصر التاريخي "المحروسة" ويعقد مقارنةً بين حكم الملك فاروق وعبد الناصر فيما يتعلق باليخت "قامت ضجة في البرلمان عندما كلّف اصلاح يخته "المحروسة" نصف مليون جنيه. "المحروسة" أصبحت الآن اليخت الجمهوري "الحرية" ولو سأل سائل عن تكاليف صيانتها لاختفى إلى الأبد"[6] وقد بناه الخديوي إسماعيل من أموال المصريين الجائعين، وأصلحه الملك فاروق من أموال المصريين الجائعين، وكذلك الرئيس عبد الناصر، وكل من جاء بعده من رؤساء استقل اليخت، فللمحروسة قصةٌ مع كل من تعاقب على

[1] صحيح البخاري (6492)، ومسلم (1832).
[2] شقة الحرية، ص204.
[3] العصفورية، ص203.
[4] الفقر والفساد في العالم العربي، ص25.
[5] شقة الحرية، ص55.
[6] شقة الحرية، ص291.

حكم مصر، وشاهدٌ على طريقة حكم كل منهم، وهذا الأمر ينسحب على قادة الدول العربية بلا استثناء، فبينما شعوبهم ترزح في الفقر والجوع، يتباهون بأمورٍ تكلفهم الأموال الطائلة لمجرد تحريكها من مكانها!

بعد يخت المحروسة تأتي رواية العصفورية، لتكشف ما فيها من تجليات الفساد في النظام العربي وحكوماته، فيمضي البروفسور في وصف الأماكن التي زارها، والتي بُنيت لأجل رؤساء الدول، متمثلين في صلاح الدين المنصور "موضوعنا أنني صعقت عندما دخلت. نوافير متلألئة الألوان. أشجار في كل مكان. بلابل. تصوّر بلابل في الصحراء. وفي الليل! – يمكن تسجيل؟ – يمكن. وقصور مصمّمة على هيئة خيام. كنت أفرك عيني لأتأكد أنني لم أكن أحلم. كانت مدينة صغيرة من السحر. عندما وصلنا إلى القصر الرابع وجدت صلاح الدين المنصور في انتظاري ... كانت القاعة التي استقبلني فيها أكبر من قاعة الشعب العظمى التي سبق أن حدثتك عنها."[1]

ويكمل البروفسور في وصف العشاء الذي دُعيَ إليه في ذلك المكان "بغتة، ارتفعت الخيمة واختفت في سقف القاعة. مشينا وراء المرافق إلى ساحة خارجية وجدنا فيها خيمة حقيقية. دخلناها فوجدنا سفرة على الأرض تحتوي على عشرة طليان وتوابعها. أخبرتك أن الطلي هو الخروف"[2] أما عن المشروبات التي كانت ضمن تلك السفرة "قالها المنصور وهو يمد يده إلى كوب غامق اللون تنبعث منه رائحة شبيهة برائحة السائل الذي تخصصت سكوتلنداء في صنعه وتصديره."[3] ولم يتوقف الأمر على القصور الصحراوية "خرجت ووجدت سيارات "الرولزرويس" إياها مصطفة في الانتظار. امتطينا السيارة إلى استراحة فخامة الرئيس البحرية. لا داعي للتوسّع في وصفها. يكفي أن أقول إنها قصور على البحر مُصمَمة على شكل سفن شراعية تمسُّكًا بالتراث والأصالة" وبكل سخرية يقول "يملكها الشعب، لا فخامة الرئيس، ولا أولاد فخامته. ويقيم فخامته فيها مؤقتًا باعتباره..."[4] حتى أن الحكيم قد ملّ من وصف استراحات فخامة الرئيس "طلبت مقابلة صلاح الدين المنصور واستقبلني فخامته في استراحته الرعوية– عفوًا؟ – استراحة في منطقة المرعي. لا داعي للتوسع في وصفها. مجرد قصور على هيئة.. – بروفسور! – حسنًا! حسنًا!"[5] فما القصور والمباني العتيدة إلا مشهد من مشاهد الفساد التي تغرق بها الأنظمة العربية الحكومية وقيادتها، ولم يتوقف الفساد على تلك الأمور بل امتد إلى الأمور المعنوية، فأصبح أصحاب الفخامة بعد توليهم البلاد، يتصرفون وكأنها ميراثٌ شرعيٌ لهم، فيسمون الشوارع بأسمائهم، ويتملكون ما فيها من المشاريع، ويملئون كل مكانٍ في الدولة بصورهم وتماثيلهم "كانت المفاجأة الثانية اسم الشارع الذي أخذنا على منتصف المدينة. كان اسم هذا الشارع منذ سنين طويلة، لأسباب لا تخفى على فطنة أحد، شارع المطار. وجدت أن اسمه قد تحوّل إلى شارع المنصور. المفاجأة الثالثة كانت الفندق. لا، لم تكن المفاجأة اسم الفندق. توقّعت أن يكون اسمه المنصور. كانت المفاجأة ملكية الفندق"[6]

---

[1] العصفورية، ص202.
[2] العصفورية، ص205.
[3] العصفورية، ص206، والمقصود بالسائل: الخمرة الثمينة.
[4] العصفورية، ص210.
[5] العصفورية، ص214.
[6] العصفورية، ص202.

أما برهان سرور فقد اختلف عن صاحبه المنصور بجنون العظمة الذي سيطر عليه "كانت المفاجأة التمثال الهائل المنتصب في كل قاعة من قاعات المطار. برهان سرور، يمدّ ذراعيه وكأنه، شخصيًا، يحتضن كل القادمين إلى عربستان 49. التمثال بحجم تمثال رمسيس ... المفاجأة الثانية كانت في الشوارع. الجداريات، لأول مرة، في شوارع عربستان 49 ... صورة بحجم العمارة. على كل عمارة. لا حول ولا قوة إلا بالله!"[1] ولم تتوقف حوقلة الراوي على هذا الأمر فحسب، فنفقات أصحاب الفخامة على علاقاتهم الغرامية وقوامهم الجسدي، تستنزف الملايين من أموال العرب والمسلمين، فصلاح الدين المنصور يخاصم كل يومٍ جميلة، ويعود ليرضيها بهداياه وأشعار المتنبي، ويصلح قوامه في مصحة جينيف، وأم برهان تعمل رجيم في ذات المصحة، وقد ورد الحديث عن ذلك فيما سبق، كل ذلك يحدث في غيابات القصور الجمهورية، وفي المقابل "يقول الناس إن الخطة الخمسية زادت الغنيّ غنى والفقير فقرًا. ويقول الناس إن الديمقراطية مجرد تمثيلية، وأن الضباط يملؤون المجلس الأول وأقاربهم يملؤون المجلس الثاني"[2] ولا يجدر بأي عاقلٍ أن يكذب شعبًا ويصدق رئيسًا.

لم يتجاوز الراوي قضية الرشوة في العصفورية: "اتخذ قرارًا تاريخيًا جديدًا. قررت أن أعدم المرتشين بنفسي، بيدي، واحدًا واحدًا. ألف مرتشٍ في اليوم وتنتهي الحفلة في 500 يوم. أطلقت على المنطقة. "ساحة أم الإعدامات"."[3] ليتضح كثرة أولئك في النظام الحكومي المهترئ بسبب الفساد المستشري في أجهزة الدول من أعلى الهرم وحتى أدنى مستوياته، لا سيما ذلك الذي يحدث بين القطاع العام والخاص بسبب تمكن رجالات الدولة العسكر من مقاليد كل شيء "يعمّ الفساد دوائر الدولة وشركات القطاع الخاصّ من خلال خطوط الاتّصال في ما بينهما، وأهمّ آلية له هي الرشوة التي تتعدّد أنواعها، وفي مقدّمها الرشوة التي تدفع من أجل الحصول على منفعة حكوميّة"[4] فالرشوة على اختلاف حجمها صغيرة أم كبيرة هي السبيل الأمثل لكي تسير أمورك دون معيقات في أغلب البلاد العربية، فهذا فؤاد شقة الحرية "على ما يبدو، ارتكب جريمة الرشوة"[5] عندما أعطى الشيال زيادةً على أجرته ثلاثة جنيهات لأجل البقشيش، ولم تكن أموره لتسير، لولا ذلك البقشيش في البلاد العربية.

سبب الفساد:

حاول الراوي وضع يده على المشكلة التي يكمن خلفها كل الفساد سابق الذكر وغيره، فبيّن العديد من الأسباب العملية الإدارية، السياسية، التنظيمية، والخلفية الحزبية للنظام القائم، لكن السبب الأكثر بروزًا وإثارة للعجب من بين تلك الأسباب، هو جنون العظمة وإدمان المجد، وما تُمنّيه نفوس أولئك العظام لهم، فـ"للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله، وتعادل لذة العلم عند الحكماء، وتربو على لذة امتلاك الأرض مع ثمارها عند الأمراء، وتزيد على لذة مفاجأة الإثراء عند الفقراء، ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة

[1] العصفورية، ص235.
[2] العصفورية، ص203.
[3] العصفورية، ص225.
[4] الفقر والفساد في العالم العربي، ص19.
[5] شقة الحرية، ص27.

الحياة."[1] فلا جرم أن يستميت الحكام في المحافظة على أنظمتهم ومناصبهم في سبيل ذلك المجد، وأكثر ما يتجلى ذلك في دنسكو عندما بدأت سونيا كبيرة المستشارين للمدير التنفيذي، بتذكيره بأيام مجده كي تغريه بأن يحارب لأجل البقاء في منصبه: "ارتفع صوت سونيا عن طبقته الرقيقة المألوفة، وقالت: – روبيرتو! روبيرتو! هل جننت؟ صدّقني أنك لن تستطيع أن تعيش أسبوعًا واحدًا بدون هذه الإدارة. سوف تموت من الكآبة. لقد أدمنت المجد، يا ربيرتو. لا بُدّ أن تعترف بذلك. أدمنت الطائرات الخاصة. والبساط الأحمر في كل مطار. ورؤساء الدول. والوزراء. والحاشية التي تحيط بك. وآلاف الرسائل التي تصلك كل يوم تلتمس عملًا في الإدارة. لا تقل لي أنك سوف ترجع إلى جامعتك الكئيبة."[2] وذلك المرشح لرئاسة دنسكو، الذي كان يشغل منصب رئيس جمهورية "يتحدّث بطريقة طبيعية، إلا أنه غير طبيعي. – غير طبيعي؟! مجنون؟! – جنون العظمة. يعتقد أنه أعظم إنسان في هذا القرن."[3] ويرفض الأمور الروتينية المتعلقة بالدعاية الانتخابية للتعريف به " – أنترنت؟! كتيبات؟! للتعريف بي؟! هل نسيت من أنا؟ لا يوجد رئيس دولة في العالم لا يعرفني، ولا يهمني أن يعرفني الرعاع أو لا يعرفوني."[4]

وانتقالة سريعة لشقة الحرية تدعم ذات السبب من وجهة نظر الراوي، فؤاد الذي أحب عبد الناصر حبّا جمّا، ها هو يغير نظرته فيه والسبب أنه "تعوّد على الرئاسة، ونسيَ النضال. جاءته الوحدة مع سوريا على طبق من ذهب وظنّ أن الوحدة ستتحقق في كل مكان بالأسلوب عينه."[5] وهذا صلاح الدين المنصور في العصفورية، يرفض أن ينطق اسمه دون أن يسبق بلقب الفخامة والرياسة "جريًا على عادتي القديمة قلت له: "يا صلاح". بمجرد أن سمع الرئيس اسمه مجرّدًا من الألقاب بدأت ملامح وجه تتقلّص بعنف. استدركت فورًا وقلت: "يا فخامة الرئيس". استرخت أساريره"[6].

أما التعليل الحقيقي للفساد وعلاقته بذلك الجنون –جنون العظمة– الذي لازم قادة الدول العربية فقد صرّح به الجنرال الإسرائيلي موشيه بن عادياء، فبما أن النظام القائم لدى هؤلاء القادة هو الديكتاتوري التسلطي، فالنتيجة في قول الجنرال بعد أن "نظر إليّ الجنرال طويلًا ثم قال: "لا نخاف أي حركة تنتهي بتسلّط فرد. التعامل مع فرد أمر سهل. بمجرد أن تعرف نقاط ضعفه تصل إلى مقتله. في كل إنسان نقاط ضعف. حصان طروادة! وكعب أخيل![7] خذ صديقك العزيز صلاح الدين المنصور. اكتشفنا، في وقت مبكّر، أن نقطة ضعفه هي حب المال. زينّا له المسألة عن طريق مستشارين زرعناهم هنا وهناك. وفرص قدمناها هنا وهناك. وشغله حب المال عن كرهنا. لم يعد عدوا لنا. خذ صديقك العزيز برهان سرور. بمجرد أن اكتشفنا جنون العظمة الكامن في أعماقه تنفسنا الصعداء. صدّق أو لا تصدّق أنّنا، عن طريق عملائنا، أول من بدأ التماثيل والجداريات. والباقي تعرفه جيّدًا. انشغل الرجل بحب نفسه عن كرهنا. لم يعد مصدر

---

[1] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2009، ص51.
[2] دنسكو، ص17.
[3] دنسكو، ص75
[4] دنسكو، ص86.
[5] شقة الحرية، ص386.
[6] العصفورية، ص203.
[7] رموز في الأساطير الإغريقية التي اتخذها العديد من الكتاب المعاصرين سبيلًا لتفسير الواقع.

خطر".[1] لقد جرى الحق على لسان الجنرال اليهودي، والعجيب يكمن في إخبار الجنرال بهذه الأسرار الخطيرة وغيرها للبروفسور، ولما سأله البروفسور عن السبب أجاب: "أولًا، لأنك لن تستفيد منها. لن يصدقك أحد. وثانيًا، لأني أستلطفك. فيك شيء طفولي ساحر من البراءة والطيبة""[2] يبدو أن أغلب الشعوب العربية فيها هذه الطيبة الطفولية البريئة الساحرة، وإلّا لما تمكن من رقابها الحكام لعشرات السنين.

إذًا يُرجع الراوي في النهاية، كل أسباب الفساد إلى الديكتاتورية والحكم الذي ينتهي بتسلط الفرد، وفي هذا تنظيرٌ واضحٌ للديمقراطية، وهذا يقود إلى الحديث عن الديمقراطية والديكتاتورية في الدول العربية.

ثانيًا: الحكم الديكتاتوري، والديمقراطية العربية:

أي حركةٍ أو أي نظامٍ أو أي تجمعٍ ينتهي بتسلط فرد، هذا هو المفهوم الأبسط للديكتاتورية كما هو مستنتجٌ من وجهة نظر الراوي فيما سبق، والتعامل مع فردٍ أسهل بكثيرٍ من التعامل مع تجمع ديمقراطي حقيقي، فيه نقاش وأخذ ورد ودراسة، فما عليك إلا معرفة نقاط ضعف الديكتاتور وينتهي الأمر، وإن كانت الديمقراطية ليست أنسب الحلول للحكم، إلا أنها أفضل الموجود من بين الأنظمة التي تعرض لها الروائي في رواياته، فعلى الأقل لا يوجد فيها استبداد وسلطة للفرد الواحد فـ"أشد مراتب الاستبداد التي يُتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية."[3] وذلك متوفرٌ في قادة الدول العربية، وما أسهل أن يحوز الحاكم على السلطة الدينية، وإن لم يكن متدينا! "سوف أريحك من العناء. شيخ الأزهر والمفتي والبقية موظفون عند رئيس الجمهورية"[4] وفي كل بلدٍ عربي جامعةٌ إسلامية ودار إفتاء، والجيش بكل الأحوال تابع للرئيس، ومقاليد كل شيء بيده، وهذا رأي يبرر اختيار الراوي للديمقراطية على غيرها من الأنظمة "الديمقراطية، كما قال ونستون تشرشل، ليست نظامًا جيدًا للحكم، ولكن الأنظمة الأخرى أسوأ بكثير. وهذا تلخيص جيد للقضية. في الديمقراطية، على كثرة عيوبها، لا يمكن لفرد واحد أن يزج بالأمة في متاهات حسب مزاجه. يحارب يومًا، ويعدم المطالبين بالصلح، يصالح غدًا، ويعدم المطالبين بالحرب. يحارب إذا إجا على باله. ويصالح إذا إجا على باله. يؤمم يومًا، ويخصخص يومًا"[5] ولعله فيما سبق، إشاراتٌ واضحةٌ لدولٍ عربيةٍ بعينها، ورؤساء بعينهم، فمن أين سيأتي الراوي بتلك النتائج إلا من خلال معايشته لعالم الواقع الذي يسكنه، فهناك مَنْ "أرسل 70.000 جندي إلى اليمن لأنه غضب من أرجوزة ركيكة نظمها الإمام أحمد في هجاء الاشتراكية: "ولا يجوز أخذ مال الغير * إلا بأن يرضى بدون ضَيْرِ"[6] ويقصد بذلك إرسال عبد الناصر للقوات المصرية للمشاركة في الحرب الأهلية في اليمن، وهذا تسطيحٌ للحقيقة، فما فعل ذلك عبد الناصر، إلّا ليساعد الثورة في إسقاط الحكم الملكي في اليمن، فتنضم اليمن للجمهورية الكبرى، التي يحلم أن يكون زعيمها. ومن جملة الأمور الديكتاتورية التي تجلت في روايات

[1] دنسكو، ص281.
[2] دنسكو، ص281.
[3] طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص24.
[4] شقة الحرية، 304.
[5] العصفورية، ص283.
[6] العصفورية، ص292.

القصيبي النفي والإبعاد والسجن، والمراقبة، والحظر الحزبي، وإلغاء الدساتير، والإعدامات، والتآمر، والحجر على الصحافة. وكل ذلك حدث بالفعل الحقيقي وليس فقط بالفعل الروائي فحسب، وقد سأل البروفسور رؤساء الدول في العصفورية عن سبب القيام بتلك الأفعال "ماذا عن الأشياء الأخرى؟". نظر إليّ باهتمام بالغ، وقال: "أيّ أشياء؟". قلت: "حظر الأحزاب. السجناء السياسيون. الإعدامات". ابتسم برهان ابتسامة ساحرة مضيئة كالنهار، وقال: "لم يكن هناك حظر. أعطيت الأحزاب فرصة لتطهير كوادرها من العملاء ... قلت: "والسجناء السياسيون؟". قال: "لا يكادون يذكرون. قِلّة قليلة من عملاء إسرائيل ... وثلة من أيتام العهد البائد". قلت: "والإعدامات؟" قال: "لم يعدم سوى جواسيس إسرائيل الذين اعترفوا بإرادتهم الحرة""[1] وذات الإجابات أجابها صلاح الدين المنصور على البروفسور بذات الطرق الملتوية[2] فالتهم جاهزة دومًا، التجسس لصالح العدو، والتخطيط لقلب نظام الحكم، ديدن كل نظام ديكتاتوري قائم، ولم تقتصر تلك العلامات الديكتاتورية على العصفورية، فقد كانت الشغل الشاغل لسكان شقة الحرية، فقاسم يرى أن عبد الكريم قاسم "مُجّرد قاتل محترف" ومثله عبد الناصر ويتساءل "ماذا عن العمّال الذين شنقهم؟ ماذا عن الإخوان المسلمين؟" ويعلل يعقوب ذلك بأنه "مُجرّد برجوازي صغير. والبرجوازية لا تستطيع التعايش مع حركة عماليّة قويّة– ولهذا أعدم العُمال الذي أضربوا. ولا مع مدّ رجعي شعبي ولهذا أعدم الإخوان المسلمين"[3] فالمبررات مُختلقة من النظام نفسه، وممن يؤمن به كفؤاد وماجد، وممن يقف ضده كقاسم ونشأت وعبد الرؤوف، ومنهم من يحاول التأويل الشخصي كيعقوب، ومنهم من يحاول إدخال الطائفية الدينية كعبد الكريم، لكن مهما تعددت التأويلات فالقتل قتلٌ في النهاية، والسجنُ سجنٌ، ولا أحد يستطيع تغيير حقيقة تلك الأشياء أو تجميلها.

إن الخوف المسيطر على ألسنة وأقلام المثقفين في البلاد العربية، هو من أبرز علامات الديكتاتورية التي تخرس الألسنة، وتسير بالأقلام نحو خطوط أخرى، وهذا ما عبر عنه فؤاد في شقة الحرية "أنت يا سيّدي الممتحن، باعتبارك مواطنًا عربيًا من الإقليم الجنوبي، تعرف ولا شك الأوضاع في مصر، وتعرفها أكثر مني، ولكني أقدّر أن هناك خطورة في التعرض إليها في كتابك"[4] ثم يبدأ بسرد ماذا يحدث في مصر "يملك ضباط الثورة كل شيء. وأقصد كل شيء حرفيا: الحكومة، والمجلس ..."[5] ويعلم فؤاد جيدًا أنه لو صرح بتلك الأفكار في العلن؛ لذهب وراء الشمس كما يُقال، وإرهاصٌ آخر يدلل على أن المخابرات العربية تجري من المواطن العربي مجرى الدم في الوريد، ما قاله الشيخ أبو زهرة مازحًا ثم جادًّا لفؤاد، عندما جاء يسأله عن قضايا تتعلق بالقومية العربية "– حتوديني في داهية؟ أنت أيه؟! مخابرات؟ هم وصلوا للبحرين؟! ... يبتسم الشيخ: – لا داعي للحديث عن أفراد. هيه؟! فهمت قصدي؟! لا ضرورة للأسماء ... – ألم نتفق أنه لا ضرورة للأسماء؟"[6] فالشيخ أبو زهرة يناقش فؤاد وحيدًا في بيته، ومع ذلك يشفق من ذكر الأسماء، لأنه

[1] العصفورية، ص240.
[2] العصفورية، ص204-205.
[3] شقة الحرية، ص156.
[4] شقة الحرية، ص420.
[5] شقة الحرية، 420.
[6] شقة الحرية، ص257.

يعلم جيدًا ماذا يترتب على ذلك لدى النظام الحاكم. ولا يختلف عن ذلك العمل الثوري، فـ"كل حلقة من حلقات العمل الثوري محفوفة بالصعوبات والمخاطر"[1] ومن يضبط بمثلها يُسجن –سيأتي الحديث عن السجن– وإن أُريد به خيرًا يتم إبعاده وطرده من البلاد، وهذا ما حدث مع يعقوب بعد اعتقاله، فقد تعاطفوا معه لأنه تطوع للقتال مع الشعب المصري أثناء العدوان الثلاثي، لذلك تقرر إعفاءه من العقوبة، مقابل أن يغادر مصر خلال ثلاثة أيام، مع العلم أنه لم يبق له سوى شهور ويحصل على الليسانس، ولكن القرار النهائي لا رجعة فيه، وليست هنا المشكلة فحسب، أين سيذهب يعقوب؟ تلك هي المشكلة الأكبر، فقد تم منعه من دخول وطنه البحرين بعد طرده من مصر، وفي مطار القاهرة "بدأ الأستاذ شريف في مناقشة الاحتمالات: – سوريا؟ مستحيل! المنع يسري هناك. السعودية؟ مستحيل! الكويت؟ غير مضمونة. العراق؟ سيظنونه جاسوسًا مرسلًا من مصر."[2] وهكذا تتساوى حكومات الاستبداد العربية في تسبب الشقاء لمواطنيها. "ويراد بالاستبداد، عند إطلاقه: استبداد الحكومات خاصة؛ لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوى الحياة."[3] فلا استبداد قد ينال من الإنسان شرٌّ من استبداد حكومته به، وهذا واقعٌ لا يزال يعاينه المواطن العربي حتى اليوم.

لا يوجد نظامٌ ديمقراطيٌ ناجح يرأسه رجلٌ عسكري، وهذا مما ذكره الراوي في العصفورية على لسان برهان سرور، وكانت آراء برهان في العسكر من دواعي إعجاب البروفسور به. "كان يسخر من العسكر والحكم العسكري. كان يقول: "ماذا تتوقّع من إنسان يقضي النصف الأول من عمره في تلقّي الأوامر، والنصف الثاني في إعطائها؟". وكان يقول: "العقل العسكري لا يفهم السياسة. السياسة أنصاف حلول. والعقل العسكري يرفض أنصاف الحلول. النصر أو الهزيمة. الطاعة أو السجن". وكان يقول: "كيف تتوقّع من إنسان مُدجّج بالسلاح أن يكون مسالمًا؟"."[4] وهذا واقعٌ في الحقيقة فصلاح الدين المنصور قد أطلق النار على البروفسور أثناء الطعام لأنه أغضبه، فما بالك بالعلاقات بين الدول؟! في الواقع أن إعجاب البروفسور ببرهان بسبب هذه الآراء، هو إعجاب في محله، ومقنعٌ إلى درجةٍ كبيرة، ولكنه مع ذلك وقع في حربٍ مع نظام ضياء الدين المهتدي! فما الأسباب التي تدعوهم إلى تغيير برامجهم والنكث بوعودهم مع البروفسور، لا العسكري القومي، ولا الاشتراكي اليساري، ولا حتى الإسلامي استطاع أن يوفي بعهده مع البروفسور، والسبب في شقة الحرية على لسان فؤاد أن أولئك ينساقون لطبائعهم البشرية وليس للفكرة التي خرجوا من أجلها. "من طبيعة البشر أن مرور الزمن يفقد الثوري ثوريته. الأمر ينطبق على المسلمين وغير المسلمين. إن كان لا بد من القسوة في الحكم فيجب أن نوجه قسوتنا إلى الطبيعة البشرية لا إلى الإسلام"[5] الأمر الذي ألجأ البروفسور أخيرًا إلى الديمقراطية. "بعدها، يا دكتور، انغمست في تفكير عميق محوره الديمقراطية. ظلّت كلمات الجنرال اللئيم تطنّ في أذني وفي روحي "أين أنتم من الديمقراطية؟" ... سبحان الله! هل البشر في الديمقراطيات من

[1] شقة الحرية، ص276.
[2] شقة الحرية، ص381-382.
[3] طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص23.
[4] العصفورية، ص210.
[5] شقة الحرية، ص305.

طينة غير طينتنا؟ خصوصية التجربة الديمقراطية الأوروبية مفهومة. وخصوصية التجربة الديمقراطية الأمريكية معروفة. ولكن ما المانع من وجود تجربة ديمقراطية عربستانية لها خصوصيتها؟ ما المانع؟"[1] لذلك لجأ البروفسور كعادته إلى مراكز الأبحاث والتفكير، كي يبني خطته على خطوات علمية، للبحث عن الدولة العربستانية التي يمكن أن تخضع للتجربة الديمقراطية، فكانت عربستان 60 هي الدولة التي يمكن أن تتم فيها التجربة الديمقراطية، وبالفعل الروائي "شهدت عربستان 60 مولد أوّل ديمقراطية حقيقية في عربستان. ليس بوسع أحد أن يعتقلك إلا بأمر القضاء. لا توجد محاكم أمن دولة ولا محاكمات عسكرية ..."[2] إذًا تحققت الدولة الديمقراطية في عربستان 60 مع كل مقتضياتها التي جعلتها بالنسبة للراوي "الضوء في نهاية النفق. شعلة الأمل في الليلة السوداء. بذرة الديمقراطية. ما دامت عربستان 60 باقية فالأمل باق"[3] ورغم ذلك إلا أن هذه الديمقراطية الصافية البحتة، ليست هي الديمقراطية التي يريدها الغرب وساعدهم الشرير في الشرق للأعراب، فدبَّر الجنرال الصهيوني موشيه بن نمرود بن عادياء لانقلاب كانت تكلفته فقط 5 مليون دولار، في مقابل النصف مليار دولار التي دفعها البروفسور لأجل قيام الديمقراطية في عربستان 60، وذلك "لأن الديموقراطية ليست الأنشودةَ الرعوية لحكم الشعب لنفسه، لأنها فوضى العواطف التوّاقة للإشباع، يمكن بل ويجب منحُها من الخارج بقوّة سلاح قوةٍ عظمى، مع فهم أنّ القوة العظمى ليست مجرد دولةٍ تمتلك قوةً عسكرية مفرطة بل تمتلك، بشكلٍ أعمَّ، قوة السيطرة على الفوضى الديموقراطيّة."[4] بمعنى أن الولايات المتحدة مثلًا هي التي تمنح الديمقراطية وعلى طريقتها، ومثال ذلك أن أمريكا منحت الحرية للعراق، وأعقب تلك الحرية أعمال نهبٍ وتخريبٍ من الشعب العراقي، لأنه من ضمن الحرية، توجد حرية الشر، لذلك وجب أن تبقى هذه الدولة العظمى هي المسيطرة لتحدد أنواع الحرية المسموح بها، بكل بساطة.. لأننا العرب غير مؤهلين لذلك، تلك هي النظرة الغربية للديمقراطية التي يجب أن نكون عليها معشر الأعراب، كي نظل تبعًا لهم، حتى نكبر ونستطيع الاعتماد على أنفسنا.

ثالثًا: السجن:

لا يمكن لفصول الاستبداد والقمع العربي أن تكتمل دون الحديث عن تجربة السجن، ومن ذلك الباب تطرق الروائي إلى إشارات مختلفة، في مناطق متعددة من رواياته حول موضوع السجن.

وقد آمن القصيبي كغيره من الروائيين العرب، "أن الرواية هي النوع الأدبي –الأصلح– والأقدر على استيعاب موضوع "السجن" لأنها الأقدر على إنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثقافي والاجتماعي العام"[5] لذلك تحدث عن هذه القضية الملازمة للديكتاتورية والاستبداد الحكومي العربي، في مختلف رواياته، دون

[1] العصفورية، ص283.
[2] العصفورية، ص291.
[3] العصفورية، ص299.
[4] جاك رانسيير، كراهية الديموقراطية، ترجمة: أحمد حسان، دار التنوير، بيروت والقاهرة وتونس، ط1، 2012، ص16.
[5] علي منصوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه، جامعة لخضر –باتنة- كلية الآداب، 2007، ص4.

إسهابٍ كبيرٍ في وصف ذلك الموضوع، والوقوف على كافة تفاصيله؛ "لعلمه أن عبد الرحمن منيف قد قام بذلك في "شرق المتوسط""[1].

كما أن "الغالب على المثقف أن يقدم نفسه في صورة الضحية، ضحية قهر لا يتبين حجمه إلا عندما يخوض تجربة الانتماء، ويعيش أهوال السجن والاعتقال"[2] لذلك جعل الراوي المتمثل بالبروفسور، نفسه معتقلًا أكثر من مرةٍ في سجون الأنظمة العربية، مرةً في سجن المنصور، وأخرى في سجن برهان، ليصل بالمتلقي إلى مرحلةٍ متقدمةٍ من الإدراك الواقعي لما حدث معه، أثناء تجربته مع النظام العربي، وقد جعل إطلاق سراحه من ذلك السجن على طريقتين: الأولى: عندما كان في سجن المنتزه لدى المنصور، فقد تم إطلاق سراحه عن طريق المساومة المالية، وهو فعلٌ واقعيٌ يمكن أن يكون في العالم الذي نعيش، من مساومة الإنسان على حريته في مقابل ما يملك، والثانية: عندما كان في سجن المدرسة لدى برهان، فلم يطلق سراحه من سجنه إلا الفعل الروائي العجائبي، الذي تنعدم فرص حصوله في عالم الواقع، ولكنها ممكنةٌ في عالم الرواية، فقد نجا من خلال الجدار بمساعدة عالم الجنّ، قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه بثوانٍ، وما حصول هذا إلا ليبين الراوي مقدار التسلط والقهر الذي تمارسه الأنظمة العربية، لا سيما في موضع السجن والإعدامات، فمن من البشر تتوفر له فرصة البروفسور لينجو بنفسه من الإعدام، ويهرب بذات الطريقة من المعتقل؟!

الأسباب الداعية للحديث عن السجن في روايات القصيبي:

للحديث عن تلك الأسباب، لا بد أن تُحدد الشخصيات الروائية البارزة التي تم اعتقالها في روايات القصيبي، فأول وأبرز تلك الشخصيات هي شخصية البروفسور في العصفورية، وقد تم اعتقاله بسبب انتقاده أولًا: لفساد صلاح الدين المنصور بعد فشله في محاولة تقويصه أثناء الغذاء الوزاري "التفت المنصور على وزير الداخلية وقال: "خذه إلى المنتزه. وأبقِهِ هناك حتى تسمع مني ... كان المنتزه مخصصًا للمعتقلين السياسيين الذين يكادون يوجدون. ووجدت في المخيم قرابة 1500 معتقل منهم"[3] وثانيًا: لذات السبب في سجن برهان سرور "وقفنا، في النهاية، عند مبنى أبيض ذكّرني تصميمه بالمدارس الثانوية. عرفت، فيما بعد، أنه كان، بالفعل مدرسة ثانوية قبل أن يُطوّر إلى سجن."[4] وثاني تلك الشخصيات التي تم اعتقالها في روايات القصيبي، هو برهان سرور، "عندما تعرّفت عليه كان مناضلًا حزبيًا شابًّا من عربستان 49. قبض عليه في عربستان 48 بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم"[5] وأما الشخصية الثالثة فهي ضياء المهتدي الذي كان معتقل لدى برهان، ولنفس السبب الذي أُعتقل لأجله برهان، لدى المنصور من قبل! وأما عن الشخصيات الأخرى ففي رواية شقة الحرية أُعتقل يعقوب أثناء تسليمه مسودة منشورٍ لأحد رفاقه "في تلك اللحظة أحاط

[1] الرواية الموسوعية، ص20.
[2] البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، ص6.
[3] العصفورية، ص207.
[4] العصفورية، ص243.
[5] العصفورية، ص209.

بهم أربعة أشخاص وقال أحدهم: – تفضلوا معانا. وجد يعقوب نفسه والرفيق في بوكس أسود أسرع إلى مكان مجهول."[1] "أخذوني في البوكس إلى فيلا عادية في العباسية. فيلا سكنية صغيرة لا توجد على بابها يافطة، ولا يقف أمامها جندي"[2]

كما أن هناك بعض الشخصيات الثانوية التي أُعتقلت في روايات القصيبي، ولكن الغرض من ذكرها هنا، هو الإجابة على السؤال أعلاه، ومن تلك الشخصيات، بعض عمال المصانع في مصر. "في الأسبوع الماضي، تم سجن ثلاثة عُمال لا لشيء إلّا لأنهم تذمروا من كثرة الدخان الملوث الذي يسبب المرض في الصدور. ومدير المصنع، العقيد أكرم شبراوي، رجل مخابرات فاشيستي متخصص في التعذيب. ومهمته القضاء على أي بادرة يقوم بها العمال لتحسين أوضاعهم."[3] وكذلك أخو عبد الرؤوف، "قضى أخي في السجن ثلاث سنوات لمجرّد انهم وجدوا معه بعض كتيبّات حسن البنا. ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقّة. آلاف غابوا في أعماق السجون لأن السلطات شكّت في تعاطفهم مع الجماعة."[4] وهناك أسباب أخرى غير التعاطف ذكرها عبد الرؤوف، "ما ذكرته عن ارخاء اللحية ليس نكتة. كثيرون اعتقلوا لا لشيء إلّا لأنهم أطلقوا لحاهم ألا تلاحظ انه لم يبق ملتحون في مصر؟ بل ان هناك من اعتقل في الأتوبيس لأن مخبرًا سمع من يناديه بكلمة "أخ"!"[5] وعلى كل حال فأغلب المواطنين العرب قد حضروا فيلم "إحنا بتوع الأتوبيس" والذي يتحدث عن التعذيب في سجون عبد الناصر، وهو مأخوذ عن قصة حقيقية في كتاب "حوار خلف الأسوار" للكاتب الصحفي جلال الدين الحمامصي.[6] كل تلك الأسباب التي قد لا تذكر وغيرها كانت سببًا في تغييب العشرات في السجون، لأنه لدى ضباط المخابرات الكثير من القضايا التي بحاجة لمن يحملها. وأما الأسباب التي تُذكر، فهي تلفيق في غالبيتها من النظام؛ للقضاء على أي بادرة لتحرك الجماهير، وقد تعمد الباحث أثناء الاستشهاد الإشارة إلى الأماكن التي يُحتجز فيها المعتقلون، فقد تحول المنتزه إلى معتقل، وتحولت المدرسة إلى معتقل، وتحولت الفيلا السكنية إلى معتقل!

فالنظام الديكتاتوري لا يبالي بتحويل أي شيء خُلق للحياة والحرية لأجل سلبها وتغييبها. كما لم تغب ظاهرة الاختفاء القسري عن ذهن الراوي، فبعدما بحثوا عن يعقوب، لم يستطيعوا تحديد المكان الذي هو فيه، ولا الجهة التي اختطفته واعتقلته "– قال لنا الأستاذ شريف انك في سجن المخابرات. – قال لنا الباشا انك في السجن الحربي."[7] وهذه الظاهرة مرتبطة بالأماكن التي يتم فيها الاعتقال، فالبديهي أن يكون مكان المعتقل معلوم، وكذلك تصميم بنائه ليراعي أحوال المعتقلين، والذين لا يُفترض بهم أن يكونوا أصلًا سياسيين! فالسجين من خلال الفهم البديهي لحالته، إنما هو إنسانٌ يخضع لعملية إصلاحٍ وتأهيل، أثناء تأديته فترة

---

[1] شقة الحرية، ص362.
[2] شقة الحرية، ص379.
[3] شقة الحرية، ص362.
[4] شقة الحرية، ص404.
[5] شقة الحرية، ص403.
[6] انظر، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%AD%D9%86%D8%A7_%D8%A8%D8%AA%D9%88%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AA%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%B3_(%D9%81%D9%8A%D9%84%D9%85).
[7] شقة الحرية، ص378.

عقوبة والتي تصدر وتُحدد من خلال جهة قضائية لقيامه بفعلٍ مخالف للقانون، أما ما يحدث لدى الحكومات العربية فمناقض لذلك تمامًا، لا سيما فيما يتعلق بالاختفاء القسري، وعدم معرفة الجهة التي أُقتيد إليها المعتقل، ومن هي الجهة الحكومية التي قامت بالاعتقال، وتقوم الحكومات بذلك من أجل "ردع أية ممارسة احتجاجية شرعية أو غير شرعية، فهي دعوة عامة ومفتوحة للاندماج في التراتبيات القائمة والانخراط في نسق مغلق محكوم"[1]

ولا شك أن الروايات العربية التي تخصصت بموضوع السجن فقط لم تترك شكلًا من أشكال التعذيب إلا وصورته، ولكن هذا لا يمنع من المرور السريع لتلك الأشكال المقتضبة في روايات القصيبي، فقد انقسم التعذيب عنده إلى قسمين: جسدي، ونفسي، أما الجسدي فقد مرّ عليه سريعًا، وأشكاله معروفةٌ ، أما عن ابتكاراته فلا تخطر على بال بشر، وأما النفسي، فقد تلونت وتعددت صوره، منها التهديد مثل ما حدث، في قصة عبد الرؤوف والتي كتبها مجسدًا قضية أخيه في المعتقل "– يا أفندم والله ما عملتش حاجة. – طيّب! محروس! روح جيب الكهربائي."[2] فهذا تهديد وتعذيب نفسي خطير، وأمامك خياران، أن تعترف بما لم تفعل، أو أن تتحمل لسعات الكهرباء القاتلة. هذا غير الـ"كلاب وكهرباء ومساجين يُمنعون من الصلاة"[3] وآخرون يمنعون من البول، أدنى حاجات الإنسان! "وفي المعتقل، يعتبر السماح لك بالذهب إلى الحمام كلما شئت قدرًا محترمًا من الحريّة."[4] أما ما حدث مع يعقوب فهو من أشرس أنواع التعذيب[5] ويؤوله رؤوف بأنه "أعنف بكثير من التعذيب الجسماني. التعذيب قد يثير الرغبة في العناد والتحدّي، ولكن هذا الضغط النفسي لا يثير سوى المخاوف البدائية الغريزية. هذا هو أقسى أنواع التعذيب. أؤكد لك أن أي إنسان يتعرّض له سينهار"[6] أما ما يترتب على ذلك التعذيب، فهو الاعتراف والانصياع لرغبات السجّان أنى كانت "كنت مستعدًا لأن أعترف بأي شيء. قتل جمال عبد الناصر، حرق مستشفى، نسف جسر، أي شيء."[7] وما يسببه للإنسان من أمورٍ نفسية بعد ذلك، اصطلح بروفسور العصفورية على تسميتها بـ"عقدة السجن" الأمر الذي استدعاه إلى الذهاب إلى مصحة نفسية في ريو للتخلص من أثار السجن "كنت أودّ التخلّص من عقدة السجن. –عقدة السجن؟ شو قصدك؟ – اعلم ، يا طبيب، أنه ما من إنسان يدخل السجن ويخرج منه كما دخل. من المستحيل أن يخرج صاغ سليم/ كما يقول أصدقائي المصريون. السجن يحدث آثارًا تدميرية هائلة في نفسية السجين. آثارًا غير منظورة. يكذب عليك أيّ سجين يدّعي أن تجربة السجن لم تغيّره. ولم تبقَ معه طيلة حياته ..."[8]

إذًا يصبح الإنسان نهب المشاعر المدمرة التي تعتريه خلال السجن، ولا تقف على فترة دخوله السجن، بل تلازمه طوال حياته، كل تلك العذابات التي يمارسها النظام العربي، بحق مواطنيه، وقد تجلى

[1] محمد كودي، المخزن وإشكاليات الاختفاء القسري، موقع الصحراوي الإلكتروني، 11مايو، 2017، http://www.saharawi.net/?p=21283.
[2] شقة الحرية، ص136.
[3] شقة الحرية، ص137.
[4] العصفورية، ص209.
[5] انظر شقة الحرية، ص379.
[6] شقة الحرية، ص381.
[7] شقة الحرية، ص381.
[8] العصفورية، ص218.

بعضها في روايات القصيبي، يقوم بها النظام العربي المستبد تحت حجةٍ كبيرة وهي ضرورات الأمن، وهذا ما عبر عنه بروفسور العصفورية أثناء تقمصه شخصية الديكتاتور. "أمر الديكتاتور بتعذيب المساجين. قطع الله ألسنتكم أيها الناس! هل يعرف الناس المعاناة النفسية التي يحسّها الديكتاتور وهو يأمر بالتعذيب؟! هل يوجد إنسان يحب تعذيب نظائره في الخلق؟! ولكن ضروريات الأمن فوق كل شيء"[1] كانت تلك نظرةٌ عامة مرّت بالتجليات النقدية للحكومة العربية فيما يتعلق بالسجن في روايات القصيبي، تناولت الأسباب التي يُعتقل لأجلها السياسي في البلاد العربية، والنتائج التي تترتب على ذلك الاعتقال، وبعض أنواع التعذيب الذي يلاقيه الإنسان في المعتقل.

رابعًا: التضليل "الحقيقةُ الضائعة"

كان توصيف الراوي للحالة العربية السائدة دقيقًا جدًا، وذلك مع أول احتكاكٍ حقيقيٍ لفؤاد مع العالم العربي، فمنذ أن بدأت التساؤلات المهمة تغزو ذهن فؤاد، فيما يتعلق برحلته إلى عمق الأمة العربية، جاء دور القائد، ليشتت الانتباه، وليشغل ذلك الدماغ العربي الصغير، في أمورٍ أقل أهمية مما هو فيه. "كانت الأسئلة في ذهنه لا تنتهي. ولا يعرف جواب أيّ منها. والآن يشغله قائد الطائرة بسؤال جديد. لعّل هذا هو هدف المسابقة: إبعاد الأسئلة الكثيرة المزعجة عن أذهان المسافرين ليركّزوا على سؤال واحد غير مزعج، وإن بدا غريبًا بعض الشيء: "كم تحمل هذه الطائرة من وقود؟"."[2] فما هي الفائدة المرجوة لركاب الطائرة من معرفتهم الكمية التي تحملها الطائرة من الوقود؟! وحتى الجائزة التي لم يحصل عليها فؤاد، كانت مجموعة من حقائب السفر، ولديه ما تكفيه منها، ولكن المقصود هو الانسحاب بالتفكير والأسئلة، إلى منطقة غير المنطقة التي تسيطر على تفكير الركاب، والمثل الأكبر في ذلك هو النظام العربي الحكومي، والذي ينتهج شتى وسائل التشتيت والتضليل، لإشغال الناس عن همومهم الحقيقية وقضاياهم المصيرية، ولفت أنظارهم إلى غير ذلك من الأمور التي يحددها الحاكم، والأداة الأكثر نجاعةً في ذلك، تكمن في الخطاب الإعلامي والسياسي الباهت للنظام العربي، والذي ينتهج التدليس والتضخيم والبروباجندا[3] لإخضاع الناس، وإيهامهم بأنهم لا شيء من دون ذلك النظام: "يُعامل المواطنون كأنهم أطفال عاجزون عن مواجهة الصعوبات. فبدلا من أن يُعَدُّوا لحمل مسئولياتهم، يُبعدون عنها."[4] هذا ما تتناوله هذه النقطة، تجليات التضليل الممنهج، الذي تنتهجه الأنظمة الحكومية، وتمارسه على شعوبها.

التضليل أو "الحقيقة الضائعة" وهو مصطلح دقيق المرامي، وظَّفَه الراوي في شقة الحرية. "عبر حوار بعد حوار مع نشأت، أخذت الصورة الفعلية لما يدور في مصر تتضح أمام قاسم. حدّثه نشأت عن

---

[1] العصفورية، ص227.

[2] شقة الحرية، ص17.

3 نشر المعلومات بطريقة موجهة أحادية المنظور وتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص.

[4] موريس دوفرجيه، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة: جمال الأتاسي، وسامي الدروبي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، د.ط، د.ت، ص180.

الحقيقة الضائعة في ضجيج الدعاية."[1] وقد زاد عجبُ قاسم؛ بسبب عدم تصديق أصدقائه له، واختمارهم الكبير بدعاية الدولة الناصرية وإعلامها. "لا ينتهي عجب قاسم من هؤلاء الأصدقاء. هؤلاء البشر الأذكياء المثقفين الذين استطاع ممثّل مثل أحمد سعيد[2] غسل أدمغتهم وجعلهم يصدقون كل شيء."[3] قُصفت الطائرات المصرية ودُمرت في مدرجاتها، وتهاوت القوات العربية كلها، في شتى الجبهات أمام الجيش الإسرائيلي، فيما كان يصدح صوت العرب بإذاعة بيانات النصر المجلجلة، بحنجرة أحمد سعيد! وأمام كل تلك الحقائق، بدأ الجليد الأسطوري بالانحلال عن شخصية عبد الناصر، وأخذ "إحساس غامض يتسلّل، على استحياء، إلى نفس فؤاد، إحساس بأن ما يبدو للعين من جمال عبد الناصر هو الحقيقة ولكن ليس الحقيقة كُلّها"[4] إلى أن "علمته إقامته في مصر أن الشعارات الناصرية البرّاقة لم تغيّر الظلم الاجتماعي الرهيب الذي رآه بعينه. ما الذي تغيّر منذ أيام الملكية؟"[5] وأخذ يتساءل وتنهار أمامه الأمانيُّ التي كان ينادي بها النظام الناصري "ما جدوى القوميّة العربية إذا تحولت إلى قناع تمارس الرأسمالية تحته كل استبدادها وفجورها؟"[6] كل تلك الحقائق قد تجلت شيئًا فشيئًا أمام فؤاد، وعبر عشرات الصفحات من الأحداث الروائية وليدة الواقع، لا سيما في تقنع الرأسمالية خلف قناع الاشتراكية "فقد وُجِد فنُ المشرِّعين الأرستوقراطيّين والمتفقّهين الذين أرادوا التحالف مع الديموقراطية باعتبارها واقعًا لا يمكن الالتفاف عليه."[7] فمن ينادي بالديمقراطية إلى جانب القومية، أجدر بالتصديق ممن ينادي بالقومية وحدها.

بعض سكان شقة الحرية كانوا يعلمون تلك الحقيقة، كنشأت وقاسم، فانحدارهم من عائلات غنية ومالكة، قد حجب عنهم الشعارات الناصرية، وما تنادي به من قومية عربية، وقضايا جذرية، فاهتمامهم الأول والأخير في تجارتهم، وقد كانت قبل عبد الناصر، تسير بشكلٍ مستقيم وستبقى بعده، فهم يجيدون التأقلم الظاهر مع النظام القائم، ولكن حقيقة الأمر أنهم ضد الثورات على الحكام، لأنهم بكل بساطة يعتبرون أن الحاكم الأصلي هو أدرى بأمور السياسة منهم، ولا داعي للقتل والانقلاب والثورة، فهم يمارسون دورهم وتجارتهم والحاكم يمارس حكمه، والغنيُ غنيٌّ لأنه خُلِقَ كذلك، والغنى أصلح له، والفقيرُ فقيرٌ لذات الأسباب، في المقابل هناك من يرى الحقيقة ويحاول إيصالها لغيره، ولكن لخدمة الغرض الحزبي، والدفاع عنه في المقام الأول. "عبد الرؤوف يحاول، باستماته، ان يشرح لفؤاد انه لا يرى الواقع على حقيقته بل كما يتمناه ويتوهمه. يحاول ان يبين له انه لا توجد في مصر عدالة بل حكم ديكتاتوري بوليسي غاشم"[8] وذلك نصرةً للحركة الإخوانية أكثر من أي غرضٍ غيره، وفي النهاية يتبادل كلاهما الاتهام الذي تكمن فيه المشكلة "أنت مُخدّر بدعاية جمال عبد الناصر. – وأنت مخدّر بدعاية حسن البنا."[9]

---

[1] شقة الحرية، ص51.

[2] مذيع مصري مشهور في صوت العرب في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، أعلن انتصار مصر في حرب الـ67، فاتُهِمَ بالكذب والتضليل، وعلى قوله: أن خطابات النصر كانت تأتيه من وزراء في الدولة، توفي في الرابع من يونيو للعام 2018، ويكيبيديا.

[3] شقة الحرية، ص52.

[4] شقة الحرية، ص68-69.

[5] شقة الحرية، ص195.

[6] شقة الحرية، ص195.

[7] كراهية الديموقراطية، ص10.

[8] شقة الحرية، ص270.

[9] شقة الحرية، ص216.

أما تجليات ذلك التضليل في "سبعة" فقد كانت متعددة الجوانب، وبطلها هو السياسي الوزير ريمون أبو شوكة، وقد تعددت ميادين ذلك التضليل، فتارة على الإعلام في مقابلة تلفزيونية مع الصحفية جلنار، التي يتابعها الآلاف من العربستانيين، وتارةً أخرى في مجلس النواب، وغيرها داخل المجلس الوزاري، أما ما كان أثناء المقابلة التلفزيونية فكثير، لا سيما إجابته على سؤال جلنار، الذي يحمل نبرة الاستفهام الاستنكاري، "كيف توفق كونك مليونيرًا وبين رئاستك لحزب يدعو إلى الاشتراكية ... – أنا لا أستخفّ بعقول الناس ولا أمارس النفاق السياسي. اشتراكية "حزب المساواة المطلقة" لا تتناقض مع اقتصاد السوق والمبادرة الفردية. اشتراكيتنا تقوم على ملكية الدولة للثروات الطبيعية ..."[1] فإجاباته الالتفافية والذكية على أسئلة جلنار، مليئة بالتدليس والتحايل على عقول الناس؛ للمداراة على فساده وثرائه الفاحش، الذي يتناقض مع أصول الاشتراكية! وتكتمل فصول التدليس، من خلال تحكمه بخطوط الهاتف، وبنوعية المكالمات التي سيتلقاها البرنامج، لتوجيه أسئلة الجمهور لوزير السياحة، والتي عادةً ما تكون محرجة لضيوف البرنامج، إلا أن أسئلة ريمون جاءت على هواه. "يا أخ ريمون! كان لقاؤك البارحة عظيمًا. – شكرًا يا دولة الرئيس! البركة في الاستراتيجية الناجحة التي وضعتموها دولتكم. ابتسم دولته، وقال: – والأجمل من كل شيء الأسئلة. الأسئلة العفوية! قال وزير الهاتف فجأة: – دولة الرئيس! كنت أنوي أن أثير هذا الموضوع. حدث شيء غريب في السنترال... قاطعه رئيس الوزراء مبتسمًا ...أدرك وزير الهاتف أن دولة الرئيس يريد للموضوع أن يموت."[2]وإذا أراد الرئيس للموضوع أن يموت، فيجب أن يموت، وبذلك تمر الجريمة التي قامت بها الحكومة، ويتم تفويت فرصة للمسائلة العلنية للوزير أمام الجمهور، بتخطيط حكومي متكامل بين عدة جهات؛ لإظهار صورة الوزير بشكلٍ لائق.

وأما التضليل في مجلس النواب فقد مارسه بشكلٍ موسعٍ أثناء إجابته على تساؤلات النواب[3]، وقد ورد بعض ذلك في النقاط أعلاه، وأخيرًا فإن التضليل والتدليس، قد وصل للممارسة السياسية الفعلية، ولمفهوم الشراكة السياسية. "أمضينا في جلسة التعيينات. عينّا سفيرًا من "حزب الانبعاث الديني". وسفيرًا ... سفراء! أنا أفضل أن يعمل أعضاء "حزب المساواة المطلقة" في الداخل، حيث تتخذ كل القرارات الهامة. سوف يجيء دور الحزب مع التعيينات القادمة."[4] فالظاهر أن هناك مشاركة سياسية، وفي الحقيقة أنها مشاركة هشة، فمراكز القرار والاهتمام في النهاية في يدِ حزبٍ واحدٍ مسيطر، وإن كان الباحث يعترض على المبدأ القائم على تشكيل الحكومة من الأحزاب، فإن ذلك يشبه تداعي الأكلة على قصعتها، فما الأحزاب إلا جزءٌ من شق عصا الوطن؛ بتناحرها واختلافها وتبعيتها لامتداداتها الخارجية والأيدلوجية المختلفة، التي انبثقت عنها وتشكلت بدعمها، لأجل أن يكون لها يدٌ في تحديد مصائر الشعوب، وتوازن القوى الدولية، وفي سهولة التعامل والتأثير، فمن السهل جدًا الاجتماع بقيادةِ حزبٍ ما، وإقصاء آخر، لأي الأسباب كانت، فتُشحن الأجواء وينشب الخلاف، وتتعطل الدولة. ومن السهل جدًا أن تُجمع تلك الأحزاب حول مائدةٍ واحدة، إن أخذ

[1] سبعة، ص295.
[2] سبعة، ص298.
[3] سبعة، ص300-303.
[4] سبعة، ص298.

كلٌ منهم حصته من الوطن، وما قضية فلسطين ببعيدة! فالمفترض إذًا أن تشكل حكومة كفاءات وطنية وليست حزبية، فالعقل الحزبي مؤدلجٌ أولٌ على آخر، مهما بلغت ذروة إبداعه، فإن انتماءه الأساسي للحزب وليس للوطن، ومصلحة الحزب مقدمة، وأبناء الحزب مقدمون، وسلامٌ على الدولة والديمقراطية، وهذا الأمر ينسحب على غالبية الدول العربية.

ولم يكن نصيب "دنسكو" أقل من غيرها من الروايات في التضليل، فالدعايات الانتخابية التي تمارسها القارات لمرشحيها لإدارة المنظمة، والسياسية التي يتبعها المدير التنفيذي للمنظمة، هي قمة التضليل والكذب الذي تمارسه الجهات الرسمية، ولكن مجال البحث في هذا المبحث موقوفٌ على ما تمارسه الأنظمة العربية وحكوماتها، ولعل العصفورية من الروايات التي امتلأت بهذا التضليل، لا سيما في تجارب البروفسور مع القادة الثلاثة الذي وصل بهم إلى السلطة عن طرق مساعدته وقيادته الروحية واللوجستية لتلك الثورات، فهذا صلاح الدين المنصور يحاول أن يفند ما جاء به البروفسور من معلومات، بل وما عاينه من معلومات حول الفساد الذي يُمارس في الدولة من الحكم المنصوري، فتكون إجابته بكل بساطة "هذه دعايات مغرضة، يا بروفسور، أكاذيب يشيعها الصهاينة وأيتام العهد البائد"[1] في محاولةٍ منه لتضليل البروفسور، وتزيد تلك المحاولات إلى حد البله! "نحن متمسّكون بتقاليدنا، نحن لا نزال نأكل على الأرض ونستعمل أصابعنا. نحن فخورون بأصالتنا"[2] يقول ذلك على مائدة عليها عشر طليان، وما يغيب عن الأذهان وصفه! ويدّعي أن الأصالة تكمن في الجلوس على الأرض والأكل بالأصابع، في ذات المحاولات الحكومية، لتغيير المفاهيم لدى شعوبها عن كثيرٍ من الأمور، وفي النهاية يفتخر بالأصالة العربية، التي استغلوها شرَّ استغلالٍ وضيّعوها وأفقدوها كرامتها، أما امتلاكه للمعدات العسكرية والجيوش الباسلة فقد أسهب وزير الدفاع في نظام المنصور في شرحها للبروفسور[3]، والتي إن توفرت في الحقيقة مع نواياهم الظاهرة لقُضيَ على إسرائيل، وعندما سأله البروفسور عن سبب التأخر عن ذلك، ترك المنصور لوزير الداخلية العنان في إطلاق الأسباب الخطيرة. "يا بروفسور! المشكلة هي عربستان 49 وعربستان 50، كل يوم نكتشف في بلدنا شبكة إرهابية تموّلها عربستان 49، وشبكة أخرى تموّلها عربستان 50، وهناك حشود على حدودنا مع الدولتين. في اللحظة التي نهاجم فيها إسرائيل سوف تطعننا هاتان الدولتان من الخلف وتقضيان علينا قضاءً مبرمًا"[4]

هكذا تحولت العداوة من عداوة إسرائيل إلى عداوة الدول الشقيقة، وهذا واقعٌ في الفعل الروائي والواقعي على حدٍ سواء، فقد غرر الاستعمار بهم وغرتهم أنفسهم، فعادوا بعضهم، واختلقوا لأنفسهم عدوًا خفيًّا وهميًّا، كي يضللوا به الشعوب. "لا يدركون أن هذا الخط ضعيف؛ وكثير من الناس لا يزالون يخافون "الخط الأحمر" رغم أنه وهمي؛ وهذا ما يسمح بالاعتماد عليه صرفًا للانتباه عن ظاهرات أخرى كالاستغلال الاقتصادي ومحاولات إقامة حكم ديكتاتوري وما إلى ذلك. إن الاعتماد على خطر عدو خارجي ... هو استراتيجية تستعملها جميع الحكومات منذ قرون، حتى لقد تنخرط هذه الحكومات في حرب مع العدو، تخلصًا

[1] العصفورية، 203.
[2] العصفورية، ص205.
[3] العصفورية، ص206.
[4] العصفورية، ص206.

من صراعات داخلية عنيفة"[1] ويُقصدُ بذلك الخط الضعيف، العدو الوهمي المُختلق من النظام الحاكم، وهذا ما نراه واقعًا في كثيرٍ من الدول العربية منذ سنين، فلتشتيت انتباه الشعوب، وصرفهم عن قضاياهم الملحّة، والديكتاتورية الحكومية، اختلقوا لأنفسهم العدو الموحد "الإرهاب" ولا زالت بعض الدول تحاربه إلى الآن، حتى إنه أصبح هاجسًا يلاحقهم ويلاحق شعوبهم. لم يستطيع البروفسور، أن يكتم غيظه أمام الكذب المنمق من صلاح المنصور ووزرائه. "هنا، يا حكيم، غضبت. لا تقل لي، رجاءً إني أصبت بانهيار عصبي. لا مُبرّر للمبالغة والتهويل. كل ما هناك أني لم أعد قادرًا على المجاملة. بدأت أرتجف وأصرخ: "لعنكم الله جميعًا! وأوّلكم هذا القذر صلاح الدين المنصور. أعني فاسد الدنيا المهزوم! على من تضحكون؟ عليّ؟ أو على أنفسكم؟ أو على الشعب الحمار الذي يسمح لكم بمصّ دمه؟ ..."[2] وأخذ بتفنيد كل كذبة، حتى أوقفه إطلاق النار من المنصور، والأمر باعتقاله.

وخلال مساومة البروفسور للخروج من المعتقل يعود صلاح المنصور للتضليل والكذب. "قال فخامته: "وجّهت إلى الثورة وإليّ شخصيًا الكثير من النقد. النقد الهادف البنّاء. وأنا أرحّب بالنقد الهادف البناء. لا تصدّق الإشاعات التي تقول إني أضيق بالنصيحة. ولا أتحمل الرأي الآخر. ولا أطيق المعارضة. أكاذيب يثيرها الاستعمار والصهيونية. أنا يا بروفسور، أُسَرُّ بالنقد أيّما سرور"[3] وأدل دليلٍ على سروره إطلاقه النار على البروفسور، أثناء حديثه على مائدة العشاء! يزيد المنصور من محاولاته التضليلية فيلقي اللوم على غيره. "مشكلتي هي البشر. أعيّن الرجل الصالح الذي أتوسّم فيه الخير فيتحوّل إلى رجل طالح. أعيّن النزيه فيصبح لصًّا ..."[4] والحقيقة أكبر من كونها أشخاصًا يوظفون في الدولة فيرتكبون الفساد، بل تكمن الحقيقة في النظام القائم في الدولة والذي تمارسه الثورة. "الحقيقة أن كل ثورة تؤدي مهمتها بإقرار النظام الذي جاءت لتستحدثه وليس لمجرد تسليم السلطة العليا لفرد من الأفراد."[5] وهذا ما يحدث في غالبية الثورات لا سيما في المنطقة العربية، تبديل الوجوه فقط، وتغيير الفاسدين إلى فاسدين ذوي شعاراتٍ جديدة. وطالما أن الدكتاتوريين متشابهون، فلا داعي للخوض بأساليبهم التضليلية المتشابهة، بمعنى أن ذات الأسلوب التضليلي السابق قد اتبعه برهان سرور وضياء المهتدي مع البروفسور، في ذات الرواية.

خامسًا: نقد الدبلوماسية العربية، والعلاقات الإقليمية:

لعل "حياةٌ في الإدارة" من أدق الكتب التي تناولت جزءًا من التفاصيل الفعلية، لحياة الدبلوماسي العربي، ذلك أن الروائي القصيبي قد شغل منصب السفير، لمرتين أولاهما في دولةٍ عربية، وهي البحرين، والثانية: في دولةٍ غربية، وهي المملكة البريطانية المتحدة، وقد برز تأثير كلٍ من التجربتين في الأعمال الأدبية للكاتب، لا سيما في روايته العصفورية، فها هو يخاطب الحكيم من عمق التجارب التي مرّت به.

---

[1] مدخل إلى علم السياسة، ص200-201.
[2] العصفورية، ص207.
[3] العصفورية، ص211.
[4] العصفورية، ص213.
[5] لويس عوض، أقنعة الناصرية السبعة، دار الرُّقي، بيروت، ط1، 1987، ص41.

"اعلم، يا نطاسي، أن الجنديّ يخدم وطنه ببندقيّته. والعالم بذهنه. والصحفي بقلمه. والدبلوماسي بمعدته. وتضحيات الدبلوماسيين، في هذا المجال، لا توصف، ولا تقدَّر بثمن"[1] وقد أشار إلى ذلك في كتابه حياةٌ في الإدارة. "كنت أتلقّى كل يوم خمس أو ست دعوات لمناسبات مختلفة، تصل في بعض الأحيان إلى عشر. لو كنت أستجيب لكل دعوة تصلني لدخلتُ في دوامة من الارتباطات تستنزف وقتًا يفوق الوقت الذي أقضيه في المكتب."[2] ولعل هذا ما يقصده الراوي من تضحيات الدبلوماسيين على سبيل السخرية. "آه! آه! آه لو أبصرتني وأنا أنطلق، كعاصفة الصحراء، من حفل استقبال إلى حفل استقبال، من غداء إلى غداء ..."[3] وفي "حقيقة الأمر لم أكن أقبل سوى عدد صغير من الدعوات"[4] ليبين أنه ليس الوظيفة الأساسية للدبلوماسي العربي تلبية الدعوات، ولمّا أطال الراوي في وصف الطعام الذي على الدبلوماسي أن يأكله في الولائم والدعوات، قال له الحكيم: "يكفي يا بروفسور! جعت من وصفك. لماذا لا تعتذر عن الحضور؟ أو تحضر ولا تأكل؟ – بلا صغرة، يا طبيب، هذا كلام يدل على جهل دبلوماسي مطبق. هل تعرف كم حربًا قامت بسبب اعتذار سفير عن حضور حفل استقبال؟ 5500 حرب ... "[5] وهذا الحوار الروائي نابعٌ من تجربة عملية، مع الأخذ بعين الاعتبار، الضرورات التخيلية للفن الروائي، يقول الدبلوماسي: "أذكر أن زميلًا قال لي في البحرين أنه يعتبر غياب أيّ مدعو عن حفل اليوم الوطني لبلاده. بمثابة "موقف" من دولته يجب أن يتبع "موقف" مماثل من السفارة."[6] وهذا ما أشار إليه الكاتب تحت ما يسمى بخطر الحساسية، الذي قد تواجهه الدبلوماسية. "في كل مهنة هناك خطر مهني ... خطر الدبلوماسية المهني هو الحساسية. السبب مفهوم. بعض السفراء يأخذون صفتهم التمثيلية بشكل حرفي إلى درجة تدعوهم إلى المبالغة في التمسّك بكل مظاهر التكريم"[7] فهم يعتبرون أنفسهم ممثلين عن رئيس الجمهورية، أو عن الدولة، وهم في الحقيقة كذلك، لكن لا يعني ذلك الخوض في الحرفيات والتفاصيل التي قد تخلق أزمات دبلوماسية بين الدول، التي إن تغاضى عنها الدبلوماسي، لكونها مثلًا غير مقصودة، فإن الأمر سيمر دون أي تبعات، وهذا واردٌ جدًا، وقد أشار إليه القصيبي في كتابه حياةٌ في الإدارة، خلال عمله كسفير، أنه قد حدث معه أكثر من موقف طارئ، وغير مقصود، كان سيؤدي إلى أزمات دبلوماسية! وهذا مفاده أن أي إنسان قد يُعين سفيرًا، وبوسعه أن يطلع على البروتوكول المعمول به في أي دولة، وأن يقرأ عن الدبلوماسية ما يشاء من الكتب، ولكن هل سيكون سفيرًا أو دبلوماسيًا ناجحًا، فالدبلوماسية "علم وفن وأن لا قيمة للعلم في الممارسة الدبلوماسية ما لم يرافقه الفن والمواهب والإبداع لدى الدبلوماسي"[8] لا سيما وأن "المحيط الدبلوماسي حيث يعمل، ينظر إليه على أنه إنسان كامل "وكأنه معصوم من الخطأ"، أو يجب أن يكون كذلك. الجميع ينظر بأن هذا الديبلوماسي هو من صفوة المجتمع الذي جاء منه، وأنه أفضل كادر تم انتقاؤه وبعناية، وأنه كان واحدًا من مُرشحين كُثر لهذا

[1] العصفورية، ص284.
[2] حياة في الإدارة، ص282.
[3] العصفورية، ص284.
[4] حياة في الإدارة، ص282.
[5] العصفورية، ص285.
[6] حياة في الإدارة، ص283.
[7] حياة في الإدارة ، ص282-283.
[8] محمود العجرمي، الدبلوماسية (النظرية والممارسة)، د.د، د.م، د.ط، 2011، ص9.

المنصب."[1] ولعل هذا هو المفترض لكنه غير المعمول به في بعض الدول العربية. لقد أدى القصيبي عمله على أكمل وجه، إلى أن أصبح عميد السلك الدبلوماسي في البلد التي ارتحل إليها وكانت من اختياره، وهي البحرين، ثم انتقل إلى سفارةٍ أخرى في بلدٍ أكبر، وعاد لوزارة أخرى لا تقل أهميتها عن أهمية وزارة الصحة، وهي وزارة العمل، وتوفي في منصبه في وزارة العمل. وقد مر في نقطةٍ سابقة، الاعتبار الذي يترتب عليه تعيين السفراء في "سبعة" عند الحديث عن تضليل وزير السياحة ريمون.

أما العلاقات الإقليمية التي تعرض لها الروائي في رواياته فمتعددة، يقتصر هذا المبحث على تناول إحداها، وهي قضية السفر والتنقل بين الدول العربية، فالهاجس الكبير الذي كان يعانيه فؤاد لحظة وصوله إلى مطار القاهرة، هو التأشيرة التي تُعتبر هاجس كل مواطن عربي يفكر في السفر. " – أين التأشيرة؟ – لقد قدمت من البحرين... وقاطعه الضابط: – ارجع آخر الطابور."[2] وبعد محاولاتٍ وأخذٍ وردٍ كان الحل ."تأشيرة أسبوعين. جدّدها في المجمّع. وسجّل في أقرب قسم للبوليس خلال ثلاثة أيام."[3] فلا يمكن لمواطنٍ عربي أن يأتي دولة عربية غير دولته، بدون تأشيرة، ومهما يكن، فالحل فقط في التأشيرة، وهذا ما كان يُتعب شاعر سبعة، عندما كان يتجهز للسفر لأجل حضور لقاء الشعراء. "قضيت معظم الصباح أحضّر للسفر. روتين لا ينتهي. عالم غريب مُعقّد. حتَّى الشعراء يتعرّضون للإجراءات الروتينية ... لا تخرج من بلدك إلا بتأشيرة خروج. أخرج الله أرواحهم! ولا تزور بلدًا عربستانيًا شقيقًا إلا بتأشيرة دخول. أدخلهم الله جهنم! أمة عربستانية واحدة. بألف تأشيرة وتأشيرة"[4] مرارةٌ كبيرةٌ تعتصر الشاعر كنعان، وهو يستعرض حال الأمة العربية فيما بينها، والتي يُفترض أن تكون أُمّةً واحدة. أما مفهوم التأشيرة بالنسبة للراوي فهي "شيء بذيء. شيء عاهر. وفي لقاء شعري! ألم يقل نزار قباني إن العصافير لا تطلب تأشيرة دخول؟"[5] وفي الحقيقة الواقعية إن التأشيرة كذلك.

أخيرًا يتعرض الراوي للعلاقات بين العرب وإسرائيل عبر المخابرات السرية. "جاكوبي في حقيقة الأمر ليس جنرالًا، وإن كان يُحب أن يُنادى بهذا الاسم. جاكوبي ثريّ يهودي يحمل عدة جنسيات منها الجنسية الإسرائيلية، ويقوم بمهمات كثيرة لإسرائيل من أهمّها إجراء اتصالات غير رسمية مع الحكومات العربستانية التي تودّ الاتصال بإسرائيل، وتودّ أن يظل الاتصال سرًا."[6] تلك المفاوضات التي بدأت من مصر ثم انتقلت إلى باقي الدول العربية، وحتى أصحاب الحق الضائع. "وعندما مشت مصر على طريق الاتصالات والمفاوضات السرية مع إسرائيل، وتوصلت إلى ما توصلت إليه، فإن العالم العربي الذي انفك جامعه، لم يترك للفلسطينيين خيارًا غير أن يجربوا بأنفسهم وفي أسوأ الظروف."[7] وجرب الفلسطينيون ذلك ولا يزالون في دوامته حتى اليوم وحيدين، ومن أراد أن يدخل إلى عالم السياسة الكبير، وأن يصنع مكانةً لنفسه، أو أراد أن

[1] المرجع السابق، ص27.
[2] شقة الحرية، ص25.
[3] شقة الحرية، ص25.
[4] سبعة، ص32.
[5] سبعة، ص33.
[6] سبعة، ص112.
[7] محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، دار الشروق، القاهرة، ط10، 2001، ص12.

يدخل حيز التطبيع والتفاوض مع إسرائيل، فعل ذلك باسم فلسطين وقضيتها عبر مخابراته السرية أولًا. "أودّ رؤيتك لنتباحث في قضايا هذه الأمّة التي تجتاز منعطفًا خطيرًا هذه الأيام. كما يعرف سيادتك ... هذا رجل مخابرات غير تقليدي! غداء في منزله!"[1] "يا أستاذ! أنت تعرف الظروف العصيبة التي تمرّ بها الأمة. تعرف أننا نمرّ بمأزق صعب. تعرف أن عملية السلام تترنح. – أعتقد أن عملية السلام تلفظ أنفاسها الأخيرة. – تمامًا! هذا ما قصدته. تحتضر. في هذه الأوضاع الصعبة يصبح من واجبنا جميعًا أن نشدّ أزر أشقّائنا الفلسطينيين بكلّ ما أوتينا من قوّة ... نحن عربستان x نرى أن واجبنا القومي يتطلّب منا تقديم تنازلات نيابة عن الفلسطينيين ولصالحهم ... مجرد تسهيلات تجارية. هناك، الآن، مفاوضات دقيقة وحسّاسة وسريّة، سريّة جدًا، بيننا وبين إسرائيل ..."[2] وهكذا تمارس المخابرات العربية أدوارها تحت الطاولة مع إسرائيل، على قفا القضية الفلسطينية، من خلال الأذرع المختلفة التي تتاجر بالقضية والثمن في النهاية "صافحني، وقدّم لي ظرفًا صغيرًا وهو يقول: – هذا شيء للمصاريف. نحن نعرف، تمامًا، أن المهمة تحتاج إلى بعض المصاريف. تمتمت وأنا أدخل الظرف في جيبي. – شكرًا! شكرًا! سوف أخدم القضية بكل قوتي ... داخل الظرف وجدت شيكًا بمبلغ 200.000 جنيه استرليني من بنك سويسري."[3] وهكذا تتجلى فصول المؤامرة على القضية الفلسطينية، باسم الدبلوماسية العربية، وباسم المفاوضات السرية لمساعدة الأخوة الفلسطينيين وقضية العرب المركزية أجمعين، وقد عرض القصيبي لتلك التجليات في رواياته، من خلال موقع البصير والناقد الحصيف، الذي عاين الأحداث من موقع المسؤولية عبر تنقلاته المختلفة في المواقع السياسية والدبلوماسية الاعتبارية، والتي لم تمنعه من الإمساك عن الخوض في مثل تلك القضايا الخطيرة، فقد ظلَّ الرجلُ مُلتزمًا بقضايا وهموم أمته، شاعرًا، وكاتبًا، وسياسيًّا، وعربيًّا خالصًا.

[1] سبعة، ص139.
[2] سبعة، ص150.
[3] سبعة، ص151.

المبحث الثالث: نقد المجتمعات الغربية والمنظمات الدولية:

أولًا: نقد المجتمعات الغربية:

عاش القصيبي مدةً لا بأس بها في بلاد الغرب، سواءً في الولايات المتحدة الأمريكية، خلال دراسته الماجستير، أو في المملكة المتحدة البريطانية، أثناء إعداده لأطروحة الدكتوراه، وكذلك مدةً تزيد عن العشرة الأعوام، خلال عمله سفيراً لبلاده في بريطانيا، هذا غير الرحلات والسفريات المختلفة في باقي البلدان الغربية، الأمر الذي جعله يعرف طبيعة الحياة الغربية جيدًا، وأساليب أهلها في ممارسة طقوسهم الحياتية المختلفة، مما انعكس على رواياته المتعددة، لينقد تلك المجتمعات من موقع البصير الواعي، فهو قد تعرض في بداية أمره كغيره من أدباء العرب الذين سافروا لبلاد الغرب، لما يُعرفُ بـ"صدمة الحضارة" ثم عاد لبلده ولبلدانٍ عربيةٍ أخرى، ليعود بعد ذلك من جديدٍ إلى الغرب، ويعيش فيه، ويعمل فيه، الأمر الذي خفف من وطأة الصدمة الحضارية التي تعرض لها في بداية ارتحاله، وجعله ينظر إلى الغربِ نظرةً ناقدة، وليس فقط نظرةً مأخوذةً ومسحورة.

1. نقد المجتمع الأمريكي:

وها هو راوي العصفورية يوضح للطبيب الذي يحاوره تلك النظرة. "لا أعتقد أنّنا كنّا مستغربين أو مستلبين. كُنّا طيبين ولكننا لم نكن حمقى. وكنّا أبرياء. ولكننا لم نكن أغبياء. كُنّا نرى عيوب المجتمع الأمريكي، وكُنّا نعرف أنها عيوب، ولم يخطر ببالنا غمضة عين أنها محاسن"[1] فالضمير (نا) يعود على البروفسور وزملائه العرب في ستانفورد الأمريكية، بعدما تحدث عن المحاسن الكبيرة في المجتمع الأمريكي، من الحضارة والتقدم، والوحدة بين الولايات الشاسعة، ويسر السفر بلا قيود وجمارك وتأشيرات، وسهولة المعاملات وسرعتها، ورُغم كل ذلك لم يكن وزملاؤه العرب مستلبين، والاستلاب "معناه أن يستلب الغرب روحك فتصبح دمية سليبة الإرادة"[2] بل كان يرى وزملاؤه عيوب المجتمع الأمريكي الكثيرة. وأول تلك العيوب، سيطرة اليهود على المجتمع الأمريكي. "ولم نقصّر، يا دكتور في محاربة إسرائيل في عقر دارها. وعقر دارها. هو أمريكا كما تعرف."[3] فهو يعتبر أن عقر دار اليهود هو أمريكا، "ولم نكن نصدّق كل ما نسمع عن الديمقراطية. كُنّا نرى بأعيننا سيطرة الصهاينة على الكونجرس، رغم الديمقراطية"[4] تلك الديمقراطية العلمانية التي رسّخها اليهود في الحياة الأمريكية. "ساهم اليهود في تطوير المشروع العلماني بقوة في الحياة الأمريكية في القرن الماضي، وخاصة بما يتعلق بعلاقة السلطة بالأفراد، ودور الدين في ذلك"[5] فالشاهد في الأمر، هو يد اليهود الطائلة في السياسة الأمريكية، فالسياسة الأمريكية تسيطر عليها جماعات اللوبي، وأقوى تلك الجماعات تأثيرًا هي جماعات اللوبي الصهيوني. يورد تلك المعلومة أثناء حديثه عن المثلية الجنسية في

---

[1] العصفورية، 56.
[2] العصفورية، نفسه.
[3] العصفورية، ص55.
[4] العصفورية، ص56.
[5] باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية، المركز العربي للدراسات الإنسانية، د.م، ط1، 2005، ص46.

أمريكا. "– لم تغيروا رأيكم بسبب زيادة معلوماتكم. غيرتم رأيكم بسبب ضغط الجمعيات الشاذة. اللوبيز! اللوبيز تمرح وتسرح في أمريكا. وأقوى لوبي بعد اللوبي الصهيوني ولوبي البنادق هو لوبي الشاذّين"[1] فاللوبي الأقوى في أمريكا هو اللوبي الصهيوني، الذي يقرر ما يشاء في الكونغرس الأمريكي، على عكس المجتمعات الأوروبية التي قد تهادن اللوبي الصهيوني لخشيته، بينما المجتمع الأمريكي يتعامل مع اللوبي الصهيوني بقناعة تامة! فالمجتمعات الأوروبية "وإن كانت تخشى من سلطة اللوبي الصهيوني فتهادنه خوفًا وليس اقتناعًا، بينما نجد التيار اليميني الأمريكي يفهم الموقف الإسرائيلي بشيء من القناعة؛ إضافة إلى الخوف من الضغط السياسي أيضًا."[2] إذًا فالمجتمع الأمريكي بشكلٍ عام هو مجتمع قائم على جماعات اللوبي المختلفة "ويأتي بعده لوبي جماعتكم الأطباء. بإمكان أمريكا أن تخرّج أضعاف الأطباء الذين يتخرجون الآن. المقاعد موجودة والأساتذة موجودون والمختبرات جاهزة. ولكن لوبي الأطباء يمنع من تدريب المزيد من الأطباء. أتركوا أمريكا ترسل الأطباء للعالم، يا حكيم، بدلًا من إرسال مارينز"[3] فهو يخاطب الحكيم على اعتبار أنه طبيب يتبع للوبي الأطباء، ويدعوه بأن يدعو أمريكا لترسل الأطباء للعالم، بدلًا من إرسالها القوات العسكرية المارينز، التي تحمل الموت والدمار والخراب، ولكن كيف تفعل ذلك أمريكا، وفي الأساس التكويني لها أنها مجتمعات قامت على العنف والقتل؟! "طارد الشعب الأمريكي السعادة. عن طريق إبادة الملايين من الهنود الحمر. وإعطاء كل مغامر مهاجر آلاف الفدادين المسروقة منهم"[4] وظلت تلك الطريقة القائمة على العنف والقتل تطارد الأمريكان حتى وقتنا الحالي. "أعظم المجتمعات عنفًا في التاريخ. أكثر من مائة مليون أمريكي يملكون السلاح. الشعب ترسانة. وأكثر من مليون أمريكي وراء القضبان ... حمل السلاح حق دستوري من حقوق الشعب الأمريكي"[5] لتصبح تلك المشكلة ملازمة للشخصية الأمريكية على امتداد الزمن. "ومضت القرون، ولم تحل مشكلة النهم في استخدام القوة واتخاذها الوسيلة المثلى لحلّ كل المشكلات. أصبح امتلاك السلاح واستخدامه وسيلة لحلّ المشكلات عادة أمريكية تأصلت؛ حتى أصبح عدد قطع السلاح في الولايات المتحدة يتجاوز عدد البالغين من السكان، وأصبح العنف نموذجًا للحياة في بلاد الحضارة."[6] حتى إن ذلك الأمر قد انعكس على تربية الأطفال الصغار "الطفل، منذ الدقيقة الأولى في المدرسة، يجب أن ينافس أقرانه. وهذا يعني أن يضربهم قبل أن يضربوه."[7] وهذا ما يفسر الإحصاءات المخيفة للقاصرين الذين يموتون بسبب السلاح سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

يبدأ الراوي في نقد العادات الأمريكية المختلفة: "ولا كُنّا معجبين بالعادات الأمريكية. كنا نكره على وجه الخصوص، تلك العادة الأمريكية القذرة: تصويب قاع الحذاء إلى وجه المخاطَب."[8] ويبدو أن تلك الملاحظة الدقيقة للراوي، تنسحب على قيادة الشعب الأمريكي قبل المواطنين، فالمراقب لخطابات ولقاءات

[1] العصفورية، ص44.
[2] الشخصية الأمريكية، ص96.
[3] العصفورية، ص44
[4] العصفورية، ص146.
[5] العصفورية، ص146.
[6] الشخصية الأمريكية، ص81.
[7] العصفورية، ص147.
[8] العصفورية، ص57.

الرؤساء الأمريكان، يعي ما يقوله الراوي، من الاستخدام المقصود للغة الجسد؛ للحط من قيمة النظراء، وإشعارهم بالسيطرة الأمريكية المفروضة عليهم، والتبعية لها بطريقةٍ غير مباشرة.

ومن العادات التي يستغربها الراوي في الشعب الأمريكي، "سماح الرجل للمرأة أن تدفع حسابها في المطعم أو المقهى وهي في ضيافته" ويمضي الراوي في استعراض العادات الأمريكية التي يكرهها. "كنّا نشمئزّ عندما يطلب الزبائن من الجرسون أن يأتي ببقيّة الدجاجة أو قطعة اللحم ملفوفة في كيس. يتظاهر الجميع أنَّ ما في الكيس للكلب، ويعلم الجميع أنَّ ما في الكيس للزبون." "كنا نمتعض من التبسّط الذي يسمح للولد بمناداة أبيه باسمه الأول. ولم نكن نفهم أن تطلب الأسرة من هذا الطفل الصغير، نفسه، الاعتماد على نفسه بمجرد بلوغه سن السادسة عشرة."[1] وبعد ذكره لبعض العادات السيئة التي يرفضها في أمريكا، ينتقل إلى موضوع آخر "كُنّا نحتقر بقية جامعات أمريكا، ونحتقر جامعات كاليفورنيا على وجه الخصوص، ونحتقر يو. إس. سي. بصفة أخصّ. جامعة الأغنياء والمرفهين والمدلّلين ولاعبي كرة القدم ... جميع طلابها وأساتذتها رجعيون. لم يعرف بينهم ليبرالي واحد ... أما في بقية الأقسام فتنجح إذا كنت تدفع بالتي هي أحسن."[2] وصل النقد إلى جامعة هارفرد. "وهارفرد، كأيّ مكان آخر على هذه البسيطة، لا ترفض الوساطات. خصوصًا، إذا جاءت مشفوعة بتبرع مقداره 5 ملايين دولار ... وهارفرد لم تصبح أغنى جامعة في العالم باتباع الطهارة الثورية"[3] ينتقل بعد ذلك إلى القانون المطبق في أمريكا "شو صار في المحاكمة؟ – ما يحدث، عادة، في أمريكا إذا كان المحامي ذلق اللسان. أقنع المحلّفين أنها مضطربة نفسيًا، وبدلًا من إرسالها إلى السجن، أُرسلت إلى المصحّة لتُعالج على نفقة الولاية."[4] فمديرة المدرسة التي أفسدت أجيالًا من الشباب الصغار وأسقطتهم في الجنس، على مدار 20 سنة تنجو من العقاب لأن المحامي ذلق اللسان، الأمر الذي يثير عجب وغضب الراوي في ذات الوقت ليتهم الحضارة الأمريكية بأنها "حضارة متفسّخة تمامًا، يا طبيب. متفسّخة جنسيًا"[5] ثم ينتقل إلى مجالٍ آخر وهو المخدرات المتفشية في المجتمع الأمريكي، ويرمز لها الراوي بالفاليوم. "وعدد الذين يتعاطون الفاليوم وغيره من المهدئات عدد محترم. في أمريكا، واحد من كل ثلاثة يتعاطى هذه المهدِّئات، وفي أوروبا واحد من كل أربعة."[6] ولم يتوقف الأمر على الأشخاص العاديين، بل تعداهم ليصل إلى الطيارين والأطباء![7] ويمضي البروفسور في أوجه نقده المختلفة للمجتمع الأمريكي، في مجال القضاء، والصحافة، والفن، والتجارة، والرشوة، والتفرقة العنصرية التي سيأتي الحديث عنها في نقطة منفردة عند الغرب بشكلٍ عام، وعندما ظن الطبيب أن البروفسور بدأ يكره الغرب، بعد موجة الانتقادات التي ساقها أثناء حواره، سأله: هل هذه الانتقادات، هي بداية كرهه للغرب؟ أجاب البروفسور: "لا! لم أبدأ في كره الغرب. بدأت أتعرّف على جوانب من الحضارة الغربية لم ألاحظها من قبل"[8] ولكن الهجوم استمر مما دفع

[1] العصفورية، ص57.
[2] العصفورية، ص71.
[3] العصفورية، ص256.
[4] العصفورية، ص104.
[5] العصفورية، ص109.
[6] العصفورية، ص154.
[7] العصفورية، ص10.
[8] العصفورية، ص108.

الطبيب للسؤال من جديد: "شوها الهجوم ع أمريكا، يا بروفسور؟! – هذا ليس هجومًا. هذا تحليل موضوعي هادئ. أمريكا بلد العنف المُسمّى منافسة."[1] بلدٌ قائمةٌ على المكاسب المادية، قصرت مفهوم السعادة على الماديات. "وما هو التعريف الأمريكي؟ السعادة هي النجاح المادي الذي يحققه الإنسان عن طريق المنافسة. أعني عن طريق المعافسة."[2] وارتبط الاقتصاد فيها بالوهم والدعاية "خدّروا الفرد الأمريكي بوهم تحسين الذات. لو زال الوهم لتوقف الاقتصاد الأمريكي فورًا"[3] هكذا تناول القصيبي المجتمع الأمريكي، في روايته العصفورية، نقدها نقدًا هادئًا، بناءً على مشاهداته في عالم الواقع، ممتزجًا في خيال الروائي البصير.

2. نقد المجتمعات الأوروبية:

لم تختلف المجتمعات الأوروبية كثيرًا عن المجتمع الأمريكي، إلا أنها تبقى من جهةٍ ما أخف انتقادًا في نفس الروائي من المجتمع الأمريكي، وذلك يتضح من خلال حدة النقد الذي تعرضت له في رواياته المختلفة، بالمقارنة مع المجتمع الأمريكي.

الهجرة إلى الشمال بالنسبة للراوي سبيل لجمع المال بأي طريقٍ كانت "قررت الهجرة إلى الشمال[4] لجمع المال عن طريق تأليف القصص البوليسية المحشوّة بالفضائح الجنسية، أو طبع صحيفة مهاجرة من صحف الابتزاز."[5] الفضائح الجنسية والابتزاز وسيلتان ناجعتان لجمع المال، وكلاهما مشروعةٌ في الغرب وأمريكا، ولا يتعرض لمسائلة قانونية بسبب ذلك، بدعوى الحرية والرأس مالية، "كنت أوّل صحفي يؤسّس ما سُمّي فيما بعد الصحافة المهاجرة. أما اليوم فهناك جريدة جديدة كل يوم. لكل حكومة جريدة. ولكل معارضة جريدة، ولكل رجل أعمال جريدة."[6] ففي ذلك استغلال للحرية الغربية في صناعة الإعلام وأي إعلام؟ الذي يتحكم في ضخ ما يشاء من شائعات في المجتمعات، وبث ما يشاء من سموم، لتدمير المجتمعات العربية خاصة، وفي النهاية من يدير كل هذا المسميات المضللة؟ "خرجت وكتفي على يد صديقي عدنان شهوان. تبادلنا آخر طرائف العربستانيين ونحن في الطريق إلى بار "وايت سوان" حيث نلتقي بمندوب السفارة الإسرائيلية في اللقاء الشهري المعتاد."[7] فقد أطلقت تلك المجتمعات يد اليهود فيها، ومتعتهم بحريةٍ ليبثوا سمومهم عبر عبيد المال من العرب وغيرهم.

ولعل المملكة البريطانية قد حازت على مساحةٍ أكبر من النقد، بالنسبة للبلاد الأوروبية الأخرى؛ بسبب إقامته الكبيرة فيها، والتي تبقى رغم ذلك مساحة متواضعة بالنسبة للنقد الذي وجهه الراوي للولايات المتحدة الأمريكية. "قيل الكثير، يا طبيب، عن لندن نثرًا وشعرًا ... المقامر لا يرى في لندن إلا عاصمة القمار. وصاحب الخيار الجنسي البديل لا يعرف من لندن سوى حانات الشّاذّين. والزاني يعتبر لندن أجمل تجمع عهري على ظهر الكوكب. بعكس الذي يجيء لندن بحثًا عن المعرفة. هذا لا يرى من لندن إلا

[1] العصفورية ، ص147-148.
[2] العصفورية، ص148.
[3] العصفورية، ص151.
[4] إشارة إلى رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح.
[5] العصفورية، ص119.
[6] سبعة، ص108.
[7] سبعة، ص154.

متاحفها ومكتباتها ..."[1] فهو يثبت للندن كل شيء، بخيره وشره، ويبين أن من يبحث عن شيء في لندن مهما كان، سوف يجده، فهي ضمن بلاد الحرية الغربية الكبرى، حتى أن الراوي نفسه قد رأى لندن بطرق مختلفة! "لندن، يا صديقي الطبيب، مدينة غريبة جدًّا. جميلة جدًا وقبيحة جدًّا. وديعة جدًا وعنيفة جدًا. حضارية جدّا وبدائية جدًا ... أمّ التناقضات والمتناقضات"[2] فهو لا يستطيع أن يجد توصيفًا ثابتًا لتلك المدينة، المتناقضة، وقد بلغ العجب أوجه في رواية سبعة من تصرفات البريطانيين. ""غرفة العمليات" هي الاسم الحركي لغرفة التنصّت. في الغرفة أجهزة لمراقبة التليفونات النقّالة. وقد اشتريتُ هذه الأجهزة، جهارًا نهارًا، من متجر في لندن، اشتريتها بشرط ألا استعملها. ما أظرف البريطانيين! شراء أجهزة التنصّت قانوني واستعمالها ضد القانون. أصبحتُ بريطانيًا بالتجنس ولا أزال عاجزًا عن فهم هؤلاء القوم."[3] وهذه النظرة قد انتقلت معه في رواياته المتعددة.

تشترك العديد من نقاط النقد بين المجتمعات الغربية، فهي مجتمعات مبنية على حضارة متفسخة جنسيًا على رأي الراوي، فهو يتعرض لنقطة اللقطاء في الغرب. "انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال؟ صحيح! ولكن ثلث الأطفال في الغرب، الآن غير شرعيين. أولاد حرام! يربيهم الأب وحده أو الأم وحدها. أي مستقبل ينتظر هؤلاء الأطفال؟"[4] ويعتبر صحفي سبعة أن هذا الأمر اعتياديٌّ في المجتمعات الغربية "وهناك همس عن فضيحة لم تثبت، بشكل نهائي بعد، عن وزير تبين أن له ابنتين غير شرعيتين. وما الجديد في ذلك؟ ثلث المواليد هنا أولاد حرام. ولا أحد يخجل من ذلك."[5] إن هذه من أكثر النقاط الحساسة والمنتشرة في الغرب، إضافة إلى قضية المخدرات. "كانت يتيمة من عائلة فقيرة. وكان عمها يبيع المخدرات ويستعين بها لإيصال البضاعة إلى الزبائن. ثم قبض عليها البوليس. ودخلت السجن. وهناك قضت 3 سنوات تعرضت خلالها للاغتصاب أكثر من 70 مرّة."[6] فهذه فتاة في بلاد الغرب، بلاد الضمانات وحقوق الإنسان، تُستغل حاجتها للعمل في المخدرات، وتضطهد في السجن وتغتصب، فبدلًا من علاج المشكلة ابتداءً، تُترك لتتراكم، وتُسجن، لتكتمل فصول الجريمة. ومن شدة انتشار المخدرات في الغرب يقول البروفسور: "توصّل حكماء الغرب إلى أن الوسيلة الوحيدة لمقاومة هذه العصابات هي إباحة المخدرات"[7] لدرجة أنها قد تُمدد مع شبكات الكهرباء والماء للبيوت! وفي هذا انتقاد صارخ لحضارة الغرب الممتلئة بالفساد. يلتفت الراوي كذلك إلى بعض مظاهر فساد الحضارة الغربية كعدم الغيرة على العرض "رفعتُ رأسي فإذا باللورد نكنوكستر على حصانه الأسود يتأملنا، ثم يقول لزوجته وهو يضحك: "أرى، يا عزيزتي، أنك تعرفت على البروفسور!"[8] فهذا اللورد نكنوكستر يجد زوجته مع البروفسور في وضعٍ لا أخلاقي، ومع ذلك لم يغضب ولم يستنكر الأمر أصلًا، حتى أن الحكيم يستغرب فيؤكد له البروفسور أن هذا ما حدث. ويكمل في ذات القضية حيث إنه قد ورد فيما

[1] العصفورية، ص169.
[2] العصفورية، ص167.
[3] سبعة، ص119.
[4] العصفورية، ص149.
[5] سبعة، ص119.
[6] العصفورية، ص221.
[7] العصفورية، ص256.
[8] العصفورية، ص189.

سبق رأي البروفسور في التفسخ الجنسي للحضارة الغربية، فمن الغرابة الجنسية لديهم، ممارسة الجنس مع الحيوانات! "كنت أحضر ندوة علمية موضوعها: "الجنس بين الحيوانات والبشر: نحو تفهّم أفضل". لم أكن لأضيع وقتي في مؤتمر كهذا لولا أن مريضًا من مرضايَ انتحر بعد أن ماتت كلبته التي كانت تشاركه الفراش"[1] وذلك كله في إطار الحرية الجنسية، وأن الشذوذ الجنسي لا يُعتبر فعلًا فاضحًا بالنسبة لحضارة الحرية الغربية. "فضيحة عن عضو في مجلس العموم ينام مع سائقه. وما الجديد في ذلك؟ كل الناس في هذه المدينة ينامون مع كل الناس. الرجال مع النساء. والرجال مع الرجال. والنساء مع النساء. لو كان أخونا ثريًّا عربستانيًا لاختلف الأمر"[2] وبذلك يكون الراوي قد أوضح بشكلٍ دقيق ما تمر به الحضارة الغربية من تفسخ جنسي.

في النهاية تكمن حقيقة الغرب في مثالٍ يختاره الباحث من رواية دنسكو، "– نوبل! نوبل! مخترع الديناميت! جامع الملايين من مذابح البشر. يدمّر كل الناس ثم يحاول التكفير عن جرائمه بجائزة."[3] فالمختصر المفيد يكمن في هذه العبارة حول حضارة الغرب، يدمرون الدول بالحروب، ويشردون شعوبها، وينهبون خيراتها، وكل ذلك باسم الحرية والديمقراطية والإنسانية، ثم يودون التكفير عن خطاياهم بأساليبهم المختلفة، تحت مسمى التنمية!

3. العنصرية:

لاشتراك أمريكا وأوروبا معًا في هذه الخصلة الظالمة؛ تم وضعها في نقطةٍ واحدة، لتظهر تجلياتها في روايات القصيبي، فقد عانى العالم البشري من هذه النظرة الفوقية على مدار عشرات القرونٍ، منذ فجر تاريخ الحضارية البشرية.

يقول بروفسور العصفورية مسجلًا تجربته في الولايات المتحدة الأمريكية: "وكنّا نرى كيف كان الزنوج، الذي كانوا يُسمَّون أيامها الملوّنين، يُعاملون في المجتمع الأمريكي الديمقراطي."[4] "ولم نكن نؤمن أن أمريكيا هي اليوتوبيا الأرضية. لم نجد الضيافة الحارّة في كل بيت ... معظمنا كان يصنّف في خانة الملوّنين. أو المكسيكان، وهذه خانة أرقى من الملوّنين بملم واحد. ولم نكن نعتقد أن الرأسمالية نظرية نازلة من السماء. كنا نرى بأعيننا الملوّنين يبحثون في صناديق القمامة عن طعام وعن ملابس. كنا نرى المشهد كل يوم."[5] فمن أعطى الحق للشعب الأمريكي وساسته بتصنيف الناس، إلى طبقات وأنواع وألوان، ويعاملونهم بناء على تلك التقسيمات، فأصحاب البشرة السوداء يبحثون عن طعامهم في صناديق القمامة! وحقوق الإنسان أصبحت مقصورة على البيض دون غيرهم من الناس "اسمع أيها المدبغ ! حقوق الإنسان لا تنطبق إلّا على الإنسان الأبيض"[6] وفي ذلك دلالة على العنصرية المتأصلة في تلك المجتمعات، فهي قامت

[1] سبعة، ص175.
[2] سبعة، ص119.
[3] دنسكو، ص101.
[4] العصفورية، ص56
[5] العصفورية، ص57.
[6] العصفورية، ص125.

على استعباد الناس أصحاب البشرة غير البيضاء، حتى إن الراوي قد وقع في ذلك الأمر عندما كان يعتقد أن الجمال مقصور على البيضاوات دون السوداوات "لم أكن أتصور أن بوسع امرأة سوداء أن تكون بهذا الجمال. أنا عنصري كما تعرف. ولكن عنصريتي متطوّرة. تتجاوز الألوان. عنصريتي تكره كل الألوان، وكل الأجناس، وكل الناس."[1]

وقد تجاوزت العنصرية الغربية الألوان، لتصل إلى الأعراق أيضًا. "ألا تعرف الكره العرقي الذي يواجهه العرب في فرنسا؟ ألا تقرأ الجرائد؟ إذا تحجّبت فتاة عربية فصلوها من المدرسة. وإذا جاء عامل عربي يطلب رزقه أغرقوه في السين."[2] ولا زالت هذه المظاهر موجودة حتى الآن في الغرب، ولا سيما في فرنسا، وتتجدد باستمرار، لتبقى غالبية الشعارات الإنسانية التي تساوي بين البشر حبرٌ على ورق، فقد صنفوا العالم إلى عوالم ثلاث، وبطبيعة الحال، هم في العالم الأول، ونحن العرب في العالم الأدنى، الثالث، النامي، المتخلف، عنصرية حتى في المسميات.

وتستمر هذه النظرة في مختلف الأماكن حتى في أماكن العلاج والمستشفيات! فهذا الدكتور النفسي جونسون يعمل عمل المحقق العسكري، مع البروفسور لأنه عربيٌّ متهم بقتل أمريكية، بدلًا من أن يعامله كإنسان مريض! "لقد قتلت سوزي الأمريكية اليهودية أيها العربيّ القذر!"[3] فهي أمريكية ويهودية، والأمريكية من أرقى البشر واليهودية من شعب الله المختار، وأنت عربيٌّ قذر، ويبدو بالنسبة لكثيرٍ من أمثال الدكتور جونسون أن صفة القذارة ملازمةٌ للعروبة، فهذا أستاذ الفرنساوي في شقة الحرية، يتساءل عن جنس فؤاد وعبد الكريم ما هم؟ "– انتو بني آدم ولّا حمير؟!"[4] وفي سبعة يُعد العرب أميين وجهلة وبدائيين، في مقابل الجنس الشمالي الراقي الفريد! "هذه إدارة فرنجية، بمبادئ فرنجية، بميثاق فرنجي، أجندة فرنجية، وليس المنطق أن نتركها تحت رحمة الأميّين والجهلة والبدائيين ..."[5] هذا حديث المدير التنفيذي عن بني قومه لإقناع مستشارته الفرنجية بما يريد، فهو يعرف على أي وترٍ يلعب، ويعرف الطريقة التي يفكر فيها الفرنجة، وكيف ترانا الفرنجة كعرب.

لم يتوقف الأمر على ذلك فحسب، بل هم يريدون أن ينفوا عن العرب صفة الديانة السماوية، بأي طريقٍ كانت، ويبينوا أنهم ليسوا أتباع دينٍ سماوي، بل أتباع رجل! لذلك كان الدكتور العنصري جونسون يخاطب البروفسور بلفظة "محمديّين." "أنتم المحمديّين...". "عفوًا نسمّي أنفسنا مسلمين"[6] ويعود لذات الوصف، رغم أن البروفسور قد نبهه ورفض وصفه للمسلمين بالمحمديين "أنتم المحمديّين...". "سبق أن قلت لك إننا نسمّي أنفسنا المسلمين"[7] وهذا يدل على العنصرية المتأصلة في نفس الدكتور جونسون والذي يمثل جماعةً كبيرةً في الغرب، لدرجة أن مستشرقيهم وعلماءهم قد اجتهدوا اجتهادًا كبيرًا ليحطوا من قدر الإسلام

[1] العصفورية، ص231.
[2] العصفورية، ص39.
[3] العصفورية، ص75.
[4] شقة الحرية، ص283.
[5] دنسكو، ص52.
[6] العصفورية، ص87.
[7] العصفورية، ص88.

ويشوهوه. "هذا الحديث يا ابني شغل المستشرقين الشاغل. ألّفوا عنه الكتب. ولا يزالون يثيرون الشبهات عن طريقه. هذا سبب غضبي. بحثوا في هذا الحديث وكأن كتب السنّة المطهرة لم تحو غيره"[1] فهذا حديث الشيخ أبو زهرة بعد هدوئه من انفعاله بسبب سؤال فؤاد عن حديث الذباب إذا وقع في إناء أحدكم، فالشيخ يبين أن المستشرقين يحاولون النيل من الإسلام من خلال هذا الحديث، ثم يبين التأصيل الشرعي للقضية، بطريقةٍ فقهيةٍ سليمة، وسطية ومقبولة.

كانت تلك من أوجه العنصرية المختلفة التي تواجه، البشر في الغرب، أو حتى في بلادهم من المحتل الغربي إما بسبب ألوانهم وأشكالهم، أو بسبب أعراقهم وأصولهم، وأخيرًا بسبب دياناتهم، الأمر الذي يثبت زيف الشعارات الغربية التي تنادي بالمساواة بين الناس، ولا أدل على ذلك من الواقع، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الكثير من الدول الغربية لا سيما الأوروبية بدأت بالتخلي عن تلك النظرة، وأصبحت تحوي العرب والمسلمين الهاربين من بلادهم بسبب ويلات الحروب، وتعاملهم كبشرٍ أولًا وأخيرا، وتعطيهم جنسيات مواطنيها الأصليين.

4. أسلحة الدمار الشامل:

نقطة أخرى يشترك فيها الغرب بمختلف أطيافه، وتنسف الإنسانية التي ينادي بها، إنها أسلحة الموت الشامل، لقد حاول البروفسور أن يمتلك العرب قنبلةً ذرية، مثلهم مثل باقي الدول الكبرى في الغرب والشرق، وحتى دولة اليهود الصغيرة، فليس من العدل أن يكون مشروعًا لكل أولئك امتلاك قنبلة نووية، والعرب ممنوع عليهم ذلك، فبدأ رحلته بين تلك الدول ليحصل على تلك القنابل، ولكنها باءت بالفشل، وقد بيّن خلال حديثه حول رحلته بين الأمم الكبرى لامتلاك تلك الأسلحة، العديد من القضايا، كسباق التسلح لامتلاك القوة التدميرية الهائلة "السوس! متخلّفون في كل شيء. كانوا خلفنا في صناعة الأسلحة الذريّة وهم الآن خلفنا في تدميرها. اذهب إليهم فقد تجد بعض القنابل معروضة للبيع"[2] فالمتحدث هو الأدميرال الأمريكي، وبالتالي فهو يقصد بالسوس الروس، ومعروف ما كان بين المعسكر الأمريكي الرأس مالي، والسوفييتي الاشتراكي، من سباق لامتلاك أسلحة الدمار التي أدت إلى حروبٍ عالميةٍ طاحنة.

وعندما توجه البروفسور للصين التي لا تربطها علاقة جيدة بأمريكا، لم توافق على إعطاء البروفسور قنابل ذرية. "اعلم يا ولداه، أن الحرب شرٌّ ودمار. والأسلحة هلاك وفناء. واعلم أنَّ الإشعاع الذريّ يلوّث الجو. ويهدّد غطاء الأوزون. ويغضّن وجوه الصغار والكبار. وقذف الآخرين بالقنابل الذريّة يؤذي مشاعرهم ويجرح عواطفهم ..."[3] وكأن تلك الأضرار وغيرها للأسلحة الذرية لا تكون فعالة إلا إن كانت في أيدي العرب! وينسى الجنرالات والنواب الذين توجه إليهم البروفسور ما أحدثته أمريكا من موتٍ ودمارٍ هائل، في مدن اليابان باستخدامها السلاح النووي، في الحرب العالمية الثانية. "خذ ما حدث في هذا القرن، القرن الذي بلغ فيه التطور ذروته. بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، سقط أكثر من 70 ملون إنسان

[1] شقة الحرية، ص282.
[2] العصفورية، ص128.
[3] العصفورية، ص130.

قتيلًا."[1] ومن هؤلاء السبعين مليون في الحروب العالمية الأولى والثانية، ونصيبٌ كبيرٌ منهم للولايات المتحدة الأمريكية . "وفي الحرب العالمية الثانية فوجئ العالم باستخدام سلاح فتاك جديد وهو السلاح النووي إذ قامت القوات الأمريكية بإلقاء قنبلتين ذريتين على كل من ناجازاكي وهيروشيما اليابانيتان لتضعا حدًا للحرب. ولقد عانى سكان هاتين المدينتين من ويلات هذا السلاح"[2] تلك الويلات التي لا تشبهها أي ويلاتٍ من ويلات الأسلحة المعروفة قبل ذلك لدى العالم الغربي الحرّ، ولا لدى الشرقي الرجعي، إذ كانت نتائج استخدام ذلك السلاح مخيفة وهائلة. "فعند الانفجار أصيب آلاف الأشخاص في تلك المدينتين من تأثير الانفجار والحرارة المرتفعة والأشعة المدمرة الناتجة عن انفجار القنابل الذرية، فقد توفي (180.000) شخص في مدينة ناجازاكي وحدها فور الغاء[3] القنبلة ولم يقتصر تأثير هذا الانفجار على السكان عند هذا الحد إذ تعدته إلى الآثار المتأخرة والتي منها التشوهات الخلقية والسرطانات."[4] بذلك وصلت أمريكا إلى المركز الأول عالميًا، وتحصلت على دفة القيادة، ولم يتم ذلك إلا بذات الطريقة التي نشأت فيها ابتداءً، على الجثث المحروقة، وقطع الأعناق، منذ الهنود الحمر، وحتى الإبادة الجماعية باستخدام الأسلحة الذرية في الحرب العالمية.

وعندما أراد البروفسور أن يعدم المرتشين في خطوته التاريخية، كانوا كُثر جدًا، فبحث عن طريقةٍ سهلةٍ للتخلص منهم دفعةً واحدة، فكان المقترح أن يستخدمَ الغازات السامة. "كلّمت الأمم المتحدة وطلبت السكرتير العام ... سيدي كبير البطارسة! أرجو استصدار قرار من مجلس الأمن الأفخم يتضمن السماح لي باستخدام الغازات السامة لمرة واحدة فقط وذلك لإعدام نصف مليون بيروقراطي مرتشٍ"[5] وفي هذا نقدٌ ساخرٌ وجليٌّ لمجلس الأمم المتحدة، وكل الهيئات الأممية، التي قد تسمح لأي حليفٍ باستخدام ما يشاء من الأسلحة، أو تغض الطرف عن ذلك، وأقرب مثال على ذلك ما عاشه الفلسطينيون في غزة عام 2009 بعدما استخدمت قوات الاحتلال الإسرائيلي سلاح الفسفور الأبيض، ذلك الغاز الحارق الرهيب، وقد تعالت الدعوات لمنع إسرائيل من استخدامه، ومقاضاتها، لكن الفيتو الأمريكي دائمًا يقف بالمرصاد، والحماية الأمريكية لإسرائيل تخولها أن تفعل ما تشاء، لذلك إسرائيل حصلت على الأذن، ولمّا يحصل عليه البروفسور، وبالمناسبة، أول من استخدم هذا السلاح هي الولايات المتحدة الأمريكية، في فيتنام، ثم في العراق. وعند رفض السكرتير العام السماح للبروفسور باستخدام الغازات السامة، "فكّرت باستخدام المبيدات البرتقالية التي كان أصدقائي وأصدقاؤك الأمريكان يستخدمونها في تدمير غابات فيتنام"[6] فقد كانت أمريكا تستخدم ما اصطلح على تسميته بـ"العامل البرتقالي" وهي المبيدات السامة التي استخدمتها في حربها ضد فيتنام، والتي أدت إلى مئات الآلاف من الضحايا، وولادة مئات الآلاف من الأطفال المشوهين.

ومعروفٌ وثابتٌ الاستخدام لتلك الغازات القاتلة من الولايات المتحدة، وباقي الدول الكبرى. "أصبحت هنالك أعداد كبيرة من الغازات التي تم اكتشافها والتي تفوق غاز الكلور في سميتها وقدرتها على الفتك، فقد

---

[1] العصفورية، ص148.

[2] منيب الساكت، وآخرون، أسلحة الدمار الشامل "الكيماوية – البيولوجية – النووية"، دار زهران للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2010، ص9.

[3] إلقاء.

[4] أسلحة الدمار الشامل "الكيماوية – البيولوجية – النووية"، ، ص9-10.

[5] العصفورية، ص224.

[6] العصفورية، ص225.

تم إدخال غاز الفوسجين وغاز الخردل ومجموعة كبيرة من غازات الأعصاب وغيرها الكثير من الغازات السامة. كما أدخل تعديل ملحوظ في طريقة حمل هذه المواد الكيماوية ونشرها."[1]ويشير البروفسور إلى المذابح التي تُرتكب بحق المسلمين، من الجيش الصربي، والتهاون الدولي في التعاون مع مثل تلك المذابح، والتي لو ارتكب عُشرها عربيٌّ أو مسلم؛ لقامت الدنيا ولم تقعد! "خاطبت الجهات المختصّة، وتبيّن أن آخر ما لديها من هذه المواد تسرّب إلى زعيم الصرب في البوسنة. هاتفت زعيم الصرب في البوسنة ... قال: "هل المجرمون مسلمون؟" قلت: "نعم. من أهل القبلة". قال: "سوف أرسل لك فورًا 50.000 مناضل صربي يغتصبونهم جنسيًا" قلت: "سيّدي الطبيب النفسي الشاعر المفضل! هؤلاء رجال!" قال: "نحن متخصّصون في اغتصاب جميع المسلمين جنسيًا، نساءً ورجالًا، شيوخًا وأطفالًا، وأجنَّةً في الأرحام". قلت: "لله دركم! ودرّ النظام الدولي الجديد الذي أطلقكم من قمقمكم"[2] "أعطيني مهلة أسبوع. فرق الإعدام مشغولة الآن، بتصفية 100.000 طفل مسلم"[3] فالراوي يعرّي النظام الدولي الذي يسكت عن الإبادات الجماعية، التي لازالت تُرتكب في حق المسلمين، في أماكن مختلفة من هذا العالم، وفي القرن الحالي، وكل ما يأخذه الأبرياء من تلك الأنظمة العالمية والمؤسسات الدولية، هو الإعراب عن القلق!

خلال رحلة الراوي في البحث عن سلاح نووي لكي يمتلكه العرب، ومن ثم سلاحٌ بيولوجي لإعدام المرتشين، تجلت المجازر التي تُرتكب، من الدول الكبرى، باستخدام أعتى الوسائل الحربية المختلفة، وبدون النظر إلى أي اعتبارات إنسانية أو أخلاقية، وعلاوة على ذلك، تُقدم الأسلحة إلى دولٍ بعينها، وتُمنع عن غيرها، وتتجاوز الدول الكبرى، والهيئات الأممية عن الجرائم التي تُرتكب في حق الأعراق، والديانات الأخرى، التي يُنظر إليها نظرة دونية، وأنهم مستوياتٌ متدنيةٌ عن العرق الغربي الأبيض.

5. لماذا يكره اليهود؟

عندما قابل البروفسور الجنرال اليهودي موشيه، قال له الأخير: "وت كان آي دو فور يو، يا عدوّ اليهود؟!" أنا؟! "أليس لليهود عيون؟ أليس لليهودي أيد وأعضاء وأبعاد وإحساس وعواطف ومشاعر؟ ألا يأكل نفس الطعام؟ ألا تجرحه نفس الأسلحة ..."[4] فالظاهر من كلام البروفسور، أنه يتعامل مع اليهود كبشر، وأنه ليس عدوًا لهم، فهم لديهم ذات الخصائص التي لدى العرب ولدى البشر عمومًا، وقد سأله الدكتور جونسون عن كرهه لليهود: ""هل تكره اليهود؟". "لا. أكره الصهاينة". "وما الفرق؟". "الفرق أن اليهودية دين. والصهيونية مذهب سياسي." "لماذا لا تعترف أنك تكره اليهود؟". "أنتم الذين تكرهون اليهود. في الجامعة، لا يُسمح للطلبة اليهود بدخول الفراتيرنيتيز المسيحية". "هذه تفرقة في طريقها إلى الزوال". "لا تزال موجودة حتَّى هذه اللحظة"."[5] وفي الواقع أن البروفسور مصيبٌ جدًا فيما يذهب إليه، من أن الكره والعداء الأكبر هو بين المسيحيين واليهود، فعلى نطاق الأدب مثلًا كانت الصورة الأسوأ دائمًا هي لليهودي، فهو البخيل، الجشع،

[1] أسلحة الدمار الشامل "الكيماوية – البيولوجية – النووية"، ص9.
[2] العصفورية، ص225.
[3] العصفورية، ص225.
[4] العصفورية، ص131.
[5] العصفورية، ص88.

المرابي، الغشاش، المختلس، هذا الذي أظهره الأدب الغربي عمومًا عن صورة اليهود، وقد أجاد الروائي عندما تناصَّ مع اليهودي الجشع "شيلوك" من مسرحية شكسبير "تاجر البندقية" حيث كان العقد ينص على اقتطاع رطلٍ من لحم "انطونيو" لصالح اليهودي "شيلوك" إذا تأخر في سداد القرض عن الموعد المحدد، وهذا ما ذهب إليه الراوي مع الجنرال اليهودي "موشيه" "حسنًا! سوف نعطيك القنبلة. مقابل 50 كلجم من لحمك وشحمك تؤخذ، الآن عن طريق الجراحة"[1] فالبروفسور يثبت أن الكره الأقوى هو كره الغرب لليهود، وذلك من خلال آدابهم التي تمثلهم ويعتزون بها، لا سيما وأن كاتب تلك المسرحية هو شكسبير، لسان حال الغرب، ومتنبيهم، وشاعرهم الأول.

أما عن كرهه الحقيقي، فهو للصهاينة وليس لليهود كما سبق، وأما عن أسبابه: ""لماذا تكره الصهاينة إذًا؟". "لأنهم اغتصبوا فلسطين. سرقوها من أهلها وشردوهم""[2] يكره اليهود ويسأل: "ما قصة اليهود؟ لماذا لا يتركون العالم في حاله؟" يكرههم وعفراء العربستانية تكرههم أيضًا، ولذات السبب: "الشيء الوحيد، أكرّر الوحيد، الذي لم نختلف عليه قطّ هو كراهية إسرائيل. كانت تؤمن أن إسرائيل أُوجدت للإبقاء على الأوضاع المتخلّفة في العالم العربي. كانت تؤمن أن إزالة إسرائيل هي الخطوة الأولى نحو أي تحرّر، سياسيًا كان أو اجتماعيًا أو ثقافيًا"[3] كان يكره إسرائيل لأنهم أفسدوا الوطن العربي! فموشيه يصرح للبروفسور ماذا ستفعل إسرائيل بعد قيام الحرب بين الدول العربية، يسأله البروفسور: ""وماذا عنكم؟". قال: "سوف نزود الطرفين بالأسلحة. عن طريق أطراف ثالثة، بطيعة الحال""[4] تلك الأسباب، وغيرها مما ورد في النقاط السابقة، سوغَت للروائي أن يكره إسرائيل، ويعبر عن كرهه ليس في رواياته فحسب، بل في تصريحاته في عالم الواقع، وبقصائده عن فلسطين وشهدائها، موقفٌ يعزُّ في الزمان الذي نعيشه أن يخرجَ عن دبلوماسيٍ أو سياسيٍ أو رجل دولةٍ عربي، ولكن القصيبي لم يكن يأبه أبدًا بذلك، فتجلت تلك الآراء في شتى ما نُقِلَ عنه في المجالات المختلفة، بكل جرأةٍ وصدقٍ وشجاعة.

[1] العصفورية، ص132.
[2] العصفورية، ص88.
[3] العصفورية، ص176.
[4] العصفورية، ص281.

ثانيًا: نقد المنظمات الدولية:

قيل الكثير في روايات القصيبي، بعضهم استبعد أن تكون تلك الكتابات روايات! وآخرون قالوا هي سيرٌ وأحداثٌ تعرض لها الراوي في حياته! والسؤال المطروح هنا، ما الذي يمنع الروائي من أن يضمّن رواياته بعضًا من الأحداث الحقيقية التي جرت معه في عالم الواقع؟ وكيف للكاتب أن ينسلخ من عالمه الحقيقي؟! وما الرواية – أصلًا – في حقيقة وجودها إلا امتزاجٌ بين العوالم الداخلية المتخيلة، والخارجية الواقعية للروائي! فكلُّ من كتبَ ضمّن سرده أحداثًا من الواقع، إن لم تكن بعينها، كانت محوّرةٌ على طريقة الكاتب، وفي الحقيقة "ينطوي عمل كلّ روائي على رؤية مضمرة لتاريخ الرواية، وعلى فكرة عمّا هي الرواية"[1] فالروائيُّ حرٌّ في الشيء الذي يريده من الرواية، وليس لأحدٍ أن يحجُرَ على تفكيره ورؤيته، طالما توفرت الخطوط العامّة للعمل الروائي، فلا زال هذا الفن في طور التجديد والتطوير، كما كل الفنون؛ ولا يمكن أن يتوقف الفن عند مرحلةٍ محددة، فالعلوم الإنسانية بشكلٍ عام تقبل التغيير والتطوير في كل الأزمان.

إن ما دفع الباحث لهذه المقدمة النقدية التي ربما خالفت التوقعات، من أن تكون حول نقد المنظمات الدولية، هي عبارةٌ قيلت من أحد أساتذة الأدب الكبار، فقد قال قاصدًا القصيبي في روايته دنسكو، "كتبها لأنه رسب في الانتخابات" ورواية دنسكو هي المصدر الأساسي فيما سيتم الخوض فيه، في هذه التجليات من نقد المنظمات الدولية، وإن عدم الاعتراف بأن دنسكو رواية، يبطل المبحث من أساسه، فالباحث مقتنعٌ بأن دنسكو هي روايةٌ في أصلها، كغيرها من روايات القصيبي، التي امتزج فيها الواقع بالخيال، في صورةٍ فنيةٍ راقية، ومن خلال الاطلاع على المراجعات من بعض المتلقين والقرّاء والباحثين في مقالاتهم، وقراءاتهم لروايات القصيبي، وجد الباحث أن كثيرًا منهم يأخذون عليه التعقيد في رواياته، ودنسكو واحدةٌ من تلك الروايات المعقدة بالنسبة إليهم، "إن روح الرواية هي روح التعقيد. كلّ رواية تقول للقارئ: "إن الأشياء أكثر تعقيدًا مما تظن"، إنها الحقيقة الأبدية للرواية، لكنها لا تُسمِع نفسها إلا بصعوبة في لغط الأجوبة البسيطة والسريعة التي تسبق السؤال وتستبعده"[2] واللافت أن قائل هذه العبارة قد اختارها، لتوضع على صفحة الغلاف الخلفية لكتابه "فن الرواية" فالبساطة والحكاية الرتيبة، تقتل الرواية، قبل أن تولد في ذهن المتلقي.

عام 1999 خاض الدكتور غازي القصيبي، غمار المنافسة للفوز بمنصب المدير العام الثامن للمنظمة الدولية "يونسكو" منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم، لكن الوزير السعودي لم يفز في الانتخابات وفاز فيها المرشح الياباني، وكان هو في المرتبة الثانية، وقد اعتبر ذلك هزيمة؛ لأنه لم يشارك لأجل المركز الثاني، بل جاء للفوز بالمركز الأول. "وعندما انتهت الانتخابات سألني مندوبو بعض الأجهزة الإعلامية عمّا حدث، قلت: "فاز الطرف الأجدر بالفوز." فقالوا: "ولماذا هو الأجدر بالفوز؟" قلت: "لأنه كان الأقوى." قالوا: "ولماذا كان هو الأقوى؟" "إذًا يجب أن تصبروا بعض الوقت حتى أستطيع أن أجيبكم."[3] فكانت الإجابة متمثلةٌ في رواية دنسكو، حيثُ يُظهر فيها القصيبي الأسباب التي أدت إلى فشله في

---

[1] فن الرواية، ص3.

[2] المرجع السابق، ص17.

[3] غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو - دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000، https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ.

الانتخابات، وفي ذات الوقت، الأسباب التي أدت إلى انتصار من انتصر، وذلك بأسلوبٍ روائيٍ مشوق. "لكي نستطيع أن نفهم لماذا انهزم من انهزم؟ من الأفضل أن نبدأ بمعرفة لماذا انتصر من انتصر؟"[1]

تحكم القوى العالمية في المنظمات الدولية:

لم تكن "دنسكو" بحالٍ من الأحوال إجابةً على سؤالٍ واحد، ولكنها إجابةٌ على نظامٍ دوليٍّ عام، تمارسه القوى العالمية في أعدادٍ كبيرةٍ من المؤسسات التي أُنشِئت، وتحمل الصفة الدولية، أو أي منظمة ذات طابع تعاوني بين الدول، سواء كان ذلك التعاون اقتصادي أو إنساني أو أي طابعٍ آخر. "انتشرت المنظمات الدولية حتى زاد عددها اليوم عن 1200 منظمة، منها حوالي 150 منظمة أعضاؤها من الحكومات، وكثير من النشاطات الهامة تتم تحت إشراف الأمم المتحدة ووكالاتها الخاصة."[2] وبطبيعة الحال فإن تلك المؤسسات والأمم المتحدة على رأسها مُسيطرٌ عليها بطريقةٍ أو بأخرى، من الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأساس، ولحق النقض الفيتو سلطةٌ قويةٌ جدًا، تُفسدُ الديمقراطية المزعومة، فهو يُستخدم في أي وقتٍ تريده الدول التي تمتلكه، وبدون إبداء أي أسباب، أو أي تحفظات، وحتى إن كان للأمر علاقة مباشرة بمجازرَ ضد الإنسانية! مما قلّل من جدوى تلك الهيئة العظمى في إيقاف الظلم.

أما "دنسكو" فلا تختلف كثيرًا، فالنظام الدولي المتبع متشابه في كل الهيئات والمنظمات الدولية، والتحكم فيها من أقطارٍ معينةٍ موجودٌ وفاعل، فهذه الولايات المتحدة الأمريكية، قد انسحبت من منظمة اليونسكو ولكنها تسيطر سيطرةً شبه تامة عليها، "رن جرس التليفون في المكتب البيضاوي، ورفع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السمّاعة، وأصغى طويلًا ثم قال: – بطبيعة الحال، رئيس الوزراء. بطبيعة الحال، أنا أتذكر القمة الاقتصادية الماضية. وسوف نكون معكم. أنت تعرف أننا لسنا أعضاء في هذه الإدارة ولكننا سوف نساعدكم من وراء الكواليس. حظًا سعيدًا!"[3] لقد انسحبت الولايات المتحدة الأمريكية مرتين من اليونسكو، المرة الأولى "عام 1984م، وبريطانيا عام 1985م، لما رأت حكومتا البلدين من وجهة نظرهما – تحامل اليونسكو على الدول الغربية ..."[4] والمرة الثانية عام 2017 بعد عودتها عام 2003. الجدير ذكره أن الولايات المتحدة لم تكن عضوًا في المنظمة في الوقت الذي ترشح فيه القصيبي عام 1999، ولكنها تتحكم فيها بألف طريقةٍ وطريقة، ليطعن ذلك بكل وضوحٍ في أسطورة الشرعية الدولية. "وبذلك تكون قد انتقلت الشرعية الدولية من شرعية تعتمد على جماعية وقرارات الدول الأعضاء في المجتمع الدولي إلى قرارات فردية تصدر عن رغبة القطر الأمريكي المتسلط تعكس مصالحه الحيوية والاستراتيجية."[5] وهذا ما أراد القصيبي توضيحه في غير مكان، "اليونسكو منذ بدأت عام 46 إلى عام 87 لم يكن هناك أي انتخابات فعلية إطلاقًا، كان هناك نوع من التشاور وراء الكواليس، ينتهي بالاتفاق على شخصية واحدة، تُقدم للمجلس التنفيذي،

---

[1] غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو - دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000، https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ

[2] جوزيف فرانكل، العلاقات الدولية، ترجمة: غازي القصيبي، تهامة، جدة، ط2، 1948، ص92.

[3] دنسكو، ص88-89.

[4] جريدة الحياة الجديدة، دولة فلسطين عضو كامل العضوية في منظمة اليونسكو، العدد: 5746، 1-11-2011، ص7.

[5] علي العقابي، العلاقات الدولية – دراسة تحليلية في الأصول والنشأة والتاريخ والنظريات، د.د، بغداد، د.ط، 2010، ص134.

والمجلس التنفيذي يزكيها ثم يصدق عليها المؤتمر العام"[1] وهذا ما حدث ولكن بطريقةٍ ديمقراطية في انتخابات دنسكو عام 1999، حيث إن تحكم الغرب وأمريكا في المنظمة، يشبه إلى حدٍ كبير ذلك التشاور السري الذي تحدث عنه القصيبي.

فبعد المعركة الانتخابية الطويلة التي خاضتها القارات للفوز في الانتخابات، لم يفز أي من مرشحيهم، وذلك فعلٌ روائي بحت ففي الحقيقة أن الذي فاز في الانتخابات هو مرشح القارة العظمى في الرواية، والذي يمثله مرشح اليابان في الواقع، ولكن الراوي اختار نهايةً أخرى ومرشحًا آخر للفوز، ولم يكن أبدًا في الحسبان، ولم يكن اسمه مطروحًا على الطاولة أصلًا، لولا التدخل الفرنجي الغربي، وهي سونيا كبيرة مستشاري المدير التنفيذي، والتي خاضت المعركة الخفية إلى جانبه، ليتبين في النهاية أنها تخوضها لصالح القارة الفرنجية، فبعد فشل المجلس في اختيار أي مرشح، "قرر الزملاء الحكماء الاستئناس برأيك. قارة الفرنجة تدفع 74% من ميزانية دنسكو ومن العدل أن يكون لها رأي في المدير التنفيذي القادم. صمت رئيس اتحاد الفرنجة مُفكّرًا، وبعد دقائق، اصطحب معه رئيس مجلس الحكماء إلى باب الجناح، وقبل خروج الرئيس، همس في أذنه. ابتسم رئيس مجلس الحكماء، ولم يقل شيئًا."[2]

فالراوي يريد أن يصل بذكاء إلى النتيجة الحتمية التي أراد الوصول إليها من كل ما سبق "– لا تقلقي! لا تقلقي! رغم كل المظاهر والظواهر لم يسبق أن تولّى الإدارة أحد إلا بقرار من اتحاد الفرنجة."[3] بل إن بعض المناصب مقصورة على الفرنجة " – روبيرتو! البنك الدولي والصندوق منطقة محظورة على غير الفرنجة كما تعرف جيدًا."[4] فما أراده الراوي من ذلك ليس فقط المرشح، بل أيضًا السياسة العامّة للمؤسسة، فهي أول على آخر تتبع السياسة التي تريدها أمريكا والغرب، ويعتقد الباحث أن فعل الراوي من تغيير حقيقة نتائج الانتخابات، من فوز مرشح القارة العظمى "الياباني" إلى فوز سونيا، تلك المرأة العاهرة كما أطلق عليها رئيس اتحاد الفرنجة، جاء من باب التعويض النفسي، فتأنيث المذكر لدى الأدباء العرب ظاهرة للغزو التعويضي كما ورد حول هذه القضية فيما سبق، ولم يقتصر الأمر على تأنيث المرشح الفائز بل تجاوزه الراوي إلى أن جعله عاهرة، أكثر ما تجيده هو القسم بشرفها!

وإن اختلف المرشحون يجب أن يتّبعوا تلك السياسة، وإلا فإن مصيرهم تحطم طائرة مثل داغ همرشولد[5] أو فيتو لمنعهم من الترشيح مرة أخرى أو تهديد واستقالة، وغيرها من الطرق السرية لديهم، وفي النهاية يسُود التعاون بين القوى العظمى؛ لأجل التحكم السري في سير العلاقات الدولية والقرارات الأممية "– سوف نلتقي هنا كل شهر. وسوف أعطيك التعليمات، وسوف تطبّقينها بدقة. أدخل المندوب المؤقت يده في جيب معطفه وأخرج ورقة أعطاها لسونيا، وقال: – خلال الأسبوعين القادمين نريد منك أن تعيّني هؤلاء

---

[1] غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو - دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000، https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ

[2] دنسكو، ص169-170.

[3] دنسكو، ص170.

[4] دنسكو، ص72.

[5] (Dag Hammarskjöld) (1905-1961) ثاني أمين عام **للأمم المتحدة**، وقد كان له موقفه ضد العدوان الثلاثي على مصر، قُتل في حادث تحطم طائرته أثناء رحلته في الكونغو أثناء رحلته لحل نزاعات الانفصال فيها.

الأشخاص."[1] وعندما لجأت سونيا إلى رئيس اتحاد الفرنجا قال: "سونيا! هذه الدولة صديقة وحليفة، وكنا نعمل، نحن وهم، معًا طيلة الحملة."[2] فما حدث طوال الحملة التي يتحدث عنها، كان نشاطًا سريّا بين قارة الفرنجة والقارة العظمى، لأجل التفاهم على مرشحٍ يؤدي الدور المنوط به، على هوى تلك القوى العظمى، "ان النشاط السري عبر التاريخ، كان ولا زال من أولويات نشاط أي دولة: "أجهزة المخابرات والتجسس)، بل حتى المؤسسات الاقتصادية والعلمية"[3] فالمخابرات تجري في سياستهم مجرى الدم في الوريد.

المعركة الانتخابية:

ولكي تتم الأمور في نصابها الصحيح، لا بد من التعرض للأساليب التي أُستخدمت خلال المعركة الانتخابية لدنسكو، وقد كانت تلك الأساليب أسلحةً ناجحة ولا سيما ما تعلق بالعوامل الاقتصادية منها، "أما القوة الاقتصادية، فعلى صناع القرار أن يأخذوا في حساباتهم هذه القوة والقدرة الفعلية الكامنة لدولهم"[4] وقد بيّن الراوي شتى الميادين لهذه العركة. "– هناك شعور عام أن المنصب هذه المرة يجب أن يذهب للقارة العظمى. – ومن أين جاء هذا الشعور؟ – سيدي المدير التنفيذي! العارف لا يُعرَّف. – عرّفني رجاءً. – قدّمت الدولة التي تقدمت بالمرشح الدعم المادي لمعظم دول العالم. – ومنذ متى أصبح هذا المنصب لأكبر المنفقين؟"[5] وهذا ما حصل وما فعلته اليابان. "عبر السنوات الخمس الماضية كان معدل ما تدفعه اليابان سنويًا من هذا العون قرابة 8 بلايين دولار. وفي السنة التي سبقت انتخابات اليونسكو، كانت اليابان المانح الأول لقرابة 50 دولة، وثلث هذه الدول أعضاء في المجلس التنفيذي"[6] فالأمر أصبح بالنسبة لليابان، التزامًا أخلاقيًا من اليونسكو بأن يُنتخب مرشحها، طالما أنها تقدم الدعم الأكبر للمنظمة، فوصل بها الأمر إلى التهديد بالانسحاب من المنظمة في حال فشل مرشحها. "أبلغني أكثر من مندوب دائم أن اليابان أبلغت دولته أنها ستنسحب من اليونسكو إذا لم يتم انتخاب مرشحها، وانسحابها يعني، ببساطة، إفلاس المنظمة"[7] ولم يتوقف التهديد على وقف الدعم والانسحاب من المنظمة، بل طال الأمر العلاقات بين الدول. "دعت دولة القارة العظمى رقم 40 إلى مؤتمر حضرته 11 دولة من قارة عربستان. وتقرّر خلال المؤتمر إعفاء هذه الدول من جميع الديون المستحقة عليها للدولة رقم 40، ويبلغ مقدارها 850 مليون دولار"[8] ويبدو أن ما حدث في الواقع أكثر مما حدث في الرواية في هذا الجانب! "أبلغني عدد من ممثلي الدول النامية التي تتلقى العون من اليابان إنهم تلقوا إنذارًا صريحًا بوقف العون إذا لم تصوّت هذه الدول لصالح المرشح الياباني."[9] والغريب لماذا كل هذه الاستماتة من اليابان، وتوظيف كل الوسائل والطرق التي سبقت وستأتي، للفوز بالانتخابات؟ وكأنها معركةٌ حقيقية! يقول عنها الدكتور غازي: "بدأنا ننطح رؤوسنا في اتجاه حائط استغرق بناؤه عشر

---

[1] دنسكو، ص172.
[2] دنسكو، ص173.
[3] المنظمات السرية التي تحكم العالم، ص15.
[4] العلاقات الدولية – دراسة تحليلية في الأصول والنشأة والتاريخ والنظريات، ص158.
[5] دنسكو، ص40.
[6] غازي القصيبي، العولمة والهوية الوطنية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، 2002، ص53.
[7] المرجع السابق، ص54.
[8] دنسكو، ص102.
[9] العولمة والهوية الوطنية، ص53.

سنوات"[1] وفي الحقيقة أن ذلك يبدو من خلال ما مارسته اليابان، لأجل الفوز في الانتخابات، لا سيما وأن عدم الفوز بالمنصب، لم يتسبب في ذلك الحرج الكبير للدول التي لم تفز به، ولم تكن لديهم تلك الاستماتة التي كانت لدى حكومة اليابان. "عندما انتهت معركة التصويت في سنة 1999 اتصلت بالملك عبدالله بن عبدالعزيز (ولي العهد وقتها) أبلغه ما حدث. أنصت بهدوء ثم قال: «لا تهتم. أبليت بلاء حسناً. أردنا شيئاً وأراد الله غيره. لا تلتفت إلى الخلف وانظر إلى الأمام». وكم سررت حين قال فاروق حسني في تصريح علني أن الرئيس حسني مبارك قال له بعد المعركة: «ارمي ورا ظهرك! –» أي انظر إلى الأمام"[2] فكما هو واضح من تصريح ولي العهد السعودي آنذاك، وتصريح الرئيس المصري، لم يحدث الأمر ذلك الصدع العظيم، الذي كانت تُخيله اليابان في حالة عدم فوز مرشحها، فقد "دخلت المعركة كما لو كانت تخوض حربًا حقيقية، يعتمد عليها بقاؤها أو زوالها، ولم تنظر إلى الموضوع كما نظرت إليه بقية الدول باعتباره منافسة عادية، على منصب دولي عادي"[3] وعند الغوص وراء الأسباب الكامنة خلف ذلك الإصرار على الفوز، تجد الإجابة أبسط مما هو متوقع: "والإجابة عن هذا السؤال تكمن في إحساس اليابان العميق أنها لا تلقى ما تستحقه من تقدير في المجال الدولي"[4] فلعلها تجد دورها في العمل الدولي، من خلال رئاسة أحد مواطنيها منظمة مثل اليونسكو في ذلك الوقت.

المرشحون:

من خلال ما سبق يتضح أنه لا قيمةً كبيرة، يُعوّل عليها لمكانة المرشحين، ومؤهلاتهم، طالما أن الصراع صراع دول، وليس صراع شخصياتٍ وكفاءات، وما رسّخ ذلك، هو التعديل الذي اقترحته اليابان "اقترحت اليابان سنة 1991م تعديلًا في ميثاق المنظمة، تم بموجبه تحويل المجلس التنفيذي إلى مجلس يمثل الدول، والدول وحدها"[5] لذلك جاءت شخصيات المرشحين في دنسكو إمعة، فلم يكن المرشحون سوى مجموعةٍ من الإمعات فحسب، وكأنهم آلاتٌ مبرمجةٌ على أنظمةِ تحكمٍ مختلفة، فواحدٌ منهم شاعر ولا يتكلم سوى الشعر، والآخر وزير مالية سابق لا يتحدث إلا بالإحصائيات، والثالث رئيس جمهورية سابق ومريض بجنون العظمة، والرابع متخصص في علم النفس ويعاني من شرود الذهن، والخامس ممثل لا يتحدث إلا بقصائد شكسبير، أما الأخير فمسئول حكومي ولا يتكلم، وهو مرشح القارة العظمى التي اختارت مرشحًا لا يتحدث إلا بما قالوا له! "سيقولون عنك الكثير. سيقولون أنك غير مؤهّل لقيادة دنسكو. سيقولون إنك لا تعرف فنّ التواصل. سيقولون إن الإدارة سوف تموت في عهدك. سيقولون إن المرشّحين الآخرين أكثر كفاءة وأكثر جاذبية. اسمع واصمت! – سوف أسمع وأصمت."[6] وهكذا دواليك في بقية التوجيهات، يكرر كالأطفال

[1] غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو - دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000، https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ

[2] غازي القصيبي، معركة اليونسكو: نجح المرشح وسقط العالم الثالث!، جريدة الحياة، 26-9-2009، http://ksa.daralhayat.com/ksaarticle/60180.

[3] العولمة والهوية الوطنية، ص52.

[4] المرجع السابق، ص56.

[5] المرجع السابق، ص51.

[6] دنسكو، ص78.

آخر كلمتين وانتهى الأمر. حتى أن أحد المرشحين قد صرّح عن نفسه أنه روبوت! أمام مجلس الحكماء. " –حسنًا! ما رأيك في نفسك؟ صمت المرشح في حيرة، ثم قال: – آسف! لا يوجد في برمجتي جواب على هذا السؤال. علت همهمات واستغراب في كل مكان، وقال رئيس المجلس: – برمجتك؟ هل أنت روبوت؟ هزّ المرشح رأسه، وابتسم، وقال: نعم أنا روبوت..."[1] وهذا ما يثبت أن اللعبة هي لعبة دولٍ وليس كفاءات ومؤهلات. "أدركت اليابان أن اللعبة لعبة دول، تخوضها دول بأسلحة دول ... وأدركت أن شخصية المرشح، في هذه اللعبة، لا تهم في كثير أو قليل."[2] لذلك لا يوجد ذلك الاعتبار الكبير والتعويل الذي قد تظنه الشعوب، على مؤسسات المجتمع الدولي الصورية، ولا أدل على ذلك من قضية فلسطين، التي لا زالت مُعلقةٌ منذ عقودٍ بين أروقة تلك المنظمات، والشرعيات، والفيتو الأمريكي المشرّع في وجه الفلسطينيين دائمًا.

التوريط والابتزاز:

كان هذا الأسلوب من أنجع الأساليب، ومن أمضى الأسلحة السرية المستخدمة في معركة اليونسكو، إذ استخدمت اليابان شتى الأسلحة والوسائل كما يعبر عن ذلك القصيبي: "غير التصميم على الفوز كانت هناك ترسانة من الأسلحة هائلة جدًا"[3] "خاضت اليابان الحملة وشعارها "في الحب والحرب يجوز كل شيء"[4] ومن تلك الأشياء الجائزة الرشوة، ومن ثم ابتزاز مَن قُدِمَت إليه؛ حتى يغير موقفه، وهذا ما حدث تحديدًا مع مجلس الحكماء، فكل حكيم من الحكماء الستة ورئيسهم تلقّى مكالمة تلفونية، تُفيد بربحٍ كبير مفاجئ طرأ على أعماله الحرة من تجارة وعقارات وأسهم، أو تسديد ديون، أو منصبٍ كبيرٍ للابن وهكذا.. والغريب أن الحكماء لم يسألوا عن مصادر تلك المكاسب، لتكون في النهاية هي الأداة التي تسلبهم مواقفهم وضمائرهم. "استأذن، وذهبت تودعه، وقبل أن يغادر الشقة استوقفته وقبّلته قبلة طويلة على شفتيه، ثم قالت: – هذه القبلة تهنئة خاصة لك على النبوغ المُبكّر الذي أبداه ابنك والذي قاد إلى أسرع ترقية في تاريخ البنوك فتح الحكيم فمه، ولكن سونيا دفعته إلى الخارج، وأغلقت الباب، وضحكت حتى كادت تشرق."[5] وذات الموقف حصل مع باقي الحكماء، لتذكيرهم بما حصلوا عليه من غير حولٍ منهم ولا سعي.

الإشاعات:

لا حاجة للتعريف بالأضرار الهائلة التي تسببها الإشاعات، ولا يمكن إنكار تأثيرها الكبير في سير الأمور، وقد انتشرت العديد من الدعايات والإشاعات أثناء الحملة الانتخابية، يسردها الراوي "سرت إشاعة قويّة في مقر دنسكو تقول إن المرشح العربستاني فور ظفره بالمنصب سوف يلغي كلمة "ديموقراطية" من ميثاق الإدارة ويضع مكانها كلمة "شريعة"، وسينهي برنامج "معرفة السلام" ويحل محله برنامج يسمّى "معرفة

[1] دنسكو، ص159.
[2] العولمة والهوية الوطنية، ص59.
[3] غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو - دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000، https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ
[4] العولمة والهوية الوطنية، ص55.
[5] دنسكو، ص126.

الجهاد"، واتضح أن أنصار مرشح القارة العذراء كانوا وراء الإشاعة."[1] ومهما يكن فإن لتلك الإشاعات والدعايات وقعها الكبير في النفوس. "تعني الدعاية عموما أي محاولة منظمة للتأثير على عقول وعواطف وتصرفات جماعة معينة تحقيقا لهدف عام معين"[2] ولا بد أن تؤثر مثل هذه الدعاية في العقول والعواطف، لأنها ستثير الخوف، بما أنها تغذي الصورة التي صنعها الهوليوود الغربي في ذهن العالم، من أن العربيَّ إرهابيٌّ وسفاح، وغيرها من الإشاعات التي كانت تتسرب في غير مكانٍ أثناء المعركة الانتخابية.

مآخذ على المؤسسات الدولية:

ما الأدوار التي تنفذها تلك المنظمات؟ والعالم مليء بالحروب، والموت، والدمار، والجوع والجهل، والاحتلال، والهلاك! لا زال العالم في بعض أقطاره في العصور الجاهلية الأولى، وليس معنى ذلك أن العالم الآخر على خير، ولكن ما هو ظاهرٌ هنا، خفيٌّ هناك، والمتأمل لما يحدث في هذا العالم، يرى أن سببه تلك الدول الكبرى التي خلقت هياكلَ وهميةً من مؤسسات تدّعي أنها وُجدت لتخلص العالم! فهذه اليونسكو التي قاتلت لأجلها الدول، يقول عنها أحد مرشحيها "منظمة تنفق ميزانيتها على موظفيها، وتحلم بأمجاد ماضيها الغابر"[3] وأبدًا لم يقل القصيبي هذا الرأي بعد خسارته المنصب، بل من قبل ومن بعد، فقد درس بإلمامٍ تاريخ تلك المنظمة، وكان يأمل أن يأخذ بها إلى الطريق الذي يجب أن تكون عليه.

لقد تجلت انتقادات الراوي للمنظمات الدولية من خلال دنسكو في عدة نقاط، سيرد في الآتي أهمُها:
المهام: "– حسنًا! ابحث ما شئت. ولكن دعني أقل لك شيئًا قبل أن تبدأ. لا مؤتمرات جديدة! لا مؤتمرات جديدة! هل سمعت؟"[4] فالجانب الأساسي أصبح من عمل تلك المنظمة بالنسبة للراوي، المؤتمرات والتي تكلف الملايين، ولأمورٍ هامشيةٍ إلى حدٍ كبير، فبينما يموت الأطفال من الجوع والكوليرا في مساحات شاسعة من الأرض، تبحث مؤتمرات دنسكو، الأخطار المترتبة على انقراض الصراصير وطرق رعاية التماسيح، وتهيئة جو المحميات للفيلة والاهتمام بالتراث القديم! وغير ذلك من الأمور الدعائية الوهمية.

الوظائف الوهمية، والوساطة في التعيين: عشرات المسميات وعشرات الوظائف، والتي لا فائدة تذكر منها كما أوضح الراوي، سوى أنها عُينت من خلال وساطة ما، هذا مستشار، وذلك مندوب دائم، والآخر مؤقت، وهذا مساعد، وهلمَّ جرا من الموظفين، الذين يُفترض أنهم وُظفوا لمساعدة العالم. "دع الأمور تمرّ بدون مشاكل. لا مؤتمرات جديدة! لا مساعدون جدد! لا مستشارون جدد!"[5] أما عن طريقة تعيين أولئك الموظفين، فمثال ذلك مستشار المدير التنفيذي لشؤون القارة العظمى، بهرام ينْ ينْ. "بهرام! أنت تعرف رئيس اتحاد القارة العظمى جيدًا، أليس كذلك؟! ضحك بهرام. هو يعرف، كما يعرف المدير التنفيذي، أن رئيس اتحاد

[1] دنسكو، ص92.
[2] العلاقات الدولية، ص123.
[3] العولمة والهوية الوطنية، ص55.
[4] دنسكو، ص33.
[5] دنسكو، ص35.

القارة العظمى عمّه، وأنه لم يُعيّن في وظيفته إلا لهذا السبب"[1] وهكذا ذات الأمر مع باقي المستشارين والمساعدين، كلٌّ عُين بذات الطريقة.

القادة الممثلون:

مع الخبرة الطويلة والمكث في المنصب، أصبح لدى المدير التنفيذي مواهب عديدة، منها التمثيل والكذب والنفاق، استغلها هو وسابقه لأجل مصالحهما الشخصية ومكاسبهما المادية، لدرجة الإدمان " هل أصبحت تدمن الأشياء القذرة؟ أنت؟! أنت؟! الذي هاجمت المدير التنفيذي يوم كنت نائبه لأنه أدمن المصعد المخصص لاستخدامه وحده. وأدمن الحاشية. وأدمن المستشارين. وأدمن رؤساء الدول..."[2] "أم أنه أصبح أنانيًا الآن؟ يتخذ من الجائعين الأميين مُبرّرًا للمصعد الخاص. والطائرات الخاصة. والأجنحة الفخمة. والنساء الجميلات..."[3] هذا مونولوجٌ يدور في ذهن المدير التنفيذي، وغالبًا ما يكون الإنسان صادقًا عند حديثه مع نفسه، فلا أحد يسمعه سواها، وإن كان يؤمن بالله فهو يعلم ابتداءً أنه {خبيرٌ بما تصنعون}[4] ذلك ما كان يلاحظه مساعدو المدير التنفيذي عليه. "تبخّرتْ ثورة المدير التنفيذي، فجأة، مع الكلمات التي تتحدث عن الراحة، وجلس على مقعده مسترخيًا وكأنه موشك على النوم. لا ينتهي إعجاب كارلوس بمواهب رئيسه المتعددة، الطاقة الجبارة، القدرة على تغيير مزاجه من لحظة إلى أخرى، موهبة التمثيل الرائع، موهبة تصديق نفسه وهو يردد أضخم الأكاذيب."[5] ليصرح المدير التنفيذي في النهاية بكل ذلك، على طريقة النفس اللوامة أثناء مناجاته لذاته. "هناك مسرحية قصيرة. بطولة فخامة الرئيس والسيد المدير التنفيذي. مسرحية ناجحة. بدليل أنها تمثّل كل يوم. إلى الأبد. أحيانًا يتغيّر البطل الثاني. دولة رئيس الوزراء ... أما السيد المدير التنفيذي فيمثّل في كل العروض."[6] وهكذا تتحول مع الزمن مواهب الناس من مواهب في إنجاز المهام إلى مواهب في التضليل والخداع والاستغلال، بيّنها الراوي بكل دقةٍ ومن موقع المسئولية.

مصادر التمويل وأوجه صرفه:

من المظاهر الكارثية في أي مؤسسة كانت، صَغُرت أو كَبُرت، ألّا يطّلع على مصادر التمويل وأوجه صرفه سوى شخص الرئيس، وإن كانت تلك الظاهرة موجودة في أي مؤسسةٍ كانت فذلك مؤشر على الفساد، فالمفروض أن يتم التعامل مع هذه الأمور من الدائرة المالية المختصة، ومن خلال التوثيق الجاد، والاطلاع الرقابي الفعلي، وليس الوهمي؛ لنستطيع القول إن سير الأمور شفافًا ونزيهًا، وعلى العكس من ذلك ما يحدث في شتى الأماكن والمؤسسات المختلفة، فالسلطة المطلقة هي السائدة. "والتمويل يمكن أن يجيء

[1] دنسكو، ص42.
[2] دنسكو، ص115.
[3] دنسكو، ص118.
[4] العنكبوت، 45.
[5] دنسكو، ص50.
[6] دنسكو، ص117.

من مصادر خارج الميزانية. حقيقة الأمر أن شركة مبيدة للحشرات أعلنت عن استعداداها لتمويل المؤتمر. أطلق الرئيس ضحكة مجلجلة، وقال: – شركة مبيدة للحشرات تموّل مؤتمرًا لحماية الحشرات المنقرضة؟! ذئب يرعى الغنم!"[1] والمفهوم من ذلك مباشرةً هو غسيل الأموال، ولكن الراوي جاء بفكرةٍ غير تقليدية لتوضيح ذلك الأمر، فكم من البلايين تدخل، في الحسابات المؤسساتية مُلطخةً بدماء الأبرياء، جرّاء السلاح المُباع تحت الطاولة لغرض الحروب الأهلية، والإبادات الجماعة، ومن مصادر الأفيون وتجارة البشر والأعضاء، وتخرجُ نظيفةً لا غبار عليها إلى بنوك العالم الحرّ! وهذا ما جسّده الراوي من خلال مؤتمر حماية الحشرات، والذي ستموله الشركة التي تبيد تلك الحشرات! "كل يوم استجواب طويل حول التمويل الخارجي. قلت لهم إن التمويل الخارجي لا يعنيهم. التمويل الخارجي يأتيني أنا مباشرة من منظّمات تحترمني ومن أشخاص يقدروني، وأنا المفوّض في التصرف فيه."[2] وهذا يجسد ذات الفكرة التي يحوم حولها الراوي، لماذا يصرُّ المدير التنفيذي على أن مصادر التمويل الخارجي من شأنه وحده؟! وأما عن أوجه الصرف التي يريد أن يتحكم فيها وحده، فتذهب إلى غير مواقعها الحقيقة، ومثال ذلك، "الميزانية! الميزانية! حسنًا! حسنًا! هناك ندوة لرعاية التماسيح تعقد في الأسبوع القادم. اذهب إلى قسم أولوية القارة العذراء وخذ نفقات المهمة من هناك. سوف أرتّب الموضوع."[3] وبذلك تتضح الحقيقة الضائعة في أوجه الصرف الوهمية المختلفة لتلك المؤتمرات والندوات التي يعقدها المدير التنفيذي، متمثلًا في مختلف رؤساء المؤسسات، والمنظمات الدولية في العالم.

تلك بعض التجليات النقدية في رواية القصيبي "دنسكو" للمنظمات الدولية، والتي شابهت إلى حدٍ كبيرٍ ما حدث في عالم الواقع، أثناء تجربته للترشح لرئاسة اليونسكو، ويعودُ الباحث ليقول بأنه لا خلاف على أن تحتوي الرواية على أحداثٍ من الواقع، وهذا القصيبي قد جاء بالواقع وسجّله ولكن بطريقةٍ مختلفة، وهذا يُحسبُ له، وقد كانت مساجلات الخيال في روايته، ليس لغرض إضفاء الصفة الروائية على العمل فقط؛ بل لتذهب بأذهان القرّاء إلى المنطقة التي يريدها الراوي، فليس كل شيء حدث يمكن أن يقوله، وكما قال في كتابه الأبرز "حياة في الإدارة" "لا أَدعي أني قلت، هنا، الحقيقة كاملة، ولكني أرجو أن كل ما قلته، هنا حقيقة."[4] ففي كتابٍ علميٍّ إداريّ، لم يأخذ الطابع الروائي الأدبي بالدرجة الأساس، لم يستطيع الكاتب أن يفصح عن كل شيء، وقد سُئل عن تلك العبارة مرارًا فكان يجيب: "لكي تروي الحقيقة كاملة، يجب أن تتعرض لشخصيات الناس، تتعرض لنواحي ضعفهم، تتعرض لنواحي قوتهم، ... بينما لو رويت الحقيقة كاملة كان يجب أن يُروى هذا كله، هذا الجانب الوحيد فقط الذي تجنبت أن أذكره"[5] لكن في العمل الروائي تستطيع أن تذكر ما تريد، بالطريقة التي تريد، خاصة في حالة كحالة الدكتور غازي القصيبي، إذ كان يُصنف بالشخصية الأقوى في المملكة السعودية، بعد العائلة المالكة، بالنسبة للكثير من السياسيين السعوديين

[1] دنسكو، ص33.
[2] دنسكو، ص58.
[3] دنسكو، ص48.
[4] حياة في الإدارة، ص9.
[5] غازي القصيبي، في مقابلة مع تركي الدخيل، نُشِرَت بتاريخ 11-9-2009، https://www.youtube.com/watch?v=B58_vYNjA_k.

في الحقبة التي عاش فيها، وبطبيعة الحال هو رجل دولةٍ محسوبٌ عليها، ويمكن أن يؤدي إفصاحه بكل شيءٍ بالطريقة العادية، إلى أزماتٍ دبلوماسية بين الدول، فهو يتخلص من ذلك بالطريقة الأدبية الروائية، والتي خُلِقت لأجلها الرواية في بعض نواحيها، وقد أجاد القصيبي فيها.

الفصل الثالث

مجالات نقدية متفرقة

كلما انتهى الباحث من كتابة فصلٍ أو مبحثٍ ما، تتضح الرؤية أكثر، ويزيد الاعتقاد بأن القصيبي ناقدٌ موسوعيٌّ في شتى المجالات، فمن خلال التجليات الأدبية والسياسية في الفصلين الأولين، يزعم الباحث بأن صفة الناقد الأدبي، والخبير السياسي، قد التصقتا بالدكتور غازي القصيبي، بشكلٍ استحقاقي، وليس مجرد ألقابٍ لفظيةٍ تجميلية.

وفي هذا الفصل، يحاول الباحث إبراز التجليات النقدية، التي تناولها الروائي في رواياته، في المجالات الحياتية المختلفة، حيث المجال الإداري، والنفسي، والفلسفي.

المبحث الأول: النقد الإداري:

يبدو أن الكثيرين من أصحاب الكتب الإدارية، قد كتبوا في الإدارة لأنهم تخصصوا فيها ودرسوها، ودرّسوها، وفهموا نظرياتها ومبادئها وحاموا حولها حتى فهموها، وهذا منطقي ومعروف، ولكن الأكثر منطقية، هو أن تكتب فيما تمارس واقعًا في حياتك، وليس لمجرد الاستناد إلى المراجع البحثية السابقة، والنظريات المتلاحقة، فالقصيبي قبل أن يكون روائيًا كان إداريًا، وذلك بتقلده مختلف المناصب الإدارية، عبر سنين عمره الحافلة بالعطاء منذ مبتدئها، فقد تدرج في أول عملٍ له في الجامعة، من مدرسٍ إلى رئيس قسم حتى أصبح عميدًا في النهاية، لينتقل بعدها لطورٍ إداريٍ أكبر وأكثر مسؤولية؛ فيعمل مديرًا عامًّا لمؤسسة السكك الحديدية، وبعدها بعامٍ واحد يُعيّن وزيرًا للصناعة والكهرباء، ومن ثم يتنقل بين مختلف الوزارات والمناصب، من وزارة الصحة إلى السفارة البحرينية فالبريطانية، وقد تقدم فيه العمر مُرتحلًا بين المناصب المختلفة، ولسان حاله يقول:

خمْسٌ وستُّونَ.. في أجفان إعصارِ أما سئمتَ ارتحالاً أيّها الساري؟
أما مللت من الأسفارِ.. ما هدأت إلا وألقتك في وعثاءِ أسفار؟[1]

لكن ارتحال الشاعر الوزير لم يتوقف عند الخامسة والستين، فقد استمر حتى تقلد منصبًا جديدًا "وزيرًا للعمل" ليشعر أنه قد قارب إتمام رسالته في الدنيا، مستغربًا من مجافاة الموت له:

ماذا تريدُ من السبعينَ.. يا رجلُ؟! لا أنتَ أنتَ.. ولا أيامك الأُولُ[2]

فرجلٌ يحوز على كل ذلك المجد، ويتنقل بين شتى المناصب الإدارية، في دولةٍ تتبع النظام الملكي، وهو ليس من العائلة المالكة! يجب أن يكون رجلًا ناجحًا لامعًا، وجديرًا بما أُوكل إليه من المناصب المختلفة.

[1] غازي القصيبي، حديقة الغروب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2007، ص13.
[2] غازي القصيبي، جريدة الجزيرة، ع: 13674، 7-3-2010. http://www.al-jazirah.com/2010/20100307/ra1.htm.

البيروقراطية:

ربما سيكون هذا العنوان هو الأكثر بروزًا عند الحديث حول النقد الإداري، ومنه تتفرع باقي العناوين الفرعية، فقد كان الوزير منذ أول وظيفةٍ له في الجامعة، وحتى كافّة المناصب التي تقلدها، محاربًا للبيروقراطية التي أفسدت الكثير من الأشياء في نظره، وهذا ما يتجلى من خلال نقده المرير لذلك النظام.

فهي التي "تمتصّ دم الإنسان العربي"[1] تمتصه إما بالطريقة المباشرة التي يعرفها الجميع وهي الرشوة والوقت والجهد الكبير الذي يضيع من الإنسان لأجل معاملةٍ ما، بين أروقة الدوائر الحكومية ومؤسساتها المختلفة، أو من خلال الطريقة الخفية الأثر –إلى حدٍ ما– على الكثيرين، خاصّة الذين يتعاملون معاملةً مباشرة مع البيروقراطية، وهي الرجعية والتخلف والديكتاتورية. هم لا يشعرون بهذا الأثر البعيد المدى؛ لأن البيروقراطية أعطتهم سلطةً في مجتمعاتهم، لا يشعرون بذلك لأنهم يستفيدون من البيروقراطية، والمخلص منهم يظن أن الإجراءات البيروقراطية والتسلسلات الإدارية والمكاتب المتراصّة، والملفات المكوّمة، من شأنها أن تنظم أمورَ الدولةِ أكثر من غيرها من الأنظمة الإدارية، فالمعاملة عندما تمر على عشر موظفين، أجدر بها أن تكون مستوفاة للشروط القانونية، وتوقيع عشر موظفين عليها، يجعلها حكومية بحتة، ومدروسة جيدًا عند العديد من الموظفين، والحقيقة غير ذلك تمامًا، وذلك يتبين فيما سيتم درسه في الصفحات الآتية، من تجليات النقد الإداري، والبيروقراطي بشكلٍ خاص، في روايات القصيبي، لا سيما وأن النظام الإداري المعمول به في العالم العربي خاصة، والعالم عامّة، هو النظام البيروقراطي.

يبدأ الحديث عن البيروقراطية في رواية العصفورية، عندما بدأ البروفسور يسترجع –الأيام الحلوة– التي عاشها في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أخذ ذلك الاسترجاع طابع المقارنة، ما بين الشرق والغرب، في شتى القضايا والتي كانت إحداها الأنظمة الإدارية.

ما بين الشرق والغرب:

يستخدم الراوي تكنيك الاسترجاع ليبرز المفارقة الكبيرة، والفجوة المتسعة، بين ما عايشه في الولايات المتحدة الأمريكية، وبين الدويلات العربية المتفرقة. "هل تذكر تلك الأيام في أمريكا، يا دكتور؟ لا! وقتها لم تكن أنت قد ذهبت إلى أمريكا. كان تركيب جهاز التليفون يتم في دقائق. مكالمة واحدة، وبعد ربع ساعة يأتي من يركّب الجهاز"[2] ولا أدل على ذلك من الواقع المعيش في الأيام الحاضرة لدى العرب، فنظرةٌ إلى (Waiting list)[3] في كشوف شركة الاتصالات لدينا، توضح جيدًا ما يقصده الراوي، والسبب الأبرز بالنسبة لهم، هو عدم توفر الإمكانية الفنية، وفي حقيقة الأمر أن السبب يكمن في عدم توفر الكفاية الإدارية والرقابية، لدى الجهات الحكومية التي خصصت الشركة، ولا لدى الشركة نفسها، وهذا ينسحب على الأقطار العربية المختلفة، في شتى الوزارات والخدمات المقدمة للمواطن، فمثلًا إن كنت مواطنًا عربيًا، وتحتاج إلى

[1] العصفورية، ص54.
[2] العصفورية، ص54.
[3] قائمة الانتظار، كما هو مصطلح عليه

تمديد الكهرباء إلى منزلك، فإنك ستحتاج مدةً زمنيةً تتراوح من الشهر إلى ستة شهور؛ ليتم لك ذلك، فحسب تقارير البنك الدولي لعام 2016 أن المواطن الإماراتي يحتاج إلى 28 يومًا حتى يستطيع تمديد الكهرباء، ولا يخفى أن الإمارات من أكثر الدول العربية تنميةً وحداثة، وفي المقابل قد يحتاج المواطن الجزائري إلى ستة شهور، حتى يستطيع تمديد الكهرباء[1] دون الإشارة إلى التفاصيل التي تكتنف تلك المدة من التعقيدات، والمعاملات، والرشاوى وما إلى ذلك من متطلبات البيروقراطية، لإنجاز معاملة خدماتية كهذه.

وفي المقابل تم للراوي ما أراد في الولايات المتحدة، دون أن يضطر ورفاقه إلى تقديم ما يضطرون إليه في البلاد العربية. "لم ندفع رشوة لأحد طيلة إقامتنا. ولا مرة واحدة. لم ندفع رشوة للحصول على تليفون. أو تيلفزيون. أو شقة. أو سيارة. أو شهادة."[2] وحتى عندما يرتكبون التجاوزات، فالتعامل لديهم، غير التعامل لدى العرب "عندما يستوقفك بوليس المرور يحدثك بأدب، ويعطيك قسيمة المخالفة بأدب. وتدفع الغرامة بالبريد. لا صفعات ولا لعنات ولا إكراميات. ولا: "وقف يا ولد!". ولا "ما تعرف أنا مين؟!"[3] وهذا واقعٌ موجودٌ بحرفياته في أرجاء الوطن العربي الممزق، فعندما يستوقفك الشرطي على أي حاجزٍ في بلاد العرب، ينظر إليك نظرة الشريف إلى المجرم، يعاملك بكل فوقيةٍ وحذر، وتسترجع شريط ما قد تظنه مخالفاتٍ قد ارتكبتها في حياتك، وتتساءل عن سبب تلك النظرات إليك، وينسى ذلك الشرطي أن المتهم بريءٌ حتى تثبت إدانته! فما بالك بالمواطن العادي! ربما يتساءل القارئ عن علاقة رجال الأمن والشرطة بالبيروقراطية والإدارة؟! وهل أن استطراد الراوي المتكرر قد جرّ معه الباحث دون أن يدري؟ والإجابة عن ذلك بسيطة، فكل تلك الممارسات، تنتشر وتتكاثر في ظل النظام الديكتاتوري، والذي من أصل دعائمه البيروقراطية الإدارية التي تؤدي إلى "استخدام السلطة دون أي مبرر منطقي"[4] والسبب الأبرز في ذلك "غياب الديمقراطية والرقابة الشعبية ..."[5] وقد دفع ذلك الراوي وزملاءه، إلى سؤال طلاب الإدارة العرب، عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التراجع الكبير لدى العرب. "وكنا نسأل طالب الإدارة "لماذا؟! لماذا؟! لماذا؟! لماذا يدفع الناس الرشاوى في الوطن العربي ولا يدفعونها هنا؟ لماذا تتعطّل الإجراءات عندنا ولا تتعطّل عندهم؟ لماذا تصدر معظم رخص القيادة في العالم العربي، بالواسطة أو بالرشوة، وبدون امتحان من أي نوع؟" ويرد طالب الإدارة أن هذا كله سيتغير عندما نعود ونبدأ في تطبيق النظم الحديثة في الإدارة العامة وإدارة الأعمال. عندما نعود نحن ونتولى دفّة القيادة..."[6] فهمُّ الوطن كان متمكن من نفوسهم وهم في بلاد الغربة، ومع ذلك، كان يحدوهم الأمل إلى التغيير، لتطبيق ما تعلموه وعايشوه في بلاد الغرب في بلادهم، "كانت المفارقة مذهلة بين الشرق والغرب

---

[1] أحمد نظيف، انظر خرائط البيروقراطية العربية، موقع رصيف 22، https://raseef22.com/economy/2017/04/06/%D8%AE%D8%A7%D8%B1%D8%B7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B1%D9%88%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D8%AA%D9%81%D8%B1%D8%B6%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84/.

[2] العصفورية، ص54.

[3] العصفورية، ص54.

[4] عبد الله الوقداني، البيروقراطية وإدراة المعرفة، ورقة عمل مقدمة للمؤتمر الدولي للتنمية الإدارية. الرياض، 2009، ص4.

[5] عبد الغفار شكر، الإصلاح الإداري وتحسين مناخ الاستثمار، سلسلة أوراق سياسات تعزيز الشفافية ومكافحة الفساد، مركز المشروعات الدولية الخاصة (CIPE)، القاهرة، 2009، ص19.

[6] العصفورية، ص54.

حيث لا تتمّ معاملة واحدة إلا بإجراءات لا تنتهي، وبين هذا المجتمع حيث لا تكاد توجد معاملات."[1]ويضيف الكاتب أن الأمور قد تغيرت حتى في الولايات المتحدة نفسها! "لا بُدّ أن أضيف أن هذا كله كان قبل ترهل الإدارة الأمريكية. يقول لي الأصدقاء الأمريكيون أن الوضع لم يعد كما كان وأن الروتين، يدخل كل شيء."[2] وتلك من نتائج ترسب البيروقراطية، وانتقالها بين الدول ونموّها إلى الحد الذي أصبح عنده من الصعب السيطرة عليها.

البيروقراطية الأكاديمية:

من أول المراحل التي يواجه فيها الإنسان المظاهر البيروقراطية في بداية نضجه، واحتكاكه الحقيقي بالنظم الإدارية، والتي يلتمس فيها البيروقراطية بشكل حقيقي، المرحلة الجامعية، ليس معنى ذلك أن البيروقراطية مختفية من النظام التعليمي، ومن النظم الأخرى التي يواجهها الإنسان في طفولته، ولكن لا يشعر الإنسان بتلك الأنظمة إلا حال نضجه ووعيه، وغالبًا ما تكون هذه المرحلة هي المرحلة الجامعية. "في كلية الحقوق بجامعة القاهرة التقيت، لأوّل مرّة، بالبيروقراطية الحقيقية. كان الحصول على شهادة عادية تثبت انتسابي إلى الكليّة عملية صعبة تحتاج إلى عدّة أيام، وعدّة مراجعات."[3]

وقد بدأت هذه المرحلة مع فؤاد في شقة الحرية، منذ وصوله المطار المصري "في المرّات السابقة كلّها كان هناك شخص أكبر منه يتولّى ترتيبات السفر. يعالج الروتين المُعقّد الذي لا ينتهي"[4] وتستمر هذه التعقيدات معه لأيامٍ منذ وصوله القاهرة وحتى عثوره على أصدقائه الذين سبقوه إلى القاهرة من قبل، وأثناء مكوثه في البنسيون[5] تعرف على بعض الزائرين لمصر وقد كانوا من غير العرب، وقد كان محور شكواهم وتذمرهم يتعلق بمظهر من مظاهر البيروقراطية. "ثم بدأ أحد السويسريين يشكو: – قضينا الآن أسبوعين في القاهرة. ولم نعثر على أحد نبحث معه موضوع الفندق. يحيلونا من جهة إلى أخرى، من وزارة إلى وزارة. ان شركتي تطلب منا العودة. كيف نعود قبل أن نتحدّث مع أحد؟"[6] فهؤلاء جاءوا مستثمرين لمصر، ومع ذلك لا يجدون من يتحدثون معه ويعرضون عليه مشروعهم، الأمر الذي دفع الزوار الأمريكان إلى السخرية من النظام المصري، "– هذا هو الروتين المصري. ألم تسمع عنه من قبل؟ المصريون هم الذين اخترعوا الروتين. حظًا سعيدًا! سوف يستغرق بناء فندقك مُدّة أطول من المدة التي استغرقها بناء الأهرام. وضحك الأمريكي على نكتته السخيفة. شعر فؤاد بالامتعاض..."[7] وبطبيعة الحال فإن ذلك الشعور سوف يزول شيئًا فشيئًا عن فؤاد، لا سيما بعد معايشته للنظام الإداري الذي تسير به مصر. بعد رحلةٍ أخرى قام بها فؤاد بين أقسام البوليس ودوائر التسجيل فشل فيها، شرح للمدام صاحبة البنسيون ما حدث معه، فعلق الزائر الأمريكي

[1] حياة في الإدارة، ص27.
[2] حياة في الإدارة، ص27.
[3] المرجع السابق، ص20.
[4] شقة الحرية، ص18.
[5] الفندق.
[6] شقة الحرية، ص32.
[7] شقة الحرية، ص32.

من جديد: "ألم أقل لكم؟ هذا هو الروتين المصري. سوف يستغرق تسجيل جوازك مدة أطول من المدة التي استغرقها بناء الأهرام."[1] وتستمر رحلته بين الدوائر والأقسام حتى التقى بصحبته، لتبدأ المرحلة البيروقراطية الجامعية، والتي عبّر عنها بطرق مختلفة، فمثلًا في قضية تغيير اسمه يقول البروفسور مخاطبًا من أراد مساعدته في ذلك: "لا تتعب نفسك. حاولت، مرارًا وتكرارًا، تغيير اسمي فلم أفلح. قيل لي في الأحوال المدنية إن الموظفين المختصّين أدخلوا اسمي في الكومبيتر ولا يعرفون الآن كيف يفتحون الكومبيتر ليستخرجوا اسمي منه"[2] ولعل هذه الحادثة تشير بطريقةٍ أو بأخرى لما حدث مع الروائي نفسه، أثناء دراسته الحقوق في جامعة القاهرة "عندما دخلت الكلية لاحظت وجود خطأ كتابي في اسمي، وقد استغرقت محاولاتي إصلاح الخطأ طيلة سنوات الدراسة ولم تُكلّل بالنجاح إلا قُبيل صدور الشهادة."[3] وفي هذا دلالة واضحة على التعقيدات الكبيرة التي تواجه الطلاب في الجامعات العربية في ذلك الوقت وإلى الآن، وكيف أن خطأً كهذا احتاج كل ذلك الوقت لإصلاحه! ويزيد الروائي في تأكيد المظاهر البيروقراطية في الجامعة بأنه "لم تنته مشاكلنا مع بيروقراطية الكلية إلا عندما تعرّف أحد الزملاء على سكرتير العميد. بعدها، أصبحت الأمور ميسّرة كل اليسر."[4] الواسطة والمحسوبية –المعارف– من أكثر المظاهر البيروقراطية انتشارًا في المجتمعات العربية، وما الجامعة إلا جزءٌ من ذلك المجتمع فهي "إحدى المنظمات البيروقراطية التي تسعى إلى تحقيق أهداف المجتمع، وتعكس في أنشطتها وسلوكها خصائص المجتمع الذي تعمل فيه"[5] ولعلّ أبرز التجليات النقدية للبيروقراطية الجامعية، يسردها راوي العصفورية، البروفسور، عندما عُيّن في الجامعة، وتلقى ترقياته فيها.

فهو يبادر الحكيم بقصته دون أن يسأله الحكيم ذلك، "حسنًا! هل تريد أن تعرف كيف أصبحت فُل بروفسور؟ –أوكي"[6] وبعد موافقة الطبيب يبدأ البروفسور ذلك وينتهي بعد أربع صفحات، كان مجملُ الحديث فيهن حول الطريقة التي يحصل بها بعض البروفسورات والأساتذة على درجاتهم العلمية. "وأستاذ كرسي[7] من جامعة ديكي المتخصّصة في منح درجات الدكتوراه للنوابغ العرب عن طريق الاستشعار عن بعد بأشعة الليزر"[8] ويبدو أن الراوي يشير إلى قضية الشهادات العلمية المزورة بأسلوبه الساخر المُعتاد، فكيف لباحثٍ أن يمنح درجته العلمية عن طريق الاستشعار عن بعد؟! ويكمل في نقدٍ آخر حيث استماتة الأساتذة الكبار على مناصبهم، وعدم التدوير الحقيقي للمناصب والوظائف. "دعني أخبرك. هؤلاء أساتذة كراسي يضطرون إلى حمل كراسيهم معهم حتى لا يجلس عليها الأساتذة المساعدون والمشاركون."[9] وقد أطلق الراوي على هذا الارتباط الكبير بين الأستاذ ومنصبه "عقدة الكرسي": "وقرّرت ألا أفارق الكرسي ما حييت. وأوصي بدفنه

---

[1] شقة الحرية، ص35.
[2] العصفورية، ص122.
[3] حياة في الإدارة، ص20-21.
[4] المرجع السابق، ص21.
[5] خالد الصرايرة، ومحمد القضاة، القيم البيروقراطية لدى الموظفين الإداريين العاملين في جامعة مؤتة وعلاقتها بأدائهم الوظيفي من وجهة نظر القيادات الإدارية فيها، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد 5، عدد3، 2009، ص234.
[6] العصفورية، ص214.
[7] لقب يُستخدم لأعلى الأساتذة مرتبة ومكانة، ولكن يُلاحظ أن الراوي يسخر من هذا اللقب من موضع لآخر حسب طريقة طرحه.
[8] العصفورية، ص214.
[9] العصفورية، ص116.

معي بعد موتي. أصبتُ بعقدة الكرسي. وعقدة الكرسي، يا نطاسي، عقدة خطيرة لا تقلّ في خطورتها عن عقدة الخواجة. أصبحت أصطحب الكرسي معي حيثما ذهبت. هذا الكرسي الذي أجلس عليه الآن هو نفس الكرسي الذي أنا أستاذه."[1] وفي هذا نقدٌ للجامعات ونظامها الإداري السلطوي، فالعمادة غالبًا ما تدوّر ليأخذ كلٌ من الأساتذة نصيبه في العمادة والرياسة، وحتى إن وُجِدَ من هو أجدر بعمادة كليةٍ ما، من غيره من الأساتذة، فإنه يتم تغييره أيضًا، ليأخذ غيره نصيبه من القيادة، فبعض أنظمة الجامعات ترى أنه من حق كل أستاذ وصل لدرجة معينة أن يكون رئيسًا لقسمه مدة عامين، وهكذا يتعاقب الأساتذة في المناصب بشكلٍ دورانيٍ بحت، ومن أسعفه طول العمر نال دورةً جديدة من الرياسة، أما إذا تدخل العامل السياسي وذلك موقوفٌ على المناصب الكبيرة إلى حدٍ ما، فالتكليف محصورٌ في بعض الأسماء وحسب، ويبقى الانتقاد حبيس الغرف المغلقة، ولسان حال الطلاب "ساق الله أيام الدكتور الفلاني" وربما هذه "الساق الله" تكون فقط لأن الدكتور الفلاني ييسر المعاملة أكثر من غيره، وليس لأنه طوّر أشياء جديدة! وهذا ما نعايشه واقعًا في جامعاتنا المختلفة، ويشير إليه الوزير العميد في كتابه حياة في الإدارة، "تعاقب على عمادة الكلية خلال فترة دراستي ثلاثة عمداء، ولم يكن هناك أي أثر للتغيير. بلغ من قوة المؤسسة العتيدة، ولكلية الحقوق تاريخ طويل مجيد، أنها لم تُبقِ دورًا يُذكر للعميد، هذا إذا كان العميد ينوي ممارسة أيّ دور يُذكر."[2] وفي الكثير من الحالات قد لا يكون الخلل في شخص الدكتور أو الأستاذ الذي تولّى المنصب، فمنذ تولّيه لمنصبه، تنهال عليه الملفات والمشكلات والتوقيعات والجداول والمواد والساعات، وما إلى ذلك من المتطلبات الروتينية للأقسام والتخصصات، فلا يجد المسكين وقتًا لترتيب مكتبه في أغلب الأحيان.

يسأل الحكيم هذه المرّة "–وكيف شفت الحياة الأكاديمية، يا بروفسور؟ – أوه! أعجبتني إلى حدّ القتل. أيْ أعجبتني قتلًا. أو قتلتني إعجابًا. حياة ظريفة. وأظرف ما فيها المجالس. مجلس المادّة. مجلس المنهج. مجلس الفرع. مجلس القسم ... – حاجة يا بروفسور! –اعلم، يا طبيب، أن هناك ما لا يقلّ عن ألف مجلس في الجامعة المتقدمة وأضعاف ذلك العدد في الجامعات المتخلفة. وأظرف ما في هذه المجالس أنها لا تفعل شيئًا سوى إعادة اختراع العجلة. تكرار نفس القرارات. خذ، مثلًا، تعيين عميد. أعني تعيين معيد. أعني تعيين عميد..."[3] فالبروفسور يجلّي البيروقراطية بكل مظاهرها في الإدارة الجامعية، التي يُفترض أن تكون قيادةً فاعلة وليس إدارة بيروقراطية، فهي الأساس الذي ينبع منه الخريجون، الذين يُفترض بهم أن يقودوا الدولة إلى البناء والتنمية، ولكن بما يُمارس عليهم من قوانين لا يمكن أن يتم ذلك، فيروي البروفسور أن ماو[4] حاول أن يستأصل البيروقراطية ويقضي عليها، عن طريق الطلاب الذين قتلوا البيروقراطيين، ولكن في النهاية، "تخرّج الطلبة وأصبحوا بيروقراطيين وامتنعوا عن قتل أنفسهم."[5] وذلك مؤداه أن جيلًا مورس عليه شتى أنواع الرجعية البيروقراطية، وتعلَّمَ بنظامها، وتجرع روتينها كيف له أن يتخلص منها؟!

---

[1] العصفورية، ص116.
[2] حياة في الإدارة، ص21.
[3] العصفورية، ص117.
[4] ماو تسي تونغ، (1893-1976) زعيم الحزب الشيوعي الصيني، اعتنى بنظام التعليم والصحة والتصنيع، وحول النظام الرأس مالي إلى اشتراكي، وأشعل ثورة ثقافية كبرى في الصين، فأطلق يد الطلبة وخدموا كحرس حمر، ولكنهم في النهاية أفسدوا البلاد بالفوضى والحرب الأهلية، ويكيبيديا.
[5] العصفورية، ص290.

ومظهرٌ آخر من مظاهر البيروقراطية يتعرض له راوي العصفورية، يتعلق باللجان "لماذا ذكّرتني، يا طبيب، بتلك الأيام الحلوة؟ أيام المجالس والنقاش واللجان. آه! اللجان! كدت أنسى اللجان. مع أني كنت عضوًا في كل لجنة منها. لجنة الأرقام السّريّة. ولجنة الأرقام العلنية. ولجنة ... اللجان في كل مكان"[1] فالمجالس واللجان المتعددة من أسس البيروقراطية، التي تضيع الأوقات، وتغرق الناس في الروتين، لتحجب القضايا الأساسية التي يجب أن يلتفتوا إليها، كالتنمية والتجديد والتطوير والحداثة، إلى العجلة الدوارة، التي لا تسمن ولا تغني من فائدة.

يقود حديث اللجان الذي هو أحد مظاهر البيروقراطية، إلى بيروقراطية أخرى غير بيروقراطية الجامعات، وهي البيروقراطية الحكومية، إذ "لم يقتصر الأمر على البيروقراطية الجامعية فقد كانت هناك بيروقراطية أضخم: بيروقراطية الحكومة"[2].

البيروقراطية الحكومية:

وأكثر تجليات النقدِ للبيروقراطية الحكومية، تجده في رواية العصفورية، عندما اختار البروفسور أن يتحدث عن تجربته الوزارية. "– أود أن أتحدث عن تجربتي الوزارية. – وايْ نوت؟ – حسنًا! حسنًا! تولّيتُ وزارة الشؤون الهامة كما سبق أن أخبرتك. وأتيتُ وأنا أنوي إصلاح البيروقراطية وتهذيبها وتشذيبها."[3] فلدى الراوي همٌّ وهدف، وهو إصلاح البيروقراطية وتقليمها، فهو يشعر بالمشاكل التي تسببها البيروقراطية وبخطرها الكبير على الدولة.

بدأ البروفسور إصلاحاته "على مبدأ "تغدّا بهم قبل أن يتعشوا بك". ألفت 51 لجنة. في مكتب الوزير وحده. وتركت اللجان تتصارع. وبدأت أنا أتّخذ القرارات"[4] فيتضح أن الراوي يريد للبيروقراطية أن تنشغل بنفسها لا به، لذلك شكل تلك اللجان لتتصارع فيما بينها ويقرر هو ما يشاء، لأجل الإصلاح الإداري الذي يطمح إليه. وبعد تشكيله للكثير من اللجان "تنازع البيروقراطيون، وأصبح الوزير فعّالًا. بدأت الأمور بداية تبشّر بالخير."[5] وذلك لأنه شغل البيروقراطية بالبيروقراطية، أي شغلها بنفسها عنه، لكنه ترك ثغرةً جعلتها تنتبه إليه "ثم ارتكبت خطأً فادحًا. شكلت "لجنة افتتاح مشاريع الوزير" وبدأت هذه اللجنة ترتب لي احتفالًا عند افتتاح كل مشروع. تدريجيًا، بدأت أستلذّ العملية، ثم أنتشي بها، تم تحوّلتُ، في النهاية إلى مدمن إدمانًا تامًا"[6] وبذلك وجدت البيروقراطية لنفسها مكانًا، في نفس الوزير لتشغله عما يفترض أن يقوم به من إصلاحاتٍ وتطوير، وبذلك يشير الراوي إلى حقيقةٍ واقعية، حيث الأمور الهامشية التي ينشغل بها المسئولون عن الوظائف المنوطة بهم.

---

[1] العصفورية، ص118.
[2] حياة في الإدارة، ص21.
[3] العصفورية، ص76.
[4] العصفورية، ص76.
[5] العصفورية، ص76.
[6] العصفورية، ص76.

ومن ثم ضربةً أخرى يتلقاها الوزير من البيروقراطية حيث "لم تبقَ محلات من أي نوع لافتتاحها. وهنا ضربت البيروقراطية ضربتها. اقترحت عليّ إنشاء "لجنة زيارات الوزير المفاجئة". ووافقت، ومن سوء حظي. بدأت أقوم بزيارات تفتيشية مفاجئة لا يعرف عنها أحد سوى رؤساء تحرير الصحف المحليّة ومراسلي وكالات الأنباء الدولية. ونجحت الأخرى نجاحًا هائلًا. ثم ما لبثَتْ أن تحوّلت، هي الأخرى، إلى إدمان يومي."[1] فما لبث أن تخلص من سيطرة البيروقراطية عليه بلجنة الافتتاحات، حتى أمطرته بلجنةِ الزيارات المفاجئة، والتي أصبحت إدمانًا بدورها، لا سيما مع وجود الإعلام. "الإعلام، يا عزيزي النطاسي، الإعلام. هذا عصر الإعلام. الكلمة المقروءة والصورة المرئية. الصورة أهم شيء. إذا لم يرني الناس على صفحات الجرائد أفتتح مشروعًا، كل يوم، فماذا سيقولون؟ "البروفسور كسلان!"..."[2] وهنا يجسد الراوي الداء الذي يقع فيه المسئولون، حيث إدمان المجد، والظهور على الإعلام، وإن كان ذلك على حساب مهامهم المفترضة.

يعي الراوي أيُّ سلاحٍ تستخدمه البيروقراطية، لإماتة المواضيع وإطلاق يد الروتين، والسلاح الأنجع، هو اللجان التي تُشكل للبتِ في الأمور المختلفة، لذلك استخدم البروفسور سلاح البيروقراطية ضدها، ونجح كما ورد أعلاه، لولا أن البيروقراطية تنبهت فتيقظت لتستخدم ذات السلاح ضده، وينجح ذلك السلاح، مع علم البروفسور به! وذلك ليثبت أن الخلل ابتداءً ليس في الموظفين أنفسهم، وليس في المدراء أنفسهم، ولكنه في النظام المتبع. "إن النقد اللاذع الذي يلمسه قارئ هذا الكتاب للبيروقراطية ليس مُوجّها إلى الموظفين أنفسهم، وهم بشر لا يختلفون في حبهم للإنسانية ولخيرها عن قارئ هذا الكتاب أو مؤلّفه، ولكنه مُوجّهٌ إلى وضع التخلف الشامل الذي لا يمثّل التخلف الإداري سوى وجه واحد من وجوهه العديدة."[3] فالتخلف شاملٌ وعام، ولكي يتم الوصول إلى حلٍ يجب أن يكون الحلُّ شاملًا، وإلا فما فائدة إصلاح دولاب السيارة، والموتور معطوب؟!

ومن الأسلحة الأخرى التي تستخدمها البيروقراطية لإشغال المسئولين الكبار عن مهام الإصلاح والتنمية، ربط كل الأمور بموافقة الوزير أو المسئول الخطية! الأمر الذي لا يدع مجالًا له لكي يربي أولاده حتى. "وهنا ضربت البيروقراطية ضربتها الثانية. "ضربة كانت من معلّم * خلّت "الوزير" يبلّم" ... استدعت البيروقراطية مستشارًا قانونيًا عمره قرن ونصف من مصلحة الجمارك الخديويّة وكلّفته بوضع نظام قانوني جديد للوزارة. أعدّ صاحبنا نظامًا يربط كل شيء بموافقة الوزير."[4] فيُلاحظ النقد الساخر لهذا الأمر، لا سيما عند وصفه للمستشار القانوني الذي جيء به من بقايا النظام الملكي، وعمره قرن ونصف، لكي يقوم بوضع النظام القانوني الجديد للوزارة! وبطبيعة الحال، فإن فكر الرجل قد عشش فيه القدم والرجعية البائدة. ومن جملة ما يجب أن يوافق عليه الوزير. "وعندما أقول لك كل شيء فأنا أعني كل شيء. إيفريثنج! كنتُ طريح الفراش عندما بدأ السقف يخرّ معاملات ... يُسمح للموظّف مستعجل بن عجلان العجيلان باستخدام

[1] العصفورية، ص78.
[2] العصفورية، ص77.
[3] حياة في الإدارة، ص28.
[4] العصفورية، ص79.

أسانسير الوزارة لمدة لا تزيد عن دقيقتين وبارتفاع لا يتجاوز 4 طوابق ولمرّة واحدة ..."[1] وهلم جرا من المعاملات المشابهة التي لا تحتاج فعليًا لعلم الوزير حتى، ولكن الراوي يسخر من النظم الإدارية المعمول بها، وفي نفس الوقت يريد أن يبين مقدار الرجعية والاستخفاف التي تمر به الوزارة العربية. وعندما تساءل الحكيم: "وليش ما فوّضت الصلاحيات؟ – سؤال ذكي! تفويض الصلاحيات يحتاج إلى حد أدنى من النشاط. وقد كنت وقتها طريح الفراش. عاجزًا عن المشي. عاجزًا عن الحركة الحقيقية. عاجزًا عن كل شيء ما عدا التوقيع"[2] والإجابة الدقيقة التي يريد الراوي أن يجيبها، تحتاج إلى فطنة، فالوزير يخشى إن فوّض الصلاحيات، أن يضيع بعدها منصبه، فيبقى على حاله ويتحمل المشقة في مقابل الحفاظ على منصبه.

لذلك قرر البروفسور أن ينتقم من البيروقراطية التي لم يستطع لا إصلاحها ولا تشذيبها. "بدأت أفكر في الانتقام من البيروقراطية. بغتة، رأيت نفسي وقد أصبحت ديكتاتورًا ... اتخذت قرارين ديكتاتوريين تاريخيين. القرار الأول أن على كل بيروقراطي أن يتخلص من 60 كلجم من وزنه خلال شهر وإلّا أُعدِمْ"[3] ظن البروفسور بقراره التاريخي الأول، أنه سيقضي على البيروقراطيين، فهذا أمرٌ غريب وليس منطقي جاء به الراوي، ليبين كيف أن البيروقراطية قد تأقلمت مع الحلول التي جاء بها ضدها. "اعتقدت، يا حكيم، أنني سأتخلّص من الكثيرين. تصوَّرت أنهم سيموتون من الجوع، أو النحافة المفاجئة. ولكن لم يحدث ما توقعته."[4] والسبب كما ذُكِرَ أعلاه هو التأقلم، والحل يكمن في الإصلاح الشامل، حتى أن القرار التاريخي الثاني والأصعب من الأول لم يخلص البروفسور من البيروقراطية. "القرار الثاني كان تاريخيًا بمعنى الكلمة. أمرت بالقبض على كل بيروقراطي مرتشٍ وإعدامه بعد محاكمة عادلة. تم القبض على نصف مليون مرتشٍ وحوكموا محاكمة عادلة وتقرر إعدامهم."[5] وذلك العدد يبين الحجم الكبير من المرتشين في الوظائف الحكومية والسبب في ذلك البيروقراطية، وهذا يقود البحث مباشرةً إلى نقطة جديدة من نقاط البيروقراطية وهي الرشوة.

الرشوة:

بعدما انتقد البروفسور صلاح الدين المنصور بسبب الفساد الذي تغط به عربستان 48، قرر صلاح الدين المنصور، محاربة البروفسور باستحداث منصبٍ بيروقراطي، يُلهي البروفسور عن كل شيء، ويشغله فيه، ويغرقه من خلاله في الرشاوى. "استحدثت منصبًا ليس له سابقة في التاريخ. المعيِّن العام! من الآن فصاعدًا لن يعيَّن إنسان في عربستان إلا بأمرك من الوزراء إلى السعاة."[6] وهكذا استلم البروفسور وظيفته الجديدة والنتيجة "– الرشاوى! الرشاوى، يا دكتور، قتلتني. الذي يريد توظيف ابن خالته يحضر لي دجاجة رشوة. والذي يريد أن يصبح سفيرًا يحضر لي سجادة رشوة. إذا كان يريد أن يكون سفيرًا في إيران يحضر

[1] العصفورية، ص79.
[2] العصفورية، ص80.
[3] العصفورية، ص223
[4] العصفورية، ص223.
[5] العصفورية، ص224.
[6] العصفورية، ص213.

سجادة إيرانية ... هلكت، يا دكتور! امتلأ المخزن الأول بالدجاج ... امتلأ المخزن الثاني بالسجّاد. امتلأ المخزن الثالث بالثلاجات. 100.000ثلّاجة."[1] استطاع صلاح الدين المنصور، أن ينال من البروفسور، عن طريق البيروقراطية، وقد تعلّل المنصور بأن كل المشاكل التي تحدث هي بسبب البشر. "مشكلتي هي البشر. أعيِّن الرجل الصالح الذي أتوسّم فيه الخير فيتحوّل إلى رجل طالح. أعيِّن النزيه فيصبح لصًّا. أعينّ الشريف فيضحي قاطع طريق."[2] وربما يكون المنصور صادقًا من بابٍ ما فيما يقول. يطرح القصيبي في حياة في الإدارة نقاشه مع أبيه، الذي يحاول أن يقنعه الاشتغال في التجارة وليس في الحكومة. "أطرق يفكّر قليلًا ثم سأل: "تنوي أن تعمل موظفًا حكوميًا؟". قلت: "نعم" قال: "هل تعرف المصير الذي ينتظر موظفي الحكومة؟". قلت: "لا". قال: "الفقر. أو السرقة!". قلت: "أرجو ألّا أفتقر. ولا أنوي أن أسرق". قال: "أنت وشأنك"."[3] فهذا نقاش بين الروائي نفسه وأبيه المطلع على أسرارٍ كثيرةٍ في الدولة، والقريب جدًا من السلطة، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يكذب على ولده، لا سيما وأنه كان "بعد أن كبر أولاده شديد الاحترام لاستقلالهم ولم يحاول، قطّ، التدخلّ في أيّ قرارات شخصية يتّخذونها، مهما كان شعوره نحوها، إلّا بالتلميح الرقيق"[4] فما قصة ما ينتظر الموظف الحكومي من خيارين أحلاهما مرّ؟ إما أن يسرق وإما أن يفتقر! "بدأت أكتشف ، يا نطاسي، أن البيروقراطية مظلومة. البيروقراطية تريد أن تعيش. ولها أولاد يريدون حقائب مدرسية وثيابًا صوفية ومصروف جيب. وأحذية وآيسكريم. والبيروقراطية تمرض وتصاب بالسرطان وأمراض القلب، والطبيب مثلك وشرواك، يتقاضى أتعابًا باهظة ثم يرسلها إلى شريكه الصيدلي الذي يبيع حبة الدوار بنصف دولار ..."[5] ويمضي البروفسور في ذكر متطلبات الحياة، ويستخدم مجازًا مرسلًا علاقته المحلية، فيذكر البيروقراطية ويريد الموظفين العاملين فيها، حيث الرواتب المتدنية التي يتقاضاها الموظفون، ولا تفي باحتياجات الحياة وطوارئها. "يشرح له الزميل المقصود. ويتم إصدار الرخصة. وأحصل على مائة دولار، ويحصل الزميل على 10% منها. مائة دولار من هنا، و50 دولارًا من هناك، و20 دولارًا من هنالك، وأتمكّن من البقاء على قيد الحياة."[6] وهكذا يضطر الموظّف إلى قبول الرشوة، بل وطلبها ليستطيع تعويض العجز في راتبه. "ويعاني موظفو الحكومة من تدني المرتبات بالمقارنة بالزيادة الكبيرة المستمرة في أسعار السلع والخدمات، علاوة على عدم عدالة المرتبات"[7] هذا على مستوى الموظفين المحتاجين، ولكن الرشوة تصبح مع التقادم مرضًا يصيب الإنسان فيصعب التخلص منه، حتى وإن حقق الكفاية المادية، يصبح باحثًا عن الكماليات، وإلا فما يجبر المدراء أصحاب الرواتب العالية على الرشوة طالما أنهم يعتاشون من مرتباتهم، سوى الطمع وضعف النفس، وهذا مؤداه أنه لا مبرر لذلك الأمر، فيجب أن تُتخذ الإجراءات الإصلاحية التنموية، ومراعاة أحوال الموظفين، وملائمة رواتبهم للغلاء المعيشي، وبعد ذلك اتخاذ الإجراءات القانونية في

[1] العصفورية، ص15.
[2] العصفورية، ص213.
[3] حياة في الإدارة، ص24.
[4] المرجع السابق، ص24.
[5] العصفورية، ص227.
[6] العصفورية، ص227.
[7] الإصلاح الإداري، وتحسين مناخ الاستثمار، ص16.

حق المخالفين، دون اختلاق المبررات، التي تسوغ للمرتشي فعله، فـ"لا شك ان ضرر البيروقراطية المرتشية عظيم في كل مكان ولكن خطرها أعظم وأشد في بلاد العالم الثالث الفقيرة"[1] ومصدر هذا القول هو الخطر الحقيقي المترتب على الفساد الناجم عن البيروقراطية لدى العرب، فالذين يُفترض بهم أن يكونوا ضد هذا الفساد هم من يخترعون المبررات لوقوعه! "أليس هذا ضد القانون؟ – ضحك نشأت: – هل نسيت؟ في مجلس الدولة أعظم العقول القانونية في مصر. ومكالمة واحدة حتّى من موظف صغير مثلي تفعل المعجزات."[2] فإن كان هذا حال رجال القانون في مجلس الدولة، فما بال الموظفين العاديين، الذين تحوّلوا إلى ماصات؟! "– الماصة، يا حكيم، هي طاولة المكتب. ولا أدري، والله!، كيف اشتقت. رُبّما من الامتصاص. ذلك أن الموظفين الذين يجلسون وراء الماصات كثيرًا ما يمتصّون من جيوب مراجعيهم. لا أدري. والسلام."[3] وربما انطبق هذا الوصف على كثيرٍ من الموظفين الحكوميين في أرجاء العالم العربي، والسبب "غياب الديمقراطية والرقابة الشعبية وغياب التأهيل الوظيفي المناسب وغلبة المركزية على أداء الجهاز الحكومي انتشر الفساد، واستغل الموظفون كما أوضحنا من قبل غموض القوانين وتعددها والتعقيدات الإدارية في ابتزاز المواطنين والحصول منهم على مدفوعات غير قانونية وأصبح الفساد الإداري والتربح والرشاوى سمات ملازمة للأداء الحكومي"[4] وهذا ما عبر عنه القصيبي في غير موضعٍ من مصنفاته، "إلى ذلك العهد البعيد يعود إحساسي العميق بأن البيروقراطية إذا لم تُلجمْ خنقت المواطن العادي المسكين. وإلى ذلك العهد يعود إحساسي العميق أن الأنظمة المُعقّدة هي المسئولة عن كثير من الفساد. والى ذلك العهد البعيد يعود اقتناعي أن السلطة العامة يجب أن تكون في خدمة الناس بدلًا من أن تُوظّف الناس لخدمتها."[5] يعبر القصيبي عن تلك الآراء من خلال تجربته الكبيرة في الوظائف الحكومية، التي كانت في موقع المسئولية، سواء في الشق الأكاديمي أم الشق الحكومي، ويربط من عدة طرق، أن النظام السياسي على علاقة مباشرة بالنظام الإداري، والذي في النهاية يكون فريسته، فتفرض البيروقراطية على السّاسة ما تريد.

البيروقراطية والسّاسة:

كما سبق، فإن الظاهر هو أن البيروقراطية نظام إداري، ولكن لهذا النظام جذوره المتشعبة في كل مكان، والمسيطرة على غالبية الأشياء في الدولة، والنظام السياسي جزء من هذه الأشياء المسيطر عليها في الدولة، والرئيس بدوره جزء من المنظومة السياسية للدولة، ودوره أن يمارس مهامه في إدارة الدولة، وإصلاحها وتنميتها، بالدرجة الأساس، ولكن الظاهر أن الرؤساء يتعاقبون على الدول، دون أن يتم الإصلاح أو يزول الفساد أو تنمى الدولة، والسبب كما يخبر الراوي هو البيروقراطية الإدارية.

[1] غازي القصيبي، التنمية.. الأسئلة الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1992، ص48.
[2] شقة الحرية، ص455.
[3] العصفورية، ص115.
[4] الإصلاح الإداري، وتحسين مناخ الاستثمار، ص19.
[5] حياة في الإدارة، ص22.

وسيتم التعرض إلى جنسين من الرؤساء في هذا المقام، الرؤساء الأمريكان، والرؤساء العرب، "وكان هناك كتابي الشهير: "البيروقراطية تخنق البيت الأبيض" ... دراسة طريفة عن نجاح البيروقراطية في شلّ كل رئيس أمريكي."[1] كان هذا مدخل الراوي ليتحدث حول البيروقراطية التي تسيطر على الرؤساء الأمريكيين، "وإلى هذا النفوذ البيروقراطي المتحكم أشار الرئيس الأمريكي ترومان عند تسلميه مقاليد السلطة إلى الرئيس أيزنهاور "سوف يجلس على الكرسي ويقول اعملوا هذا .. واعملوا ذلك – ولكن لن يحدث أي شيء""[2] فهذا رئيس أمريكي، يعترف بسيطرة البيروقراطية على البيت الأبيض، وأن الرئيس سيكون واجهةً ليس إلا.

يطلب الحكيم من البروفسور أن يعطيه خلاصة كتابه فيجيب البروفسور: "بكل سرور. اعلم، يا دكتور، أن البيروقراطية تقتل خصمها عن أحد طريقين. إما إغراقه في التفاصيل اغراقًا تامًا. وإما حجب التفاصيل عنه كلية. وفي الحالين، يخلو الجو للبيروقراطية فتبيضّ وتصفرّ وتنقرّ. البيروقراطية تفحص غريمها بذكاء. إذا وجدته نشيطًا مُحبًّا للعمل ... قتلته بالتفاصيل. وإذا وجدته كسولًا يحب الراحة، لم توصل إليه معلومة واحدة. وهذا ما فعلته البيروقراطية الأمريكية مع الرؤساء المتعاقبين"[3] وبدأ البروفسور بطرح معلومات مختصرة عن كل رئيس أمريكي ابتداءً بـ"آيزنهاور وحتى "بيل كلينتون" وأفرد حديثًا خاصًّا لـ"نيكسون" الذي كاد أن يقضي على البيروقراطية، عن طريق إشغالها بنفسها كما فعل البروفسور من قبل مقتديًا بنظرية "نيكسون" وهي إشغال البيروقراطية بنفسها، ولكن دومًا تجد البيروقراطية لها ثغرة، فتُفشل "نيكسون" يقول البروفسور "بعدها، لم يحاول أي رئيس أمريكي تحدّي البيروقراطية"[4] ومن الأمثلة الواقعية لهذا الإفشال، محاولة الرئيس الأمريكي نيكسون إزالة بعض الأبنية الرديئة التي بُنيت إبّان الحرب العالمية الأولى، وتلكؤ الجهات المعنية في تنفيذ أوامر الرئيس، حتى أنه ظل يتابع الموضوع بشكل أسبوعي، لينجح بعد حوالي سنتين في هدم الأبنية. "إن منظر رئيس الجمهورية في أقوى دولة في العالم، الرجل الذي يمسك بمفاتيح الحرب النووية المدمرة، وهو في صراع مستميت مع جهازه الإداري لإزالة بعض المباني المؤقتة هو منظر عجيب غريب ولكنه أمر لا يستغربه كل من التحم بالبيروقراطية وحاول أن يخضعها لرغباته."[5] فليس هناك كبيرٌ على البيروقراطية! لدرجة أنهم يقولون: "لا تضيع وقتك مع الوزير والوكيل .. فإنني سأدلّك على الموظف الصغير الذي يحل لك المشكلة"[6] فإن كان الوزير لا يستطيع تحرير معاملةٍ دون توقيع موظف صغير، فكيف له أن يعاقب الفاسد، أو يصدر قراراتٍ إصلاحية جديدة؟!

أما الرؤساء العرب فعبد الناصر والسادات، يقول الراوي حول ذلك: "هل تعرف أن البيروقراطية قتلت صديقي جمال عبد الناصر وصديقي أنور السادات؟"[7] بالتأكيد أنكر الطبيب هذا القول وبين الطريقة التي مات فيها كلًا من الرئيسين المصريين، ولكن فلسفة الراوي دائمًا مختلفة عن المباشرة التي يتعامل بها

---

[1] العصفورية، ص286.
[2] غازي القصيبي، التنمية وجها لوجه، تهامة للنشر، جدة، ط2، 1989، ص70.
[3] العصفورية، ص286.
[4] العصفورية، ص290.
[5] التنمية وجها لوجه، ص71.
[6] المرجع السابق، ص70.
[7] العصفورية، ص291.

الطبيب. "– عفوًا، يا بروفسور! وعدت بالحديث عن عبد الناصر والسادات. – أوكي! اكتشْفت البيروقراطية حب صديقي جمال عبد الناصر للعمل فأمطرته بالأوراق. كانت الأوراق تأتي إلى منزله في كميونات[1]. وكان ينكب عليها منذ أن يستيقظ حتى فجر اليوم التالي. الأوراق تنهمر، وهو يوقّع. وماذا كان يوقّع؟ "قرار جمهوري بتعيين ... ظلّ يقرأ ويوقّع حتى قتلته الأوراق"[2] فالراوي يريد أن يبين سيطرة النظام البيروقراطي على الرئيس المصري بطريقته الخاصة، وكيف أن انشغاله الدائم بالأوراق سبب له الأزمة القلبية التي قتلته. أما الرئيس الآخر الذي قتلته البيروقراطية فهو "صديقي الرئيس المؤمن الذي كان مكّارًا. وكان حريصًا على ألّا يكرر تجربة عبد الناصر. بمجرد تولّي السادات الرئاسة جمع أركان البيروقراطية في حديقة القصر الجمهوري ووقف فيهم خطيبًا ... وإياكم ثم إياكم أن ترسلوا لي أوراقًا أ تقارير أو معاملات، فهذه تفاصيل، والتفاصيل للفقاقيع، والفقاقيع يعني حضراتكم" ... والنتيجة أنه لم يقرأ التقرير الأمني الذي حذّره من الذهاب إلى المنصّة. وكان ما كان."[3] ويريد الراوي أيضًا أن ينسب موت السادات إلى البيروقراطية على طريقته أيضًا، فالأول قتله الاهتمام بالتفاصيل، والآخر قتله الإهمال للتفاصيل.

وعلى أية حال، كان هذا غيضٌ من فيض العداء بين الروائي والبيروقراطية، التي حاربها في جل رواياته، وكتبه، وحياته العملية. إن سطوة البيروقراطية بالغةٌ في العالم أجمع، كما تبيّن، ولكنها أكثر نفوذًا عند العرب بطيعة الحال. "وينتهي البحث إلى أن الإحصائيات والمعلومات المتوفّرة تشير إلى أن الأجهزة البيروقراطية تحوّلت في معظم بلاد العالم الثالث إلى مراكز قوّة لا يمكن السيطرة عليها ولا تذعن لسلطة أحد وتعمل على تحقيق أهدافها الشخصية عن طريق الابتزاز المنظم والرشوة، يساعدها على نشر أذرعتها في كل مكان ذلك العدد الهائل المتزايد من التعليمات والأنظمة والأجهزة البيروقراطية"[4] وأن أي محاولات لإصلاحها وتشذيبها والقضاء عليها هي محاولاتٌ فاشلة، والسبب بكل بساطة، أن من يقوم بهذه المحاولات هم أرباب البيروقراطية أنفسهم "التخطيط للتنمية يتم على أيدي البيروقراطيين؛ وتنفيذ مشاريع التنمية يتمّ بواسطة البيروقراطيين؛ أي غرابة، إذن، في ان تسقط ثمار التنمية في أحضان البيروقراطيين؟. من المستحيل ان يخطط إنسان عاقل لما يضرّه أو يضرّ أولاده"[5] وتتضح مدى فداحة الأخطار الهائلة لهذا النظام الإداري في أن بعض الباحثين قد اعتبروها من الأمراض النفسية! "ويمكن أن نجد في علم النفس تشخيصًا جيدًا لأمراض البيروقراطية من الناحية السيكولوجية باعتبارها أعراضًا غير سوية للسلوك الإداري، حيث تتسم الشخصية الإدارية البيروقراطية بكثير من ملامح السلوك المرضي أو غير السوي التي تعادي الابتكار والتجديد"[6] وبذلك لا يمكن السكوت على هذه الحالات المرضية في المنظومة الإدارية، ولا بد من إصلاحها، ولكن ليس من خلالها؛ لأنه كما سبق لن تصلح البيروقراطية نفسها بنفسها، ومهما حاول الآخرون إصلاحها كالبروفسور والرئيس الأمريكي "نيكسون" وغيرهم من الشخصيات الروائية لدى القصيبي، أو الحقيقية في عالم الواقع،

[1] الشاحنات، وعربات النقل الكبيرة.
[2] العصفورية، ص292.
[3] العصفورية، ص292-293.
[4] التنمية .. الأسئلة الكبرى، ص49.
[5] المرجع السابق، ص45.
[6] الإصلاح الإداري، وتحسين مناخ الاستثمار، ص14.

فإنهم فشلوا، وذلك لأن التغيير والإصلاح الإداري يتطلب "توفير الإطار السياسي المناسب لتنفيذ برنامج الإصلاح الإداري باعتبار أن الديمقراطية (سلطة الشعب) هي أفضل علاج للبيروقراطية (سلطة المكاتب)، حيث يساعد الإصلاح السياسي الديمقراطي على توفير مقومات الحد من البيروقراطية وفي مقدمتها الرقابة الشعبية الفعالة ..."[1] فـ"إذا كانت البيروقراطية هي سلطة الموظفين أو حكم المكاتب بالتعبير الحرفي للمصطلح فإن علاجها يقوم بإقامة سلطة الشعب أو حكم الشعب وهو الديمقراطية."[2] وبذلك تكون النتيجة هي ذات النتيجة التي توصّل إليها البروفسور عن طريق مراكز التفكير والبحث العلمي، وتكمن في أنه لا صلاح لأحوال الأمة العربية، إلا من خلال إقامة الحكم الديمقراطي كما ورد في المباحث السابقة، ومن خلال ذلك الحكم، تتم الديمقراطية الشاملة في شتى المجالات، إن تولّى البلاد من أخلصوا لها وليس لانتماءاتهم السياسية.

لقد طوّع الكاتب الفن الروائي؛ لأجل أن يتحمل الهموم الكبيرة التي تنتابه في مختلف المجالات، والمجال الإداري كان أحد تلك المجالات الهامّة التي التفت إليها الروائي بشكلٍ كبيرٍ في رواياته، دون أن يفسد ذلك فنية الرواية، بل إنه استخدم التكنيكات الروائية لتدعيم الأفكار التي غزت رواياته، واستخدم مختلف التقنيات السردية لتوضيح الأفكار التي يريد أن يصل بها إلى ذهن المتلقي دون مللٍ أو مباشرة.

[1] المرجع السابق، ص10.
[2] المرجع السابق، ص38.

المبحث الثاني: النقد النفسي والفلسفي:

أولًا: النقد النفسي:

قبل البدء في الحديث، عن علم النفس والأدبِ في هذا الجزء من الرسالة، ينبغي الإشارة إلى أن الباحث لا يُعنى بالتحليل النفسي لروايات القصيبي، بقدر ما يعنيه، تجليات النقد لعلم النفس في رواياته، أما عن التحليل النفسي فميدانه واسعٌ في تلك الروايات، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال، أن يُفصل بين العمل الفني وعلم النفس. "إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس"[1] ولعلّ العصفورية وحدها تحتاجُ لدراسةٍ خاصّة، لتحليلها تحليلًا نفسيًا.

تعددت المعارف والقضايا التي تناولها غازي القصيبي في رواياته، ولم يكن يقتصر على موضوعٍ بعينه، ويمضي فيه حتى آخر الرواية، بل كان يجول في العلوم والمعارف المختلفة، وقد دعمه في ذلك ثقافته الموسوعية، "إنها رواية جميلة وفاتنة تعكس ثقافية موسوعية للمؤلف، وأقول موسوعية ولا أقول معلوماتية، لأن ما ورد بداخل الرواية من أشخاص وقضايا وأزمنة، لم يرد على سبيل الاستدعاء المعلومات، وإنما ورد ضمن منظومة تدفقت فيها ثقافة المؤلف وكأنه يأخذ من معين لا ينضب"[2] كان هذا الحديث عن الرواية العصفورية، التي شغلت النقاد والباحثين، أكثر من غيرها من روايات القصيبي، وقد أورد الباحث فيما سبق الاختلاف بين النقاد في تصنيف العصفورية، وإلصاقها بتصنيفٍ يُريح الناقد نفسه! ويعتقد الباحث أن أي تصنيفٍ للعصفورية، يحشرها في زاويةٍ محددة هو ظلمٌ لها، ويعترف الغذامي في إحدى المقابلات الصحفية، بأن "رواية العصفورية هي من الروايات المحيرة، ولذلك وصفتها أنها رواية ما بعد الحداثة، لأنها رواية متجاوزة لكل شروط القيد النصي، ومنفجرة من داخلها، أنا كتبت عن المعلومة في العصفورية، المعلومة بوصفها شخصية سردية ..."[3] وعند الرجوع لما كتب الغذامي عن المعلومة كان يقول: "وفي العصفورية لغازي القصيبي جاءت المعلومة لتكون شخصية سردية، وجرى توزيع الأحداث على تقلبات سردية ذكية للمعلومات ذاتها"[4] ومع أنه قال: إن المعلومة شخصية سردية، فإنه لم يحدد طبيعة تلك المعلومة، ولا يمكن أن يحدها بجانب واحدٍ من المعلومات؛ لأنها جاءت في المجالات المتعددة والكثيرة، ناهيك عن أن لفظة المعلومة قد تُحجّم ما جاء في العصفورية، فهي لم تكن كتابًا علميًا في المقام الأول، بل هي بوحٌ سرديٌّ مبنيٌّ على ثقافةٍ معرفيةٍ وموسوعية، ورؤيةٍ معمقةٍ للحالةِ العربية، على أية حال، رغُم أن الغذامي لم يحدد نوع المعلومة الواردة في العصفورية، إلا أنه يعتبرها رواية نفسية! " – هل لدينا رواية نفسية؟ العصفورية.

---

[1] عز الدين اسماعيل، التفسير النفسيّ للأدب، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط4، د.ت ، ص5.

[2] مكاوي سعيد، العصفورية نقد العقل العربي.. أم محاكمته؟!، مجلة الجزيرة الثقافية، ع 273، 5-3-2009، http://www.al-jazirah.com/culture/2009/05032009/speuss49.htm.

[3] طامي السميري، الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات، دار الكفاح للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2009، ص29.

[4] عبد الله الغذامي، بنات الرياض – لعبة السرد، صحيفة الرياض، ع 13695، 22-10-2005، http://www.alriyadh.com/117271 .

طبعًا رواية نفسية!"[1] فما هي الاعتبارات التي دعت الغذامي إلى اعتبار العصفورية رواية نفسية؟ هل المكان هو الذي دعاه لذلك؟ الإجابة عن ذلك "احتمال"، ولكن بطبيعة الحال فإن تجليات المكان في الرواية بالنسبة للعصفورية –المصحة النفسية اللبنانية– بالكاد تذكر، أما عن غيرها من المصحات، مونتري، بلاك بول، جنيف، فإن بطل الرواية، قد ذكر عشرات الأماكن غير تلك الأماكن النفسية، وكانت تجلياتها تفوق تجليات المصحات. وإن كان الاعتبار بالنسبة للغذامي، يكمن فيما أثاره الراوي من معلومات نفسية، فإن الراوي قد أثار سيلًا من المعلومات في مختلف المجالات، من السياسية إلى الإدارة فعلم الاجتماع..إلخ، وإن كان الاعتبار يكمن في سرد الراوي لما حدث معه أثناء وجوده في المصحات الثلاث، فإنه أيضًا قد سرد ما حدث معه وصلاح المنصور، وبرهان سرور، و ضياء المهتدي، في قصورهم وفي سجونهم وفي معاركهم، وسرد ما حدث معه عند توليه الوزارة، وعند انتقاله للندن، وفي الولايات المتحدة ..إلخ، أما إن كان تيار الوعي الذي وظّفه الراوي في العصفورية هو الاعتبار الذي جعل الغذامي يعتبرها رواية نفسية، فإن الراوي نفسه يصرح بأنه يعتمد أسلوب الجاحظ الاستطرادي، وذلك بكل بساطة لكي يستطيع تحميل السرد ما يشاء من المعارف والأحداث، في كل وقتٍ أراده؛ لأن الرواية تُمثّل خلاصة رحلته في الحياة، بعدما حاول بشتى الطرق الارتقاء بالأمة وتخليصها من التبعية والفرقة والقضاء على إسرائيل، وكان الاستطراد هو السبيل الوحيد لذلك؛ لأن معرفة الراوي تؤهّله أن يكمل في أي موضوعٍ يثيره حتى عشرات الصفحات، وذلك معناه أن تصل الرواية إلى مئات الصفحات! ولمّا يتعرض الراوي لكل ما يريده بعد. وأما الجنون فقد برّأ الراوي نفسه منه غير مرة. "أولًا، يا دكتور، أنا لست مريضًا؛ أنا ضيف."[2] وما العصفوريةُ بالنسبةِ له إلا بمثابة أستوديو تسجيلي منزوع الرقابة، فيقول البروفسور ما يريد دون خوفٍ من رقيب، أو أن هذا الكلام لا يقوله عاقل! معتمدًا في ذلك على قاعدةٍ ليس على المجنون حرج. "هكذا أطلت علينا حكمة القصيبي التي فجرت قضية الحوار/ الأزمة، كأن يتحول الحوار بين ذات وذات لا بين ذات وأخرى، لأن حوار "الذوات" هو حوار "الذوات المتعالية" مع "الذوات الدونية" وهو حوار لا يتم إلا في "العصفورية" أو في "المصحات.""[3] وما يدعمُ قول الناقدة بأن ما كان في العصفورية هو حوارٌ مع الذات، الدور السلبي للمحاور، الطبيب النفسي سمير ثابت، "فهو الذي يحدد مسار الحديث وليس الطبيب ، فلقد تحدث مدة عشرين ساعة متواصلة والطبيب يسمع، وقد ظهر الطبيب في دور المستمع غالباً والمحاور أحيانا قليلة ، ولم يظهر بدور المعالج مطلقا"[4]. فالطبيبُ يقوم بدور المتلقي في معظم الأحيان، وينطقه الراوي في الوقت الذي يريد، عندما يشعر انه اكتفى من الحديث في قضيةٍ ما، ويريد من الطبيب أن يطلب الانتقال إلى غيرها، وقد كان في غالب الأحيان مستفسرًا لا مُعالجًا، ولا يزيد حديثه عن جملتين أو ثلاث، بعد قليلٍ تملكه الفضول، وأصبح يطالب البروفسور أن يكمل قصته في هذه القضيةِ أو تلك، حتى أنه في نهاية الرواية "يجلس الدكتور سمير ثابت على أرض الممر منخرطًا في

[1] الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات، ص29.
[2] العصفورية، ص11.
[3] أمينة غصن، "حكاية حب" تحمل أصداء من رواية "العصفورية" غازي القصيبي الروائي يجعل من "بطله" فردًا يخاف الجموع، الحياة، 24-5-2001، http://www.alhayat.com/article/1088254 .
[4] الرواية الموسوعية، ص12.

ضحك عميق سرعان ما يتحول إلى بكاء عميق يردد خلاله: – ضيعناك، يا بروفسور! والله ضيعناك! ضيعناك!"[1]

لقد كانت العصفورية المكان الأمثل بالنسبة للراوي، فمن هذا الذي يسمع تلك الآراء الجريئة في حق رموز وقادة العرب الأسطوريين، ويرضى بها! خاصّةً وأن العرب لا زالوا مقتنعين بالدعاية الناصرية والصَدّامِية والإسلامية حتى يومنا هذا! وقد قنّع الروائي تلك الشخصيات الحقيقية بشخصياتٍ روائية، صلاح الدين المنصور، وبرهان سرور، ضياء الدين المهتدي، وقد أتاحت له العصفورية أن يقول ما يريد، دون معارضةٍ من أحد؛ فهو مجنون! "فمنذ أصيب الإنسان بمحنة "الوعي" صار الجنون في الأعمال الفنية نوعًا من التصدّع والانفصام بين عالمي العقل والوهم... " وكأن الذي يزحم "الوعي" لا بُرءَ منه إلا بالإبداع الذي يُدجنه إذ ينقل الشحنة من الوعي إلى الكتابة يلهو بها ويحملها أوهامه وكوابيسه بعيدًا من يقظته الحادة، العنيفة والحميمة."[2] وكأن الراوي في النهاية يريد أن يقول لنا "خذوا الحكمة من أفواه المجانين"!

لقد أراد الراوي للعصفورية أن تكون مثالًا على الواقع العصيب للأمة، "فبلاد عربستان كما يقول القصيبي هي "العصفورية" التي أضاع نزلاؤها هوياتهم، لأنهم راحوا يبحثون عنها في مرايا الغرب التي ليست هي مراياهم، ولا ماضيهم ولا حاضرهم ولن تكون مستقبلهم."[3] أرادها الوطن العربي الكبير، وربما كانت هي العالم أجمع، في ظل أزمة الوعي التي تعصف بالإنسان العربي، فلا هو يعرف الذي حدث، ولا كيف يتعامل مع ما يحدث؟ ولا موقعه في هذا العالمِ المليء بالشرور والخطايا؛ لذلك كان خطاب الجنون هو الأسلم لمثل تلك القضية.

يقول الدكتور فوزي الحاج في كتابه المخطوط "الرواية النفسية": "بدأت الرواية بالبطل مريضاً وانتهت به مريضاً. والملاحظ أن الطبيب في العصفورية لم يمارس أي نوع من العلاج بل اكتفى طيلة الرواية بالتسجيل أو السماع. ما يعني أن الكاتب يريد إيصال رسالة عن طريق هذا المريض، ولا يريد الوصول إلى علاج أو تشخيص ..إلخ"[4] ويقرر في مكانٍ آخر أن "علم النفس أحد أعمدة الرواية الأساسية ،بداية من عنوان الرواية " العصفورية" وهو أشهر مشفى للأمراض النفسية والعصبية في الوطن العربي، ثم تتنقُّل الرواية حول أربع محطات رئيسية ،كانت كل محطة منها عبارة عن مصحة للعلاج النفسي عولج فيها البروفسور"[5]. لكنه مع ذلك يقف موقفًا وسطًا حيال تصنيف الرواية العصفورية، "لم تقم الرواية إذن على معضلة نفسية وعملت على تقديم حل لها ، كما هو الشأن السائد في الرواية السيكولوجية ، وإنما قدمت راوياً لم يجد وسيلة لإشباع رغبته في "الحكي" سوى أسلوب التداعي الحر"[6] وهذا منطلق الدراسة في هذا المبحث، فبعد هذه الديباجة غير القصيرة في الحديث عن الرواية الجدلية "العصفورية" تقتضي مهمة الباحث الكشف عن

---

[1] العصفورية، ص303.
[2] أمينة غصن، "حكاية حب" تحمل أصداء من رواية "العصفورية" غازي القصيبي الروائي يجعل من "بطله" فردًا يخاف الجموع.
[3] المرجع السابق، نفسه.
[4] فوزي الحاج، الرواية النفسية، مخطوط، ص67.
[5] الرواية الموسوعية، ص11.
[6] المرجع السابق، ص12.

تجليات النقد في روايات غازي القصيبي، إذ يُعتبر النقد النفسي أحد أهم تلك التجليات، ليس في العصفورية فحسب ولكن في باقي الروايات، لا سيما الروايات موضوع الدراسة.

لدينا رواية سبعة "7" والتي تتناول سبع شخصياتٍ في سبع بطاقاتٍ منفصلة، ومن ضمن تلك البطاقات، بطاقة الطبيب النفسي، والذي مارس العلاج النفسي على طريقته، ولم يقم بسرد المعارف كما في الرواية العصفورية، ومع ذلك لم يسمِها النقاد رواية نفسية، والسبب بكل بساطة أن هناك ست شخصيات أخرى في الرواية، وقد جاءت بطاقة كل منهم مختلفة عن الآخر، لذلك كان علم النفس جزءًا من الرواية، وليس كل الرواية، وهذا ما حصل تحديدًا في العصفورية، ولكن بطريقة غير الطريقة التي اتبعها الروائي في سبعة، فالمعلومات في العصفورية، جاءت على شكل تيار الوعي، معلوماتٍ كثيفة وغير مرتبة، تحتاج لتركيزٍ وذاكرة جيدة لتتابعها في الرواية من أولها وحتى آخرها، وليس الحال كما في سبعة إذ جاء كل تخصصٍ منفصلًا عن الآخر.

وقد تجلّت العديد من حقائق علم النفس في رواية شقة الحرية، وقد نظر إليها بعض النقاد من منظورٍ نفسيٍ خالص. "وتأتي رواية (شقة الحرية) لغازي القصيبي نموذجًا واضحًا لدراسة الإسقاط الذي قام به الروائي على شخصية البطل (فؤاد الطارف) ... وقد أسقط القصيبي كثيرًا من الأحداث والمواقف الفكرية التي مر بها على شخصية البطل (فؤاد الطارف)، ويظهر ذلك جليًا في الحوارات الفكرية وصراعات التيارات في ذلك الوقت، والتركيبة النفسية للقصيبي وفؤاد الطارف معًا مما يتطلب بحثًا خاصًا."[1] فالبحث الذي ينظّر له الدكتور مفلح، هو بحثٌ نفسيٌ في المقام الأول، كما لم تخلُ دنسكو من بعض الإشارات النفسية، ولكنها بطبيعة الحال قليلةٌ جدًا بالنسبة لباقي الروايات.

"في كل مرة يوظف الأدباء علم النفس في أعمالهم الأدبية، تُثار القضية ذاتها: كيف وظّف الأديب علم النفس؟ والأمر الطبيعي أن يكون الجواب واحداً من اثنين: إما أن يكون توظيفه مطابقاً لعلم النفس، وإما أن يكون مخالفاً."[2] ولكن يبدو أن القصيبي لم يأبه بذلك التساؤل، حيثُ أنه وظف علم النفس وخالفه، "وإن خالف الأديب هذه المقولات أُتهم بعدم المعرفة ، ومخالفة الطبائع البشرية."[3] ولم يأبه بذلك الاتهام أيضًا، فلم يخالف المقولات النفسية فحسب، بل نقدها نقدًا لاذعًا وساخرًا. "لم يهتم الكاتب كثيراً بتشخيص المرض النفسي ، أو بالعلاج بقدر اهتمامه بنقد علم النفس التحليلي كله"[4] وتلك هي غايته الأولى من توظيف علم النفس في رواياته، لا سيما العصفورية منها، "وهذا يعني أن استخدام علم النفس يجب أن يكون أداة للوصول إلى غاية، أما إذا كان هو غاية في ذاته فلن تعدو الرواية أن تكون استعراضاً لمعارف سيكولوجية"[5] والغاية التي أرادها الراوي، هي نقد علم النفس، كما سيتبين من خلال الشواهد الروائية فيما سيأتي، والتي تؤكد ما يذهب الباحث إليه.

[1] عبد الله المفلح، التفكير واللغة والتفاعل النفسي، د.د، د.م، د.ط، 2018، ص191.
[2] الرواية النفسية، ص30.
[3] المرجع السابق، ص30.
[4] الرواية النفسية، ص62.
[5] المرجع السابق، ص4.

لقد ساق الراوي في العصفورية، سيلًا من المعارف والحقائق النفسية في روايته لا سيما العصفورية منها. "وقد استخدم الراوي عشراتٍ من مصطلحات علم النفس والأمراض النفسية، ووقف طويلاً عند فرويد وعقدة أوديب"[1] فهل كان القصيبي ينشئ أدبًا أم يكتب علمًا؟ "فنحن إما إن ننشئ أدبًا أو نكتب علمًا"[2] وهل وقع فيما يعيب الفن القصصي الحكائي؟! "مما يعيب القصة بوصفها عملا فنيًا أن تكون مجرد صياغة لحقائق علم النفس التحليلي أو حقائق أي علم من العلوم"[3] لأجل كل ما سبق من الإيضاحات، ولأجل الغاية النقدية من إيراد القصيبي لتلك المعارف والحقائق المختلفة، ولأجل التجليات المختلفة التي ظهرت في أسلوبها السردي الممتع؛ لم يقع القصيبي فيما يعيب فنه الروائي، فعلم النفس بالنسبة له كما باقي الحقائق والمعارف كانت أداةً للوصول إلى غاية، ولم تكن غاية بحد ذاتها[4]، لنصل إلى "ما يهمنا في هذا المجال المعلومات النفسية الغزيرة التي ساقها الراوي بمناسبة وبدون مناسبة ... إنها رواية واقعية نقدية اتخذت من طريقة العلاج النفسي المعروفة ب"التداعي الحر" إطاراً لها"[5]

نقد التحليل النفسي:

لقد تناول المثقفون والمتعلمون العرب ما جاء به الغرب من نظرياتٍ في شتى العلوم كمسلمات، ولم يُخضعوها للدرسِ والتحليلِ والشك الذي يوصل إلى اليقين، وهذا ما رفضه القصيبي معبرًا عن ذلك في مصنفاته المختلفة، والتي كانت الرواية إحداها.

أما ما يتعلق بعلم النفس، فقد قامت الرؤيةُ القصيبيةُ النفسية، على انتقاد التحليل النفسي الذي جاء به فرويد، والذي يُرجع كل ما يحدث للإنسان للعقد الجنسية والأوديبية، العقدة الأوديبية التي تكررت في العصفورية وحدها تسع مرات، ليعبرَ الأديبُ عن الهيمنةِ الكبيرةِ لها في علم النفس، وعن رفضهِ لها " – عقدة أوديب نزعة عنصرية بغيضة. إعجاب سخيف باليونان وأساطيرهم. وأنا لا أحبّ اليونان ولا أحبّ أساطيرهم. أعمى ينام مع أمّه! هراء! عقدة خواجة! في مصر يسمّون اليونانيين خواجات. ثم أصبح كل أجنبي خواجة. من هنا جاءت الكلمة. عقدة الخواجة"[6] لقد قرن الراوي بين عقدتي الخواجة وأوديب في تفسير عقدة أوديب، وما هي إلا إعجابٌ منّا نحن العرب على وجه التحديد، بعلوم الغرب، هذا ما أراد أن يوصله الراوي، مع أنه يستخدم أساطير اليونان وقت الحاجة وخاصة "حصان طروادة! وكعب أخيل".

يبدأ البروفسور بمباغتة الطبيب، قبل أن يتمكن الطبيب من فعل أي شيء، ليثبت أنه ليس بالمريض العادي الذي قد يظنه. "وأنت، يا دكتور؟ هل تعتبر نفسك غنيًّا؟ – نشكر الله. – ولماذا لا تشكره؟ شقّة في بيروت. وبيت في برمّانا. وشقّة في لندن. وفيلًا في جنوب فرنسا. واستثمار محترم في نيويورك. – كيف؟ كيف؟ كيف عرفت كل هذا؟ – مجرد تدبير احترازي. ما دمت سوف تعرف كل شيء عني فلا بُدّ أن أعرف

[1] الرواية النفسية ، ص63.
[2] التفسير النفسيّ للأدب، ص18.
[3] المرجع السابق، ص203.
[4] انظر الرواية النفسية، ص4.
[5] الرواية الموسوعية، ص12.
[6] العصفورية، ص17.

بعض الأشياء عنك"[1] ولا يكتفي بذلك بل يوضح له أنه يعرف عن علاقته بطبيبةٍ نفسية، الأمر الذي يُحرج الطبيب النفسي، ويجعله يطلب من البروفسور أن يتحدث بشكلٍ جدي. "لو سمحت، يا بروفسور؟ ممكن نبلّش نحكي جدّ؟ بالتأكيد! ولكن اسمع، يا دكتور. الأسئلة السخيفة المعتادة بلاها. لا تسألني هل أتذكّر رحم أمّي. ولا متى شعرت بالشهوة الجنسية لأوّل مرّة. ولا ..."[2] لقد قطع البروفسور الطريق على الطبيب، وأوحى إليه من طريقٍ مفهوم، أنه لم يجئ للعصفوريةِ ليسأله الأسئلة المعتادة التي يسألها الأطباء النفسيون، لا سيما وأنه الخبيرُ في هذا المجال. "لا تسألني عن هذه التفاهات والسخافات لديك ملفّات فيها كل شيء. كل شيء! ملفّ الدكتور –الأمريكي– جونسون من مصحّة مونتري ... وملف الطبيب البريطاني سبلووُتر من مصّحة بلاكبول ... وملف الطبيب السويسري الفاضح مونتيسكييه، من مصّحة جنيف ... أمّا الملف الرابع فمن هنا، من العصفورية، من زيارتي الأولى ... الدكتور ألبير زعتر–العربي–"[3] من خلال هذا السرد يتضح أمّران الأول: أن البروفسور قد جاب الدنيا، وجرّب العلاج النفسي في أشهر مصحاته في العالم، سواءً الأمريكية، أو الإنجليزية، أو الأوروبية أو العربية. وهذا يقودنا إلى التوضيح الثاني: أنه بعد تلك الخبرة والجولات بين المصحات المشهورة في العالم أجمع، يعتبر التحليل النفسي المُستخدم في تلك الأماكن مجرد "تفاهات وسخافات" فهو يرسم معالم الطريق الذي سيسلكه من بداية السرد المعرفي أحادي الجانب، في قالبه الروائي الاستثنائي.

ويبيّنُ أنه لم يذهب لتلك المصحات من خاطره في أغلب الأحيان. " ... ثم امتنعت عن الطعام والشراب. حتى اضطروا إلى نقلك إلى مصحة مونتري."[4] "يقول الملف إنك أصبت بكسور ورضوض شديدة. فنقلت إلى المستشفى. وعولجت من الكسور والرضوض. ثم بدأتْ الأعراض النفسية"[5] فهو انتقل من المستشفى إلى المصحة في المرة الأولى والثانية، ممن حوله وليس من خاطره، إلا في مصحة جنيف "دخلت المصحّة بمحض رغبتي. لو فتّشت في الملّف ألف سنة لن تعثر على حادثة كانت السبب في دخولي"[6] والتي لم تكن في حقيقتها مصحة كما أوضح. "ويجب أن تعرف، يا نطاسي، أن المكان ليس مصحّة نفسية. هناك قسم نفسي ولكنه أصغر الأقسام. المكان بتاع كلّو!"[7]

يمضي البروفسور في نقد التحليل النفسي الفرويدي، وما يترتب عليه من تساؤلات. إذ اعتبرها تارةً فضائح جنسية. "لديك الملفّ. لا بد أنك قرأته. مليء بالقصص والفضائح التي تعشقونها معشر الأطباء النفسيين. وصف تفصيلي للتجربة الجنسية الأولى. وصف تفصيلي لكل التحرشات. ما حدث في المدرسة الابتدائية. ما حدث في المدرسة الثانوية. الاستمناء. كل التفاهات."[8] وتارةً يعتبرها أشد من الاعتداء الجنسي نفسه؛ أنها انتهاك لسرية الإنسان، وتشويهٌ لبراءةِ طفولته. . "وهل تعرف ما هو أبشع من الاعتداء الجنسي؟

[1] العصفورية، ص15.
[2] العصفورية، ص15.
[3] العصفورية، ص16.
[4] العصفورية، ص75.
[5] العصفورية، ص179.
[6] العصفورية، ص263.
[7] العصفورية، ص263.
[8] العصفورية، ص43.

الاعتداء النفسي! ما تفعلونه أنتم معشر الأطباء النفسيين. تتغلغلون، بدون وجه حقّ. إلى عورة العورات. لا تكتفون بتعرية الجسد وإنّما تريدون تعرية الروح. تمتد أيديكم إلى كل الفتحات، ومنها تتسللّون إلى كل المحظورات. هل يجوز؟"[1] وزاد على ذلك بأن اعتبرها سرقة. "من الذي سمح للدكتور جونسون بسرقة طفولتي على هذا النحو؟ بتشويه علاقتي مع أبي وأمي وأخواني وأخواتي؟ وكيف تحولت حياة الطفل من اللحظة التي يصحو فيها إلى اللحظة التي ينام فيها جنسًا، والمزيد من الجنس، ولا شيء غير الجنس؟ أين ذهبت ضحكات الطفولة؟ هل كانت كلها نداءات جنسية مبطّنة؟ أين ذهبت ساعات اللهو البريئة؟ هل كانت مقدّمة للألعاب الجنسية التي سحرت الدكتور جونسون؟"[2] تبدو اللوعة في التساؤلات التي يثيرها البروفسور، جرّاء التحقيقات النفسية التي يتعرض لها المريض النفسي، لكي يستطيع الطبيب تحليلها على نظرية فرويد، يصوّرُها تصويرًا دقيقًا وكأنها في عالم الحقيقة، يثير الحزن في نفس القارئ على ذلك المريض. لتظل تلك القضية تتردد في العصفورية، ينتقد البروفسور ذلك السطو على أفكاره وذكرياته، وتحويريها إلى نظرية الجنس التي جاء بها فرويد.[3] ولم يكن ذلك رأي البروفسور وحده، فذلك القسيس الكاثوليكي الذي انتحرت الراهبة التي أحبها، يُصاب بالانهيار العصبي جراء طرده من الكنيسةِ وفضحه، ليدخل على إثر ذلك إلى مصحة مونتري. ""أنا أكذب على الدكتور جونسون يا أبي. أخترع له أحلامًا وهمية". ضحك القسيس وقال: "غفرت لك خطيئة الكذب يا بُنيّ. وأنا، أيضًا، أكذب على طبيبي، الدكتور هامر. اختاروا لي طبيبًا كاثوليكيًا. قلت له: "اسمع يا بُنيّ! أنا القسيس. أنا الذي أستمع إلى الاعترافات وأغفر للمذنبين. لن أعترف لك بشيء. أنت الذي يجب أن تعترف لي"."[4] يُوجد الراوي له مؤيدين من ديانةٍ أخرى، ليبين أن المشكلة إنسانية وليست عرقية، الجميع يعاني منها، يلجأ البروفسور إلى القس الذي من غير ديانته، ويخاطبه بلفظة الأبوة التي في دينهم، في نبرةٍ ملؤها الشكاية، مما يسأله الدكتور جونسون، وأنه يكذب عليه، فيغفر الأب خطيئة الكذب للبروفسور ويخاطبه ببني، هنا تتضح معاني الإنسانيةِ في أجمل تجلياتها، للدفاع عن قضيةٍ إنسانية لطالما آذت الآلاف من الناس، ويرفض القس الاعتراف[5]، على اعتبار أنه من يُعترفُ إليه، لا هو من يعترف.

ولم يكتفِ الراوي بذلك، بل أوجد من يسانده في رأيه من ذوي التخصص، الطبيبة دولوريس إيفان جلستكا. قد نصحه بها أحد أصدقائه لعلاجه من عقدة السجن بعد إطلاقه من سجن صلاح الدين المنصور. "بخلاف الأطباء النفسيين الذكور، لم تضيّع دولوريس وقتها ووقتي في الأسئلة الماصخة عن الطفولة وعقدة أوديب وتنافس الأخوة. خشّت، رأسًا في الموضوع. دولوريس، من حسن الحظ، كانت تعتقد أن صاحبكم فرويد تجاوزه الزمن. حقيقة الأمر، أنها تعتقد أنه أساء إلى علم النفس إساءة هائلة عندما حبسه عقودًا طويلة في أساطيره اليونانية ورموزه الليلية"[6] وفي النهاية تنجح دولوريس في علاجه لأنها لم تتبع نظرية فرويد، "مكّنتني دولورويس من أن أنظر إلى تجربة السجن بتجرّد، بدون مرارة، وبدون أن أشعر أني قدّيس أو بطل

[1] العصفورية، ص87.
[2] العصفورية، ص87.
[3] انظر العصفورية، ص17، 27، 43، 44، 58، 86، 88، 157، 180، 181، 183.
[4] المصدر السابق، ص100.
[5] نسبة لكرسيّ الاعتراف في الديانة المسيحية.
[6] العصفورية، ص219.

أو ضحيّة. فقدت رغبتي في الانتقام."[1] في الواقع أن الراوي قد أجاد عندما اختار عقدة السجن لكي يتم علاجه منها، وعندما جعل العلاج أن ينظر لها بتجرد دون مرارة أو أن يعتبر نفسه قديسًا أو بطلًا، فتلك النظرة تشكل مشكلة كبيرة، إذ تصدر من كثيرٍ ممن تحرر من السجن دون أن يدري، لا سيما ممن تقلد منصبًا منهم بحكم حزبه، على أية حال، فإن الراوي قد اقتنع بدولوريس لأنها تعاملت معه على خلاف الأطباء النفسيين التقليديين. "كنت أحاول أن أوضح لك أنها لم تكن من الطراز الذي تعوّدت عليه. لم تشعرني، قط، أني مريض وأنها طبيبة. كنا صديقين. لم نكن نتقابل في عيادتها وأنطرح على الصوفا وأغمض عيني"[2] يبدو أن ما أراد الراوي توصيله، يكمن في أن علم النفس التقليدي وتعامله يجب أن يتغير، لأنه غير ناجع، بدليل أنه والقسيس كانوا يكذبون على آبائهم لأجل أن يتخلصوا منهم، فهذا البروفسور يدبّج القصص للدكتور جونسون على هواه ليتخلص منه. "كان من الضروري أن أقنع الدكتور جونسون أن أسئلته المتواصلة قد كشفت كل العقد والأسرار والمخاوف المدفونة في عقلي الباطن. بدأت إجاباتي على النحو الذي يريده. وأخترع القصص والمغامرات ولا أبالي. أتيتُ بوقائع جنسية لم تقع. ورويت حكايات مفزعة عن كره أمّي وأبي لي"[3] فهو يريد أن يصل بالمتلقي إلى قناعة، بأن الطب النفسي الممارس، يُجبر المريض على الخضوع لنظرية فرويد، لا أن النظرية تخضع للمريض بحسب حالته.

انتقاده للتشخيص النفسي:

رفض راوي العصفورية العديد من المصطلحات والتوصيفات المختلفة لوصف حالة المرضى النفسيين، أو بالأحرى من يتعرضون لضغوطٍ نفسية، بسبب التهويل الذي تثيره تلك التوصيفات والتشخيصات، "عندها ، يا دكتور، بدأت أفقد السيطرة على أعصابي. لا داعي للتهويل واستخدام ألفاظ مثل الانهيار العصبي والشيكيزوفرينيا والجنون. هذه مبالغة ممجوجة. مثل مبالغات أبي حسيد. ولا يوجد ما هو ممجوج أكثر منها. فقدتُ السيطرة على أعصابي، يا نطاسي، ولكنني لم أفقد عقلي."[4] فهو يرفض التهويل وإعطاء الأمور أكثر من حجمها على حسب ما يراه، فقد حصل معه موقف فاجأه مفاجأة كبيرة وصادمة، أدى به إلى أن يفقد التحكم والسيطرة بأعصابه وأن يتصرف بعفوية، دون أن يراعي أفعاله، وبالتالي هو لم يصبح مجنون! "الناس تحت تأثير الصدمات يتصرّفون بشكل عفوي. أليس كذلك؟ ومع ذلك لا يتحوّلون إلى مجانين. لا يمكن أن نعتبر ردود الفعل الانفعالية انهيارًا عصبيًا"[5] لأن تلك الحالة التي تنتابهم من الغضب وعدم السيطرة على تصرفاتهم، تكون حالة طبيعية ووقتية، وإن لم تحدث مع الإنسان، يكون بليدًا أو أبلهًا! ويكرر البروفسور رفضه للتشخيص النفسي في غير مكان. "هنا، يا حكيم، غضبت. لا تقل لي، رجاءً، أني أصبت بانهيار عصبي. لا مُبرّر للمبالغة والتهويل. كل ما هنالك أني لم أعد قادرًا على المجاملة."[6] فهو يرى

[1] العصفورية، ص221.
[2] العصفورية، ص220.
[3] العصفورية، ص96.
[4] العصفورية، ص74.
[5] العصفورية، ص75.
[6] العصفورية، ص207.

صلاح المنصور ووزراءه يكذبون وينهبون البلاد ويسرقونها، ماذا يُتوقع منه، أن يصفق له؟! ولا يتوقف الأمر عند نقطتين أو ثلاث بل ظل هذا الرفض والانتقاد للتشخيص النفسي مستمرًا حتى نهاية الرواية.[1] وليس في العصفورية فحسب، بل في دنسكو أيضًا. "رأى فرويد أن كره الطفل الدفين لوالده هو الذي يتحوّل عندما يكبر إلى نزعة عدوانية تستغلّها الدولة لإشعال الحروب."[2] " – نعود من حيث أتينا؟! إلى أرحام أمهاتنا؟! هذا التصريح يكشف عن عقدة أوديب خطيرة تحتاج إلى علاج نفسي فوري."[3] وكذلك رواية سبعة. "عمّو أنور! لا تنقلب فرويديًا الآن! لا تقل لي إني أعشق فيه المرحوم أبي. لا تقل لي إن غرائزي الجنسية المكبوتة نحو أبي وجدت المتنفّس أخيرًا في رجل من سن أبي. – لم أكن لأقول لك شيئًا من ذلك. عقدة أوديب مجرّد أسطورة. لا داعي للتنقيب في أعماق الطفولة."[4] فالقصيبي لم يكن مجرد منظرٍ في رواياته فحسب بل انتقل إلى حيز الممارسة الفعلية، لرؤيته الخاصة لعلم النفس في روايته سبعة، تحت قناع الطبيب النفسي أنور مختارجي، فهو يحاول مساعدة الصحفية بستان ابنة صديقه، ولكن على طريقته الخاصة وليس على طريقة فرويد وعقدة أوديب، بل ويعتبر تلك النظريات مجرد أساطير، كما ورد قبل ذلك في العصفورية، فهو يرى أن مهمة الطبيب النفسي تكمن في مساعدتها على تفهم مواقفها. "أنا أستمع إليها. والحديث عن ورطاتها يساعدها على تلمّس المشكلة. هذا كل ما يستطيع الطبيب النفساني، أيّ طبيب نفساني، عمله: أن يساعد المريض على تفهّم المواقف التي تواجهه."[5] فليس عمله البحث في مشاكل الطفولة، ولا التنقيب عن الأحداث الجنسية في حياة المريض.

انتقاده للعلاج النفسي:

بعدما نقد الراوي التحليل النفسي، والتشخيص النفسي، راح ينقد العلاج النفسي المستخدم، والذي جاء على ثلاثة أشكال: أولًا: العلاج بالكهرباء، ومارسه عليه الدكتور جونسون. ثانيًا: العلاج بالعقاقير، ومارسه عليه الدكتور سبلووتر، وأخيرًا: العلاج بالتنويم المغناطيسي والتناسخ ومارسه عليه الدكتور مونتيسكييه.

أولًا: العلاج بالكهرباء:

"في اليوم التالي، يا صديقي النطاسي، حصل الاغتصاب الأعظم. الانتهاك الأكبر. العدوان الأغشم. – خير؟ – شر! الصدمات الكهربائية. – آه! كانت أسلوبًا شائعًا وقتها. هلأ ما بنستعملها. وماذا ينفعني هذا الكلام الآن؟ ماذا ينفعني بعد أن غيّرت الصدمات الكهربائية حياتي تغييرًا تامًا ونهائيًا؟"[6] لقد وظّف الراوي أشنع الألفاظ لكي يبين المأساة التي حصلت له نتيجة العلاج بالكهرباء، والغريب أن الطبيب يقول له: إنها كانت أسلوبًا شائعًا، لكنهم لم يعودوا يستخدموه الآن! الأمر الذي يثير البروفسور "ماذا ينفعني هذا الكلام الآن؟" فقد تعرض الإنسان لذلك الألم الشديد وكأنه حقلٌ للتجارب! واستمر وصف البروفسور

[1] انظر العصفورية، ص75، 102، 136، 158، 179.
[2] دنسكو، ص82.
[3] دنسكو، ص103.
[4] سبعة، ص171.
[5] سبعة، ص179.
[6] العصفورية، ص89.

المؤلم لتلك التجربة في غير موضع "لم يكن هناك سوى الاغتصاب الأعظم. اغتصاب المخّ عن طريق الكهرباء ... أستحلفك، بالله، يا دكتور! هل يجوز هذا؟ هل يجوز انتهاك مخ الإنسان، أثمن ما لدى الإنسان؟"[1] فهذه شكوى، واستفهام مريرٌ من الراوي للطبيب عن ذلك العلاج الصعب. وقد سمّاه بالانفجار، ليدلل على بشاعته وحجم تأثيره الخطير. "في صباح اليوم التالي للانفجار"[2].

وقد ترتب على ذلك الانفجار ارتباطه بعالم الجن، والأرواح، والفضاء! "استغل الكاتب هذه الصدمات فيما يُعرف بالتخييل الذاتي، وهو صياغة سيرة خيالية وذلك لأن السيرة في العادة تحفل بالوقائعية ، لذا كان التخييل عملية مزج بين الوقائعي والمتخيّل، هروباً من جفاف التسجيلية."[3] حيثُ إنه بفعل الصدمات الكهربائية التي تعرض لها، حصل خدرٌ في بعض الخلايا في جسده، أدى إلى اتصاله بعالم الجن، وعالم الأرواح، والفضاء. "قابلت الدكتور صخونة الذي رحّب بي وقال: "دعني، أولًا، أشرح كيف تم الاتصال بك. هناك خلية في مخّ كل إنسي رقمها 6666661. إذا تخدّرتْ بأيّ سبب من الأسباب أمكن الاتصال بين الإنس والجن ..."[4] وهكذا نفذ الراوي نفاذًا ذكيًّا إلى تلك العوالم المجهولة بالنسبة للإنسان، ليطلق لنفسه عنان البدء برحلاتٍ غير متوقعة، في العوالم غير الإنسية من حول البشر، ليعطي للخيال في روايته فرصةً خصبةً لكي ينطلق، فيسرد ما حدث معه في عالم الجن وزواجه الغريب من دفاية، ومن ثم إلى عالم الأرواح برحلةٍ معريّةٍ معاصرة؛ ليقابل الشعراء الذين رحلوا منذ زمنٍ بعيد، ومن ثم رحلته إلى عالم الفضاء وزواجه الغريب بالفراشة الفضائية كذلك، لتكون تلك العوالم في نهاية الراوية هي فرصة النجاة والهروب من الشرور الأرضية. "قالت الفراشة: "عندما يقوم الانقلاب هل تعترف أنك فشلت؟". قلت: "أعترف". قالت: "وستعود معي إلى هذا الكوكب لتقضي فيه بقية عمرك؟". قالت دفّاية: "لا! لا! يعود معي إلى عالم الجن ويبقى هناك". قالت الفراشة: "حل وسط! 6 شهور معي و6 شهور مع دفّاية". قلت: "وماذا عني؟ أليس لي رأي في المسألة؟". قالت دفّاية: "ماذا تفعل على الأرض؟ فشلت مشاريعك السياسية". وأضافت الفراشة: "ومللت مشاريعك التجارية" ... لم يبق سوى مشاريعك الأدبية. وهنا أفضل مكان لها. بمجرد أن تختمر الفكرة في رأسك يستطيع الجميع قراءتها. التأليف المريح!"[5] فالرواية إذًا هي خلاصةُ تجربةٍ مريرة في الحياة، اتبع فيها الراوي التكنيكات السردية المختلفة لأجل أن يحظى بتسجيليةٍ بعيدةٍ عن الملل والرتابة.

يروي البروفسور الطريقة البشعة التي كانوا يتبعوها لأجل صدمهِ صدماتٍ كهربائيةٍ أخرى، فمن الطبيعي أن يرفض المريض تلقي ذلك الألم الشديد مرةً أخرى. "موضوعنا أن الدكتور جونسون ابتسم ابتسامة أفعوانية بيضاء، وقال بلهجة لزجة: "إبرة صغيرة. وسوف تشعر بتحسن كبير". قلت: "لا أحتاج إلى تحسّن". نظر إلى الزبانية نظرة ذات معنى، ونظر إليّ نظرة ذات معنى، وقال بلهجة ناعمة: "يا بروفسور! أرجو أن تتعاون معنا". "السلاح ما عليه مراجل"، كما يقول أصدقائي اللبنانيون، وقد كان الجماعة مُسلّحين بالكثير

[1] العصفورية، ص90.
[2] العصفورية، ص90.
[3] الرواية النفسية، ص65.
[4] العصفورية، ص94.
[5] العصفورية، ص299.

من الإبر"[1] يصوّرُ الراوي الدكتور جونسون بضابط التحقيق، والممرضين بزبانية جهنم، والإبر بالسلاح، والطريقة الجبرية في أخذ تلك الإبر بطريقة الاعتراف لدى المخابرات، يريد من كل تلك الصور المأخوذة من عوالم الخوف والعرب المختلفة، أن يمهد لما يأتي من تأثيرٍ مخيفٍ لتلك الإبر، وما سيكون بعدها! "غرز الإبرة الصغيرة في العِرْق. وكان التأثير سريعًا وفعالًا. تحولتُ فورًا، إلى تمثال من الجليد، يحسّ ولكن لا يستطيع تحريك أي عضو من جسده."[2] يتضح أن تلك العقاقير كانت بمثابة التحنيط لجسد البروفسور لمنعه من مقاومة الصدمات الكهربائية. "حملني الزبانية من سريري إلى نقّالة بيضاء وساروا بي عبر الحدائق والقاعات إلى غرفة صغيرة، بيضاء هي الأخرى"[3] أبشع ما قد تتعرض له في حياتك أن تُساق إلى الموت وبصرك شاخص، تراقب ولا يستطيع جسدك أن يتحرك أو يقاوم. "هناك ربطوني ربطًا محكمًا، وشبكوا يديّ ورجليّ ورأسي بأسلاك مربوطة بجهاز يشبه جهاز الأشعة. لا أدري لماذا أروي لك التفاصيل. أنت تعرف الجهاز جيّدًا. وتعرف الروتين جيّدًا. غرز الدكتور جونسون إبرة صغيرة ثانية في العرق. ثم فقدت الوعي، تقريبًا. ثم أحسست بأعظم ألم عرفته في حياتي. ألم لا يطاق ولا يوصف. لا أزال أرتعد حتى هذه اللحظة وأنا أتذكّره. شعرت بنار تدخل من أذنيّ إلى رأسي ثم تتسلّل إلى قدميّ. شعرت بشيء يهزّني بعنف. شعرت بمنشار يقضم عظامي. شعرت بأسناني تصطك. ثم فقدت الوعي تمامًا."[4] لا يدري الباحث إن كان القصيبي تعرض حقيقًا لهذه الصعقات، أم أنه اطّلع على شهادات لمن مورس عليهم ذلك العلاج الرهيب، فلوصفه تأثيرٌ كبير على النفس، أو أنه بطريقةٍ أدق "يقشعر الأبدان" لذلك حارب الراوي هذا العلاج ونقده نقدًا مريرًا، رافضًا إياه بشكلٍ قاطع، فهو بمثابة الموت المؤقت للإنسان، ويكاد الراوي من خلال الوصف أن يشبهه بانتزاع ملائكة الموت للروح، ولكن لعلمه أن ذلك الشعور إذا أصاب الإنسان لا يستطيع أن يتحدث عنه، قد امتنع عن ذلك، فهو يكون قد فارق الحياة بلا رجعة.

ثانيًا: المركبات الطبية:

لم يقتصر العلاج النفسي الذي تعرض له البروفسور على الصدمات الكهربائية، بل أتبعه بحقنٍ علاجيةٍ من مركباتٍ طبية متعددة، لم يكن تأثيرها أقل سوءًا من تأثيرِ الصدمات. "بدأت فترة من أشقى فترات حياتي. لا تختلف كثيرًا عن الفترة العصيبة التي مرّت بي في مصحة مونتري. – بس من غير صدمات كهربائية؟ – صدقت! الصدمات الكهربائية، وقتها، آوت أوف فَاشِن.[5] ولكني انتقلت من الرمضاء إلى النار"[6] هكذا بدأ البروفسور رحلته الجديدة من العلاج النفسي المفروض عليه في مصحة بلاكبول، حيث تجارب علاجية جديدة مورست عليه، شبهها بالنسبة للكهرباء بانتقاله من الرمضاء إلى النار. "لم تكن هناك

[1] العصفورية، ص90-91.
[2] العصفورية، ص90.
[3] العصفورية، ص91.
[4] العصفورية، ص91.
[5] موضة وانتهت.
[6] العصفورية، ص180.

صدمات كهربائية. كان هناك ما هو أدهى وأمرّ. العقاقير التي تبعث بالمخ عبثًا. ال. اس. دي 25."[1] يبدأ البروفسور بوصف تأثير ذلك التركيب عليه، بعد أن يختفي صوت الدكتور سبلووتر الذي يشبه التنويم المغناطيسي. "يزول صوت الدكتور سبلووتر ويبدأ الكابوس. أشعر أنني في وسط كرة لزجة مليئة بسوائل غريبة كريهة الرائحة. ظلام في كل مكان. ظلام دامس. خرمس كما يقولون في خليجعربستان. وأشياء تصطدم بي. أشياء مدُبّبة. أحاول الكلام فلا أستطيع. أحاول الخروج فلا أقدر. أحسّ بثلج يجمّد أطراف. خوف. رغبة في الصراخ. أسماك قرش تنهشني. غوّاصة تنطحني. بحر من الظلمات ..."[2] الوصف مروّعٌ جدًا، الأمر الذي أثار الشكاية والوجع من جديدٍ في نفس البروفسور. "استحلفك، بالله!، يا دكتور ثابت، هل يجوز هذا؟ هل يجوز تدمير المخّ بكيمائيات قاتلة؟"[3] لكن الطبيب يعتبر أن ذلك مرحلةً ومرت من مراحل العلاج النفسي، وكأن البشر الذين أُجريت عليهم تلك التجارب والمراحل كانوا من فصيلةٍ غير فصيلة المخلوقات التي تمتلك الأرواح!

يكمل البروفسور الوصف المخيف لأثر تلك المركبات على الإنسان[4] حيث فكرتها أنها تعمل على إعادة الإنسان إلى مراحل طفولته؛ لكي يتخلص من العقد المترسبة عنده منذ تلك الفترة! والأسوأ من ذلك كله أن مدة علاجه كانت مدةٌ تجريبية! " – كان من سوء حظي أنني زرت مصحَّة بلاكبول في ذروة الاستعمال التجريبي."[5] لينتقل بنا البروفسور بعد ذلك إلى تجارب أخرى أجراها الأطباء النفسيون على البشر، مرتكزين بذلك على نظرية فرويد الجنسية، وعقدة أوديب الأسطورية.

ثالثًا: العلاج بالتنويم المغناطيسي وتناسخ الأرواح:

كان ذلك في مصحة جنيف على يد الدكتور مونتيسكييه، "في هذا المكان العجيب تعرّفت على الدكتور مونتيسكييه، وليتني لم أتعرّف عليه. سويسري بوذي مجنون خالص يؤمن بالتنويم المغناطيسي وتناسخ الأرواح. كان ينوّمني مغناطيسيًا، كل يوم، ويرسلني في رحلة عبر القرون بحثًا عن تناسخاتي السابقة حتَّى كاد يصيبني بالجنون."[6] حتى الدكتور سمير ثابت لم يصدق ذلك، لكن الراوي يريد أن يوضح أن كثيرا من النظريات النفسية، المعمول بها أو غير المعمول يطبقها بعض الأطباء بشكلٍ خاص، وكل منهم يمارس العلاج النفسي على طريقته، التي قد تكون صائبة وقد تكون خاطئة، في النهاية هي تجارب على البشر، إن فشلت فشلت وإن نجحت نجحت!. " – عفوًا، يا بروفسور! صدّقت هالحكي؟! – كبّر عقلاتك، يا نطاسي! كيف أصدّق هذا الهراء؟ سخفه لا يقبله عقل أو نقل. في الإسلام لا توجد سوى نفس واحدة تغادر الجسد عند الموت إلى البرزخ وتحشر مع الجسد. لا توجد أرواح متنقّلة."[7].

---

[1] العصفورية، ص180.
[2] العصفورية، ص180.
[3] العصفورية، ص181.
[4] انظر العصفورية، ص180، 181، 182.
[5] العصفورية، ص180.
[6] العصفورية، ص264.
[7] العصفورية، ص256.

كانت تلك جولةٌ حول أنواع العلاج التي تلقاها البروفسور في المصحات المختلفة وعلى أيدي العديد من الأطباء، يرفض خلالها تلك الأنواع من العلاج.

العلاج النفسي الذي يرتضيه:

ورد فيما سبق أن الراوي قد ارتضى العلاج الذي قامت به الطبيبة النفسية دولوريس إيفان جلستكا؛ لأنه لم يقم على عقد نفسية أو غير ذلك من نظريات فرويد، وأن الطبيب النفسي في سبعة قد تعامل مع بستان بطريقةٍ تقوم على مساعدتها على تفهم المواقف، وتلمّس المشاكل، وليس على إرجاعها للعقد النفسية الجنسية المترسبة على اعتبار أنها خرافات وأساطير.

لكي يمكن الوصول إلى رؤية الراوي في علم النفس وفي العلاج النفسي، يجب الاستعانة برواية العصفورية وسبعًا معًا، لأنه ربما كان منظّرًا في العصفورية، لكنه كان مطبقًا في سبعة من خلال تقنع الروائي خلف شخص الطبيب النفسي أنور مختارجي. فهو يعتقد أولًا * أنه على المريض الاقتناع بأنه يعاني من مشكلة، ثم يطلب هو نفسه العلاج، ولا يُكره عليه إكراهًا، لأنه سيكون بمثابة التعذيب. " – القاعدة الذهبية في الطب النفسي هو أنه لا جدوى من محاولة العلاج ما لم يعترف المريض أن لديه مشكلة وما لم يطلب بنفسه العلاج."[1] وإن لم يكن ذلك العلاجُ تعذيبي، فإنه سيكون بكل تأكيد بلا فائدة، ويجب أيضًا أن يكون العلاج مقنع. "حقيقة الأمر، كان هو الذي يتكلم طيلة الوقت، وكنت أكتفي بالاستماع"[2] فالبروفسور لا يؤمن بالتناسخات فما كان منه إلا أن أحجم عن المشاركة بالنقاش والأخذ والرد مع الدكتور مونيسكييه، واكتفى بأن يكون مستقبلًا سلبيًا. * كما أنه يجب أن يكون لدى الطبيب المُعالج، فهمٌ لطبيعة النفس البشرية، مثلًا: " – غريزة الأنثى، كغريزة الرجل، لا يمكن الركون إليها في غياب الأدلة والقرائن ... – من أقوى الغرائز، عند الأنثى والذكر، تصديق ما يرغب الواحد مِنّا تصديقه."[3] * وأن يقوم ذلك كله على التبسيط وليس التعقيد. "كان البروفسور –ويلنج– يحاول تبسيط المسألة. – وتبسيط المسائل خير من تعقيدها."[4] لكي يريح ذلك المريض ويدعوه لفهم مشكلته بعيدًا عن التهويل، فيمكن العلاج بعد ذلك. * كما يرى راوي سبعة أنه يجب أن يتم التعامل مع المرضى بأمانة. "لا بُدّ أن أتعامل مع مرضاي بأمانة. كان بوسعي أن أجلس معه شهرًا بعد شهر وسنة بعد سنة نتحدث عن العقد المترسّبة التي تدفعه إلى الإدمان."[5] فذلك رجلٌ يعاني من الإدمان بدأ يعالجه الطبيب بقواعد بسيطة، دون العودة إلى التاريخ الجنسي وعقد فرويد وأوديب، فهو يطالبه بالانضباط الذي يجيء مع المران، وذلك بعدم مقاومة الرغبة لأن ذلك صعبٌ من أول مرة، ولكن يمكن أن

[1] سبعة، ص192.
[2] العصفورية، ص268.
[3] سبعة، ص170.
[4] العصفورية، ص266.
[5] سبعة، ص182.

يتم بتأجيل تلك الرغبة حتى ينتهي من عمله، وأن يشرب بعيدًا عن أسرته حتى لا يعكر صفو العلاقات الأسرية. والنتيجة، "ذهب المستر هاكسل وعلى وجهه علامات الارتياح"[1] فتحكم المريض برغباته عن طريق تأخيرها وتأجيلها، وليس إنهاؤها من أول مرة باستخدام العقاقير العلاجية، والتحليلات النفسية الغير مجدية؛ أدعى إلى تنمية ثقته بنفسه وبقدراته، ومن ثم إلى اتخاذ القرار الصحيح، وعلى كل حال من يقوم بذلك العلاج سيكون إنسانًا خبيرًا.

ومما يعتقده طبيب سبعة كذلك، * مصارحة المريض بمشكلته الحقيقية وليس المشكلة التي يظنها المريض ذاته. " – مشكلتك هي المشكلة التقليدية: اصطدام السلوك الجديد بالقيم القديمة. لن أحاول أن أضيّع وقتك أو وقتي. لا حلّ إلا بالتخلّي عن المسلك أو التخلّي عن القيم."[2] فهذا أسقف يحب شابًا، المعنى أنه شاذ، وهذا يتعارض مع الكنيسة ومنصبه فيها، ويرى أنه خدع الآخرين بما فيه الكفاية ويريد الوصول إلى قرار حاسم في مشكلته، ويرى الطبيب أن الأسقف واسع الثقافة ولا حاجة معه للف والدوران فيعطيه الحل مباشرةً، فهو يختلف عن أي شخصٍ قليلُ المعرفةِ والخبرةِ في الحياة، فذلك يحتاج إلى تدرج، وتفهيم، أما هذا فأسقف! أي صاحب أعلى رتبة كهنوتية في ديانته، هل من المنطقي أن يعامله الطبيب كما يعامل فتاة صغيرة السن كبستان؟!

تلك كانت نماذج تعامل معها الطبيب النفسي في سبعة وتلك فلسفة الروائي بشكلٍ عام فيما يتعلق بالطب النفسي، أنه هناك أشخاصًا، تعرضوا لحوادث في حياتهم، صدمتهم وسببت لهم الحزن، ومشاعرَ لم يكونوا عليها من قبل، فلا داعي إذًا للعودة إلى التاريخ الطفولي لجميع المرضى، فليس كلّهم واحد، وبعض المشاكل بسيطة لا تحتاج لكل ذلك العنت والاستجواب.

[1] سبعة، ص182.
[2] سبعة، ص182.

ثانيًا: النقد الفلسفي:

الفلسفة على اعتبار أنها محبة الحكمة، والبحث في حقيقة الأشياء وكنهها، سُميت بذلك الاسم، وأصبحت أم العلومِ والآدابِ منذ فجر الحضارة الإنسانية. وقد كان الأدبُ من أهم الأسباب التي أدت إلى الالتفات إليها، حيث الأسطورة اليونانية الأولى، والملاحم التي خلدها التاريخ إلى يومنا هذا، وعلى ذلك الأساس نشأت الفلسفةُ وبدأت تتطور، وعلى ذات الأساس اختلف الفلاسفة الأوائل أيضًا، فأفلاطون يمنع الشعراء من دخول مدينته، أما أرسطو فيُنتج في فنهم الكتاب الأول من نوعه "فن الشعر".

الأدب والفلسفة:

علاقةٌ جدليةٌ أخذت طابع الإثبات والنفي، في كثيرٍ من قراءات النقاد والأدباء والفلاسفة حول وجودها، بمعنى: هل هناك علاقة بين الأدب والفلسفة؟ أو بين الفلسفة والأدب؟ الأساس التكويني للفلسفة يقول: نعم. فما جاءت إلا لمعالجة قضايا تتعلق بحياتهم، والتي كان منها بالدرجةِ الأساس، قضية الأدب الذي كان منتشرًا لدى اليونان، وهو الأساطير، إضافةً لباقي العلوم في ذلك الزمان. بمعنى أن "كلّا من الفلسفة والأدب يسعى لأن يطرح أسئلة كبيرة تختص بتوصيف حقائق عميقة في مسعى جاد لإضفاء نوع من نظام ما على الفوضى الضاربة التي تلفّ العالم الذي نعيشه"[1] وطالما أن الأدب والفلسفة يشتركان في ذات الوظيفة، وهي محاولة توصيف الواقع والبحث عما وراء الظواهر، فمن بابٍ أولى أن تكون بينهما تلك العلاقة، سواء وافق أرباب الفلسفة الأوائل أم رفضوا، فقد "كانت العلاقة بين الفلسفة والأدب علاقة شك مستديم، أو لنقل في أقل التقديرات كانت علاقة غير سلسة ، فقد كان أفلاطون واضحاً للغاية في عدائيته تجاه الفن"[2] ورغم ذلك العداء بين أفلاطون والأدباء –لدرجة أنه أقصاهم عن مدينته الفاضلة– فإن ذلك لا يمنع العلاقة بين الفلسفة والأدب، فـ"عمل الفلسفة يتجلّى في "تشخيص" الحاضر، وطرح الأسئلة عن هويتنا الخاصة وعن الزمن الذي نعيشه."[3] شئنا أم أبينا! هذا هو عمل الأدب أيضًا، سواء وافق ذلك نظرية الواقعيين الاشتراكيين، أم عارض نظرية الانطباعيين الجماليين، فمن حيث لا يدري الأديب يجد نفسه يبحث في تلك التساؤلات الفلسفية حول الهوية والحاضر الذي يعيشه.

"يبدو أن العلاقة المتميزة ببعض أوجه الصراع بين الأدب والفلسفة تتغير معالمها حين نعثر على فيلسوف يسكنه أديب ينتفض على تكوينه الفلسفي ليلجأ إلى استعمال اللغة الشاعرية، أو نصطدم بأديب

---

[1] جيمس رايرسون، الفلسفة في الرواية، ترجمة: لطفية الدليمي، جريدة المدى، بغداد، عدد: 3376، 6-2-2015، https://almadapaper.net/Details/129053 .

[2] المرجع السابق، نفسه.

[3] محمد أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2014، ص29.

يستدعي منا كثيرًا من اعتبارات السؤال والمقاييس الفلسفية"[1] وقد امتلأت ساحة الأدب والفلسفة على حدٍ سواء بتلك الأسماء الأدبية الفلسفية، منذ أبي العلاء المعري، والمتنبي، في الشرق، وحتى هولدرلن، ودوستوفسكي، وفولتير، وكونديرا، في الغرب، وصولًا إلى أدونيس ومحمود درويش لدى العرب المحدثين، "لا يمكن حصر نصوص هؤلاء الشعراء والروائيين في مجال الأدب، لأنه يجوز التعامل مع كثير من أجزائها انطلاقًا من اعتبارات التفكير الفلسفي"[2] إذًا فالفلسفة ارتبطت بالأدب منذ قرونٍ طويلة، وامتد ذلك الارتباط حتى عصرنا الحالي، لتتم فلسفةُ الأدبِ تارةً، و"تأديبُ" الفلسفةِ تارةً أخرى.

وكما سبق فإن ذلك الارتباط لم يتوقف على الغرب ، فهناك العديد من الأسماء العربية التي استفادت من العلاقة ما بين الفلسفة والأدب، في إبراز أصواتها وطموحاتها. "كما كان يهم هذا العمل تأكيده مشروعية النظر إلى الإنتاج الفكري والنظري العربي المعاصر، باعتباره جُماع اجتهادات معرفية ونقدية بارزة لا تنفصل عن المرجعيات الفلسفية والنظرية النقدية الأوروبية الحديثة"[3] ومع ذلك فإن تلك العلاقة الفلسفية الأدبية لا تتمتع بالصيرورة الكبيرة لدى الأدباء العرب. "ومما يؤسف له أن كُتّاب الأدب العربي قصروا بحثهم ونماذجهم ونقدهم على النوع المعروف (Bell letter) أو الأدب الجميل أو الأدب الصرف؛ وكان خيرًا لهم أن يفهموا الأدب بالمعنى الواسع حتى يشمل الفلسفة وحتى يشمل مثل مقدمة ابن خلدون ..."[4] والأدب هنا كلمة جامعة، ومن الأساسات المتينة لها "الشعر" "وأنا ممن يفرضون القراءة والتفكير على الشعراء، ولا يؤمنون بشاعر عظيم لا تستخرج من شعره فلسفة جامعة للحياة، فليس الشعر خيالًا محضًا كما يزعمون"[5] أما ما دفع الباحث للحديث عن الشعر، فهو مقالة القصيبي: "الشعر يا قوم ليس فلسفة إنسانية. لا تنسوا هذا وأنتم تقرؤونه– وتحاكمونه!"[6] والحقيقة أنك تستخرج فلسفات وفلسفات من شعر القصيبي، ومن رواياته وباقي كتاباته على حدٍ سواء، وهذا ما يدرسه الباحث في هذا المبحث! فما الذي دفع القصيبي لهذا القول؟ أينهى عمّا وقع فيه؟! ربما ما دفعه إلى ذلك القول، هو الخلط الكبير بين الأمرين، لدرجة إخفاء طبيعة كلٍ منهما في الآخر، وهذا بطبيعة الحال غير مقبول! فـ"للفلسفة طبيعة وللأدب طبيعة أخرى مغايرة"[7] صحيحٌ أن بينهما علاقة، ولكن هذه العلاقة لا تُذيب الفوارق بين الجانبين، بين علم التجريد وعلم الجمال. "إن الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة، والشعر مع اختلاف في النسب وتغاير في المقادير ... فلا نعلم فيلسوفًا واحدًا حقيقيًا بهذا الاسم كان خلوًا من السليقة الشعرية، ولا شاعرًا يوصف بالعظمة كان خلوًا من الفكر الفلسفي"[8]. إذًا لا يمكن بحالٍ من الأحوال إنكار العلاقة بين الأدب والفلسفة أو إلغاؤها، ولا يمكن كذلك تذويب الفوارق بينهما ودمجهما في علمٍ واحد. فـ"العلاقة بين الفلسفة والأدب قد تكون مفتاحًا للدخول في علم

[1] النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص206.
[2] النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص206.
[3] المرجع السابق، ص270.
[4] النقد الأدبي، ص221.
[5] عباس العقاد، ساعات بين الكتب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص253.
[6] غازي القصيبي، بيت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002، ص44.
[7] النقد الأدبي، ص257.
[8] ساعات بين الكتب، ص253.

الجمال كوسيط بين الفلسفة والأدب"[1] بمعنى أنها تكون وسيطًا بين الجفاف الفلسفي التجريدي، والجمال الأدبي العاطفي، ووسيلةٌ لقراءة الحياة، والقصيبي مع توظيفه للفلسفة في فنه الشعري والروائي على حدٍ سواء، إلا أنه يُثبت الفوارق بين كليهما، وبين مختلف العلوم كذلك. "إذا كان الدين هو الإنسان في حالة عبادة، والعلم هو الإنسان في حالة تجريب وبحث، والفلسفة هي الإنسان في حالة تأمل، فالشعر هو الإنسان في حالة غناء"[2]، فلكلِ جانبٍ من تلك الجوانب خواصه التي تميزه عن غيره، واعتباراته التي تجعله علمًا أو فنًا مستقلًا بذاته.

قد "وضح تأثير الاتجاهات الفلسفية المختلفة في الأدب والنقد. وفي الحق نجد كل مذهب أو اتجاه أدبي –بخاصة في العصور الحديثة– متأثرًا دائمًا بأمرين، بتيار فكري من التيارات السائدة العصر، ويتمثل في نزعة من النزعات الفلسفية، ثم الاستجابة إلى حاجات المجتمع "[3] فالمرجعية الأولى لأي تيار فكري، يتأثر به الأدب والفن بشكلٍ عام، هي الفلسفة غالبًا، ولا يمكن إنكار هذا التأثير، لقوة سطوته على الأدب وباقي أشكال الفنون والعلوم.

الرواية والفلسفة:

أما عن الراوية باعتبارها من أبرز معالم الأدب، وباعتبارها موضوع الرسالة قيد الدراسة، فلا بد من التعرض لها ولعلاقتها بالفلسفة، "إن الرواية أول ما تهتم، تهتم بالحياة وبالرجال والنساء وعلاقاتهم، والأفكار والعواطف والانفعالات والدوافع التي تحكمها وتسيطر عليها بأفراحهم وأحزانهم ... فإن التحليل الدقيق يدلنا على ما للروائي من نظرات إلى الحياة مهما كانت نظريته تافهة، كما تدلنا على فلسفته في الحياة. والفرق بين روائي وروائي، هو الفرق بين فلسفة جديدة عميقة وفلسفة تافهة، والروائيون العظام يمتازون بفكرة الحياة"[4] وربما إن الرواية هي الفن الأدبي الأكثر تأثرًا بالفلسفة، والعلاقة بينه وبين الفلسفة أكثر بروزًا بالنسبة لباقي الفنون الأدبية، فالروائي يعبر عمّا يريد باحتمالٍ أكبر منه في غيرها من الفنون القصيرة، بل و"أصبحت الرواية بنية ثقافية متعددة المعارف، وبانوراما حقيقية تمدنا بحقول ابستمولوجية معرفية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والفلسفة والفن المباح والمحرم"[5] ولا أدل على ذلك القول من روايات غازي القصيبي لا سيما الروايات موضوع الدراسة.

"لا أصعب من أن ننظر إلى الكتابة السردية بعيداً عن التفكير الفلسفي، لأن لكل رواية ولكل مشروع قصصي فلسفته الخاصة التي يتحدد من خلالها خط سير الكاتب ورؤيته للوجود وللأشياء"[6] وهذا أمرٌ واقعٌ

---

[1] محمد العجمي، القراءة الفلسفية تجربة وتحديات، ورقة عمل قُدمت في احتفال جمعية الكتاب والأدباء في اليوم العالمي للفلسفة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، http://www.alfalq.com/?p=8893 .

[2] استجوابات غازي القصيبي، ص104.

[3] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مدينة السادس من أكتوبر، د.ط، 1997، ص328.

[4] النقد الأدبي، ص115-116.

[5] كريمة غيتري، تداخل الأنواع الأدبية في الرواية العربية المعاصرة "قراءة في نماذج"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، تلمسان، 2017، ص59.

[6] سامي جريدي، تقاطع أم منافسة!! ارتباط الرواية بالفلسفة، صحيفة الرياض، عدد: 14346، 4-10-2007، http://www.alriyadh.com/284337 .

في رؤية المتلقي للرواية، فإذا أراد المتلقي أن يُعمل الفكر فيما يقرأ من روايات، خاصة كروايات القصيبي التي بين أيدينا، فإن عليه أن يجنح إلى فلسفة الروائي؛ لكي يستطيع أن يفهم المحيط الذي وضعه فيه الكاتب.

إذًا لا خلاف على أن علاقة جيدة للفلسفةِ مع الرواية، ولكن ما الغرض من هذه العلاقة، ولماذا تتم فلسفة الأدب، وتأديب الفلسفة؟ هل الغرض من ذلك هو ما أراده الباحث ديفيد فوستر والاس؟ "إن الغرض من الرواية الفلسفية لا يكمن في جعل الموضوعات الفلسفية المجردة متاحة للقارئ العادي عبر تبسيط مخلّ بالأفكار بل أن الغرض الأساسي منها هو في إشباع الجوع المفاهيمي للقارئ ودفعه بالنتيجة إلى قراءة النصوص الفلسفية ذاتها"[1] يبدو أن ديفيد قد جرب النتيجة بنفسه "وقد اعترف والاس أن عمله الروائي الأول (مكنسة النظام The Broom of the System) المنشور عام 1987 كان خيبة كبيرة و فشلاً ذريعاً في محاولته دفع الجمهور لقراءة أعمال (لودفيغ فيتغن شتاين)"[2]إذًا فما هو الهدف؟! الهدف: معالجة الواقع. الذي هو هدف الفلسفة أساسًا، وهدف الأدب، وهدف العلوم الاجتماعية، والنفسية، والإنسانية عمومًا، "يدّعي الفيلسوف، بلغته التجريدية، التي تبدو صارمة في عقلانيتها أحيانًا، وغامضة في صياغاتها أحيانًا أخرى، الإحاطة بكثير من مستويات التفكير سواء كانت علمية أو أدبية. ويمكن للأديب ذاته أن يقول إن حدود اللغة المنطقية لا تسمح بترجمة نبضات، وأشواق، وكشوفات تخترق العقل، وتتجاوز صرامة القياس. ومن ثم لا ترقى الحقيقة التي يبلغها الفيلسوف إلى مستوى قدرة المتخيل الأدبي على اكتناه الغامض بواسطة المجازات والاستعارات."[3] وطالما أن الفلسفةَ هي الطريق الأكثر قدرةً على التعبير عن الواقع المتأزم الذي يعيشه الإنسان في العصور المختلفة لا سيما المتأخرة منها، فلا بد للمفكرين والأدباء أن يلتجئوا إليها، وطالما أن الفلسفة هي خطاب خواصٍ يتسم بلغته التجريدية الصعبة الجافة، كان لابد من سبيلٍ أقرب إلى عقل المتلقي الجمعي، فكانت الروايةُ هي السبيل الأمثل إلى ذلك المُراد.

النقد والفلسفة:

هل للنقد علاقةٌ بالفلسفة؟ تساؤلٌ إجابته بديهيةٌ جدًا، تنبع من أساس الفلسفة التي تعددت صلاتها، لتكون إحدى تلك الصلات البارزة هي الصلةُ مع النقد، فـ"النقد له اتصالٌ وثيق بالفلسفة"[4] لأنه يبحث عن الحقيقة وكذلك تفعل الفلسفة. "فإذا كانت الفلسفة تسعى إلى اكتشاف الحقيقة، من خلال التساؤل، والبحث عن العلل الأولى، فالنقد كذلك، بصيغة من الصيغ، فلسفة تسعى إلى وضع العمل الأدبي في مجال البحث والتعليل. إن النقد فلسفة، ما دام يستند إلى السؤال"[5] فالأمر أصبح أكثر من كونه صلةً فحسب، بل يمكن أن يكون النقد علمًا فلسفيًّا في حد ذاته. "لم يَسْلم الفكر النقدي من النقد؛ فهو متورط في مستويات الفلسفة

[1] الفلسفة في الرواية.
[2] الفلسفة في الرواية.
[3] في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص206.
[4] النقد الأدبي، ص14.
[5] رشيد طلبي، النقد الأدبي والفلسفة.. الحدود الوهمية والعلوم الحقيقية، صحيفة عكاظ، د.ع، 1-1-2016، https://www.okaz.com.sa/article/1036229 .

الحديثة كلها، بل ويمثل أساسًا من أسس الفكر العصري"[1] لأن النقد سؤال في حقيقة ذاته، و"قد أسهمت الفلسفة والعلوم الإنسانية والفن في التأسيس المتجدد للسؤال، وفي بلورة تصورات نقدية للذات، والعالم، والمجتمع، والسياسة، والأخلاق. ومنحت الفكر النقدي حضورًا دائمًا من حيث هو يقترح على الفكر الإنساني انفتاحات في منتهى الكثافة والغنى."[2] وقد أُتخذ النقد كأداة فلسفية أيضًا. "اتخذت النقدية (Criticisme) باعتبارها اتجاهًا في الفلسفة الغربية، من النقد أداة إجرائية رئيسية في النظر والتفكير."[3] إذًا، وفي كل الأحوال هناك علاقةٌ وثيقة للنقدِ بالفلسفةِ، اختلفت هذه العلاقة في مدى قربها وبعدها من الفلسفة، فتارة كانت تمثل ارتباطًا وثيقًا، وأخرى كان كلٌ من النقد والفلسفة على ذات الخط، وفي بعض الأحيان كان النقد أداةً للفلسفة، ولا يعتقد الباحث أن هناك ما يمنع من أن يكون العكس صحيحًا.

الفلسفة والنقد الروائي:

لا يقُصدُ هنا من النقد الروائي ما يجريه الناقد على الرواية من دراسةٍ وتحليلٍ واكتشاف، بل ما تتضمنه الروايةُ ذاتها من نقدٍ لشتى المجالات في الحياة، على اعتبار أن الدراسة تختص بتجليات النقد في روايات القصيبي.

لقد "جعل بعض المفكرين والنقاد الفلاسفة من المتن الروائي متنا لأسئلتهم بحيث انطلقوا يطرحون نظرياتهم وأفكارهم حول الأنا والزمن والهوية"[4] وذلك بطريقتين "الأولى أن يعمل عمل المؤلف المسرحي فيفسر الحياة بعرضها فقط، والطريقة الثانية أن يشرح فلسفته بذكر الوقائع ومناقشة الأشخاص، فيتكلم عن المسائل الخلقية التي تعرض لأشخاص."[5] ولعل القصيبي كان أقرب للطريقة الثانية في مختلف رواياته، وقد توفرت في تلك الروايات جميع العناصر النثرية للرواية. "فالتصميم والأشخاص والحوار، وزمن الحوادث ومكانها والأسلوب والفلسفة الصريحة، أو الضمنية عن الحياة، هذه كلها العناصر الرئيسية للرواية النثرية"[6] فنلاحظ أن الأستاذ أحمد أمين قد عدَّ الفلسفة من العناصر الرئيسية للرواية، وبطبيعة الحال فإن تلك الفلسفة ستتحقق من خلال السرد الذي سيحتوي العديد من المسائل الفلسفية. "كالطقوس السحرية والمعتقدات الدينية وعوالم الجنوح الصوفي، المتصلة بقضايا البحث في الأسرار والتأملات والغيب هذه كلها تدخل في السرد الفلسفي"[7]، وليس ذلك فحسب، فلكي يمكن أن يتم الحكم على روايةٍ ما، أنها فلسفية، يجب أن يتوفرَ إضافةً إلى ذلك السرد الفلسفي، العديد من الصفات في عناصرها الأساسية. "شخوص الرواية المحتوية على جوانب فلسفية أو فكرية خاصة ليست مجرد شخوص عادية، ومجريات أحداث الرواية ليست مجرد أحداث عادية أو عابرة، ولكن في كثير من الأحيان تحوي بين طياتها وداخل أعماق شخصياتها آثارًا ولمسات الفيلسوف والمفكر،

[1] في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص7.
[2] في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص10.
[3] في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، ص17.
[4] تقاطع أم منافسة!!
[5] النقد الأدبي، ص116.
[6] المرجع السابق، ص106.
[7] تقاطع أم منافسة!!

ومن خلال هذه الشخوص الإبداعية تمكن كثير من الفلاسفة والمفكرين من تكريس جل أفكارهم وفلسفاتهم المتعلقة بالحياة والكون والطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة.[1] وهذا الوصف ينطبق على رواية العصفورية للقصيبي، إذ وُصفت في غير مكانٍ بالفلسفية. "ولم يكن العرب أقل شأناً من الأوروبيين في تقديم الروايات الفلسفية، ولعل رواية العصفورية التي كتبها الأديب غازي القصيبي تمثّل رؤية فلسفية عميقة، فالرواية التي تقع أحداثها في مستشفى الأمراض النفسية كانت غنية بالأحلام والأوهام والآلام، بل إن الكاتب قدم فيها رؤيته الفلسفية في الكثير من الأمور السياسية والاقتصادية، فقد كانت الشخصية الأساسية لرجل مجنون وليس على المجنون حرج، فضلاً عن ما يملكه الكاتب من موسوعة معرفية هائلة قدمها في استطراداته، بطريقة لم تؤثر على أسلوبه الساخر الفكاهي."[2] ولم يقف الوصف الفلسفي فقط على رواية العصفورية للقصيبي فقط، بل تعداه لباقي مصنفاته. "لا يغفل أي قارئ لأي كتاب لغازي القصيبي وجود فلسفة أو حكمة متضمنة في كتبه، وعلى الرغم من ذلك تجد هذه الحكمة والفلسفة قبولاً لدى القراء لا لشيء ولكن لأنها تنتهج نهج التجربة التي تفرز الحكمة لا الحكمة التي تؤثر على التجربة"[3] وقد اعتبرها كبار النقاد العرب كالغذامي رواية محيرة "رواية العصفورية هي من الروايات المحيرة، ولذلك وصفتها أنها رواية ما بعد الحداثة، لأنها رواية متجاوزة لكل شروط القيد النصي، ومنفجرة من داخلها"[4]، فقد تضمنت مختلف المعارف وشتى الأفكار، بطريقة سرديةٍ فريدةٍ من نوعها، وجديدةٍ على الساحةِ الروائيةِ لدرجة الحيرة، طاف راويها بالعوالم المختلفة، عوالم ما وراء المعلومة، وما وراء المعرفة، حيث الفضاء والجن والأرواح، طوّف صاحبها على الطريقةٍ المعريةِ الفلسفية، عوالم الميتافيزيقا، وعوالم الواقع كذلك، فالتقى الأدباء والشعراء، دبّج مختلف العوالم السياسية والإدارية والاجتماعية والنفسية والفلسفية في قالبٍ روائيٍ موسوعي فريد. لقد ملأ القصيبي أيدينا أدبًا، وعلمًا، وفلسفة، وارتحل إلى أمريكا وأوروبا وغيرهما وعاش فيهما، فهو عندما ينتقل بأدبائه في رحلته الأرضية الباريسية، يذكر التفاصيل حيث الشوارع والمقاعد، والمقاهي ومختلف الأماكن، ولم يكن يتحصل على معرفته بتلك المدن من خلال الكتب فقط، بل من خلال المعاينةِ والمشاركة.

---

[1] محمد السعد، تأديب الفلسفة أو الرواية الفلسفية، جريدة الحياة، 28-10-2014،
http://www.alhayat.com/article/819001/%D8%AA%D8%A3%D8%AF%D9%8A%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8%A9-%D8%A3%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D9%8A%D8%A9 .

[2] عادل الدوسري، الرواية الفلسفية، صحيفة الجزيرة، 23-1-2016، http://www.al-jazirah.com/2016/20160123/cu15.htm .

[3] محمد رشوان، لماذا يعد القصيبي من أهم أدباء العصر الحديث؟، موقع لماذا الالكتروني، 15-11-2017،
https://www.limaza.com/%D8%BA%D8%A7%D8%B2%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D9%8A/.

[4] الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات، ص29.

نماذجٌ فلسفيةٌ في روايات القصيبي:

لقد تميز القصيبي في تناوله لقضاياه المتعددة في رواياته، بأن جعل طريقة تناوله مختلفة عن السائد، جعلها طريقةً فلسفيةً بنظرةٍ مختلفةٍ للأشياء، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في رواياته.

فلسفة الحب:

عبّر راوي العصفورية عن الحب بطرقٍ متعددة، فالحب بشكلٍ عام معناه. "استعدادك أن تعطي من تحبّ مفتاح شقّتك"[1]يبدو أن الراوي يريد أن يقرر أنك إن أعطيت مفتاح شقتك لشخصٍ ما، فإنك قد بلغت معه مرحلةً كبيرةً من الثقة، فلا تخشى أن يعتدى على ما تملك، ولا أن يرى شيئا يسوؤك رؤية غيرك له، أو تحاذر من أن يكشف سرك، فأنت طالما أعطيته مفتاح شقتك، فقد فتحت له الباب على مصراعيه في علاقته معك. أما الحب بين المرأة والرجل فذلك هو الحب الحرّ! "أخبرتْني أنها ستقضي اليوم التالي مع والديْها. لم تستأذني. أخبرتني. هل الحب يعني أنك لست في حاجة إلى استئذان؟ بالتأكيد! لم يكن بيننا تملك أو امتلاك."[2] ولا ينبني ذلك الحب الحر إلا على الثقة، فتذهب أين تريد ومتى تريد، دون تحقيقات وأسئلةٍ كل حين، ودون طلب إذنٍ وكأنك تعمل في دائرةٍ حكومية! وأحيانًا يصل الأمرُ لأن يتم تشبيه الحب بالسجن بسبب كثرة التساؤلات والشكوك! أما الحب الخالدُ بالنسبة له، فهو حبُ الطرف الواحد. "الُحبّ من جانب واحد أعنف أنواع الُحبّ، وربّما كان أخلدها. والسبب؟ السبب أنّه لا توجد في هذا الحبّ منافسات، ولا مشاحنات، ولا مشاجرات، ولا إمكانية للفتور، ولا احتمال للملل، ولا أمل في الفراق. الحبّ من جانب واحد هو الحب باراكسلانس، الحب النموذج، الُحبّ في شكله البريء الأصلي"[3] ويكمل في موطنٍ آخر توصيفه للحب الخالد البريء. "مذاق الحب من طرف واحد مذاق عجيب. حلو. مرّ. مدمّر. منعش. كل المتناقضات في شعور واحد. لا تستطيع أن تبقى ولا تستطيع أن ترحل. لا تستطيع أن تنسى. ولا تريد أن تتذكر. لا تريد أن تفرض نفسك. وتعجز عن إنكار ما في نفسك. كانت أيامًا غريبة" والحقيقة أن هذا الوصف المليء بالمتناقضات هو الغريب والعجيب! وكأن الراوي يريد أن يقول: إنه لا يثبت على حالٍ خلال حبّه لفتاةٍ من طرفه فقط، يبين الحالة الغريبة التي هو عليها، خلال وطأة المشاعر التي تعصف به من كل اتجاه، لدرجة أنه لا يستطيع أن يصف ما هو عليه من شعور، هو يخلّدُ ذلك الحب، ويمجده، ثم يستعصي عليه تفسيره وتأويله، ولكن ذلك مؤداه كله: أن التملك قاتلٌ للحب فإن تملك الإنسان ما يريد أصابه الفتور، وخمدت ثورته.

يبين علاقةً أخرى من علاقات الحب، بين الأب وأبنائه. "أتى الزمان بنوه في شيبته * فسرّهم... وأتيناه على الهَرَم" حقيقة الأمر، أن الأب الهَرِمْ يُدلّل أبناءه أكثر مما يدللهم الأب الشاب. كيف دخلنا في هذه المتاهات؟"[4] وفي ذلك التفسير يستند لشعر المتنبي، ليقول إن الأب كبير السن، يدلل أبناءه أكثر من الأصغر سنًّا، وذلك أمرٌ يجب أن يكون، لحالتين إما أن يكون الأب الهَرِم قد تأخر وزوجه في الإنجاب،

[1] العصفورية، ص62.
[2] العصفورية، ص73.
[3] العصفورية، ص137.
[4] العصفورية، ص149.

فيصبح أشد شوقًا، وأكثر رقةً وتدليلًا لهم، والتدليل بطيعة الحال من مقتضيات الحب، وإما أن يكون للأب الهَرِم أبناءً كبار، ولكنه رقَّ طبعه مع طول السنين وتقادم العمر، فانعكس ذلك على تعاملهِ مع أبنائه بشكلٍ عام والأطفال منهم بشكلٍ خاص.

ولحب الوطن عند الروائي مكانٌ في فلسفته. "حُبّ الوطن، أساسًا، قائم على الذكريات. بدليل أن فاقدي الذاكرة لا يحبّون أوطانهم.

"وحبَّب أوطانَ الرجال إليهم * مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا.

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتُّهم * عُهود الصبا فيها.. فحنّوا لذلكا""[1]

يستند لشعرٍ في تبيان فلسفته مرةً أخرى، وهو شعر ابن الرومي، وتفسير تلك الفلسفة تجده في رواية سبعة. "–ما هو الوطن؟ هل هو هذا البحر؟ الشاطئ اللازوردي أجمل من هذا الساحل بكثير. هل هو تلك الجبال؟ الجبال السويسرية أكثر روعة. الوطن ليس أرضًا. – ما هو الوطن إذن؟ – الوطن هو رغيف الخبز والسقف والشعور بالانتماء والدفء والإحساس بالكرامة. هنا لا يتحقق شيء من هذا إلا عبر العشيرة."[2] فهذا الحوار يدور بين الصحفية جلنار وريمون أبو شوكة، الوزير ورئيس الحزب السياسي في عربستان x، حول ماهية الوطن، فهو يبين ما معناه، إنه إن استندنا إلى التضاريس من أجل تعريف الوطن، ففي الكثير من بلدان العالم، ما هو أجمل بكثيرٍ من هذه التضاريس، ليصل في النهاية إلى أن الوطن ليس أرضًا، وإنما هو الشعور بالسكينة والأمان والانتماء والدفء والاستقرار، وفي بلادٍ كعربستان، –عربستان كما يوضح الروائي هي كل دولة عربية– فإن مفهوم الوطنِ يتحد مع العشيرة "الطائفة" التي فيها القوة والمنعة، في ظل غيابٍ للكثير من المسوغات التي تجعل من البلادِ العربيةِ مجتمعات مدنية حقيقية، تتوفر فيها الفرص بالتساوي. وهذا يعني أنه في أي مكانٍ من هذه الأرض تتوفر للإنسان الصحبة، والعائلة والقوة والمنعة والحماية، سواء عبر من حوله من الناس أو من خلال القانون والدولة، فإن ذلك المكان هو الوطن، الذي سيذكرُ بأيام الصبا الجميلة كما أراد ابن الرومي والبروفسور، فما جدوى الوطن وهو لم يوفر لك يومًا طيبًا ولا غذاءً طيبًا، ولا أمنًا ولا سلامًا؟! ولا شيء إذًا يمنع من تركه للنجاة بالحياة الباقية للإنسان وهدفه فيها، وإلا لما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم، أحب البلاد إليه، ولَما قام الإسلام في أساسه على الهجرتين، ليعود الرسول لمهجره الذي آواه ونصره حتى بعد الفتح، ويكون مماته فيه ومدفنه فيه، فلا غربةً في هذه الحياة سوى غربةِ النفسِ لا غُربة الأوطان.

فلسفة السعادة:

لقد أولى بروفسور العصفورية هذه القضية قدرًا من الأهمية، فتتبعها عند الفلاسفة وغيرهم، لأجل الوصول إلى ماهيتها. "وضعت لنفسي الهدف ووقعت في حيرة. ما هي السعادة؟! حاول كل الفلاسفة وكل الشعراء وكل الأدباء الإجابة على هذا السؤال ولم يوفق أحد، حسب علمي المحدود، باستثناء أصدقائي

[1] العصفورية، ص172.
[2] سبعة، ص320.

وأصدقائك الأمريكان. وأبو حسيد أدلى بدلوه بين الدلاء. عزا السعادة في أكثر من قصيدة إلى البلادة. "يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن". "تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافلٍ". "ذو العقل يشقى في النعيم بعقله". ولكن إياك أن تصدق كل ما يقوله أبو حسيد. لو كان صادقًا في نظرية البلادة لما قال: "لولا العقول لكان أدنى ضيغم * أدنى إلى شرفٍ من الإنسان""[1] فها هو البروفسور يعارض أكثر من أحب من الشعراء على الإطلاق "المتنبي" في فلسفته للسعادة، إذ يرى المتنبي أن السعادة في البلادة والبلاهةِ والجهالةِ وعدم فهم الإنسان يدور من حوله، لكن الراوي ينقض رؤية المتنبي من خلال شعر المتنبي نفسه، فهو يقول ما معناه: أنه لولا العقول التي حبا الله بها البشر لكان أدنى حيوانٍ عضّاض هو أقرب للشرف من الإنسان، وصدق في ذلك فالله يقول: {ولقد كرّمنا بني آدم}[2] ومن أكثر الأشياء التمييزية لدى الإنسان عن الضياغم هو العقل، إذًا فالسعادة لا تكمن في فقدان تلك النعمة التي لا تقدر بثمن.

ويمضي الراوي يتتبع آثار من أدلوا بدلائهم في قضية السعادة من الفلاسفة إلى الشعراء، حتى القساوسة[3]، "هناك عشرات النظريات، يا نطاسي، السعادة بنت الإيمان. السعادة بنت الشك. وهذه نظرية صديقي طه حسين وإن كان لم يعبّر عنها بهذا الوضوح. السعادة بنت الشجاعة. السعادة بنت المعرفة ... "[4] ليصل البروفسور في النهاية إلى قناعته حول السعادة بعد رحلة بحثه الطويلة عنها. "اسمح لي الآن، أن أنهي فلسفتي المتواضعة عن السعادة. يمكن تصنيف كل نظريات السعادة ضمن قِسمْين رئيسيْين. القسم الأول يذهب إلى أن السعادة تعني قهر اللذة وكبت الرغبات. تستطيع أن تعتبر هذا المذهب مدرسة المفكّرين القدامى. أما القسم الثاني فيذهب، على العكس، إلى أن السعادة هي ممارسة اللذة وإشباع الرغبات. وهذا هو مذهب المفكّرين المحدثين في القرنين الأخيرين. هناك استثناءات ولكنها لا تستحقّ الذكر. عندما قرّرت مطاردة السعادة أوليت الموضوع قسطًا كبيرًا من الاهتمام وانتهيت إلى أن خير الأمور الوسط. لا إفراط ولا تفريط. لا بوهيمية ولا رهبانية."[5] تلك كانت فلسفة القصيبي خلف قناعه الموسوعي البروفسور، في رواية العصفورية، حول فلسفة السعادة، الوسطية، حيثُ لا إفراطٌ ولا تفريط، لا كبتٌ للّذات والرغبات، ولا إطلاقٌ لها، بل إعطاء الروح نصيبها من الإيمان والسكينة إلى جنب الله، مع عدم نسيان نصيبها من المتعة والحب والحياة والسرور والهناء.

فلسفاتٌ في الدين:

والحقيقة هي ليست فلسفات، بل قناعات ومسلمات في بعض أحوالها، ولكن وقع ذلك العنوان في باب الفلسفة، لأن الإشارات السريعة التي سيشير إليها الباحث، قد جاءت في مجملها للرّد على المتفلسفين والمتكلمين في الدين.

---

[1] العصفورية، ص149.
[2] الإسراء، 70.
[3] انظر العصفورية، ص150-151.
[4] العصفورية، ص151.
[5] العصفورية، ص157.

فهو يبدأ بالحديث عن المعتزلة بسؤاله الطبيب النفسي عنهم: "هل تعرف المعتزلة؟ – قرأت عنهم قليلًا. –أمّا أنا فقرأت عنهم كثيرًا. أحيانًا يسمّونهم روّاد المدرسة العقلية. وهذا اسم مضلّل بعض الشيء فالآخرون ليسوا من المجانين ... وأحيانًا يسمّونهم روّاد حرية الإرادة. وهذا بدوره اسم مضلل بعض الشيء. عندما وصلوا إلى السلطة فرضوا آراءهم على الناس بالعنف. أين ذهبت حرية الإرادة؟ طارت الحرية من الشباك عندما دخلت السلطة من الباب ... تحولت المدرسة العقلية إلى مدرسة قمعية"[1]. فهو يبدأ مباشرةً بالنقد لتلك الفرقة الكلامية، والتفنيد لما يطلقوه عليهم من مسمّيات، ويحاول أن ينصفهم بعد ذلك "المعتزلة كانوا فرقة من فرق المسلمين. لم يكونوا ملائكة كما يرى أنصارهم، ولا كانوا شياطين كما يرى خصومهم. شطّوا، وقادهم الشطط إلى مواقف خاطئة"[2] فالراوي يقف موقفًا وسطًا فيهم، وأنهم في النهاية من المسلمين، لكن الصواب جانبهم في بعض أمورهم. "شطّوا في مسألة العدل فأرادوا أن يطبقوا على الخالق معايير المخلوق. قالوا إن العدل يوجب على الله سبحانه وتعالى أن يعذب مرتكبي الكبائر الذين يموتون قبل التوبة. وهذا كلام منكر، يا دكتور. منكر جدًا! يكاد يصل إلى الكفر. لولا أنّني لا أكفّر أحدًا من أهل القبلة. خذ موضوع الذنوب. الخالق يعرف عنه ما لا يعرفه المخلوقون. إذا عفا عفا بعدل وإذا عذَّب عذَّب بعدل "يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء" ... لو أنهم آمنوا أن عدل الله يعني أن تكون كل أعماله عدلًا لما دخلوا في هذه المتاهات، وجرّوا خلفهم الفكر الإسلامي."[3] يتناول الراوي هذه القضية بكل وضوحٍ في الرؤية، وبساطةٍ في الطرح، ووسطيةٍ في الحكم، فما على أولئك المعتزلة وغيرهم فيما أفرده الله لنفسه، وهو مصير العباد في الحساب والعقاب، وهو القائل جلّ في علا: {إن تعذبّهم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}[4] فمن آمن بالله وصفاته إيمانًا لا يخالطه الشك والريبة، سلّم بمراد الله من آياته، وليس من المنطق في شيءٍ أن أصل لكل شيءٍ في الدين والتفسير والتأويل، فإن مقتضى الإيمان بالله، يوصلنا في بعض النقاط إلى متاهاتٍ ومبهماتٍ لا يدركها العقل البشري ولا يملك لها إجابة، ومن مقتضى الإيمان بالله أن نسلِّمَ بما أنزل الله على رسولهِ على مرادهما فيما عجزنا عن فهمه وتأويله، وإلا فما فائدة كون الإنسانُ مسلمًا مؤمنًا، إن أراد أن يُخضِعَ كل شيءٍ للمنطق، فأين الإيمان وأين التسليم بالغيبيات؟ وإن كان الأمر كما أراده المتكلمون والمتفلسفون بالدين، أنَّ كل شيءٍ يمكن إخضاعه للمنطق وعلم الكلام، فتلك هي المتاهات التي يتحدث عنها البروفسور بحق، ولن توصل الإسلام إلا إلى مزيدٍ من الشطط والفِرق والتي جاءت من التفرق والتشظي وإضعاف جبهة الإسلام.

ثمَّ يمضي في الحديث عن بعض الفرق الأخرى، وما شطّوا فيه من أمر الدين[5]، ويصل إلى نقطةٍ جدليةٍ تتعلق بالأخلاق وعلاقتها بالدين، ليقرر أنه: "لا يوجد نظام أخلاقي بمعزل عن الدين، لا يمكن أن توجد معايير أخلاقية. عندما تصبح متديّنًا، يمكن أن تدينني أخلاقيًا."[6] فيعترض الطبيب بدعوى أنه يمكن أن

[1] العصفورية، ص152.
[2] العصفورية، ص152.
[3] العصفورية، ص152.
[4] المائدة، 118.
[5] انظر العصفورية، ص157.
[6] العصفورية، ص194.

يكون الإنسان ملحدًا ولكن أخلاقه عالية، فيرد البروفسور أن تلك لغة فرويد، وما هي إلا كلام فاضي، ويبدأ في توضيح المسألة. "كل الفلاسفة الذين حاولوا تطوير فلسفة أخلاقية بمعزل عن الدين وقعوا في حيص بيص ... بدأً بالعم أفلاطون اليوناني وانتهاءً بالأعمام المنفعيين في هذا القرن. أفلاطون غير المتدين اضطر، في نهاية المطاف، إلى إقحام الآلهة في حكاية الخير والشر. زعم أنه يمكن تبيّن الخير كحقيقة قائمة بذاتها، ولكنه أتى بالآلهة، زيادة في الاحتياط. والمنفعيون في هذا الزمان قالوا إن العمل الأخلاقي هو الذي يحقّق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس. يا سلام! هذا هو العمل الأخلاقي ؟ ربما سبّبت إباحة الزنا مثل هذه السعادة. أو إباحة المخدرات. بهذا المقياس، يصبح كل شيء أخلاقيًا، إذا ارتضت الأغلبية."[1] فيتفلسف البروفسور على المتفلسفين لينقض ما يقولون بشكلٍ منطقي، فالخير والأخلاق بالنسبة له ليست حقيقة قائمة بذاتها وحسب، ولا الأخلاق هي التي تحقق السعادة للناس وذلك بيّن في سرد الراوي ولا يحتاج لتفسير.

يستمر البروفسور بعد ذلك في سردٍ طويل يطّوف به على الفلسفات المتعددة، وفلاسفتها المختلفين، ليصمم على ما جاء به من أنه لا أخلاق بدون دين. "بدون دين، يا حكيم، لا يمكن أن توجد أخلاق. يمكن أن توجد نظريات. ويمكن أن توجد مناقشات سوفسطائية."[2] أي مناقشاتٍ جدلية فحسب.

أما عن علاقة الفلسفة بالدين، فإجابتها لدى فيلسوف سبعة. "أشكر للسائل الكريم غيرته على الدين وأوجّه عنايته إلى أن الفلسفة تعايشت مع الدين منذ آلاف السنين ولم يقض أحد منهما على الآخر. بعد ذلك أقول لسيادته إن كل الفلاسفة المسلمين كانوا يستهدفون إقامة أدلة عقلية على وجود الله عزّ وجل، دلائل تضاف إلى الأدلة النقلية ولا تعارضها، وفي هذا المجال يقول الكندي إن الفلسفة "علم الحق الأول الذي هو علة كل حق". ونظرية ابن رشد بأكملها قائمة على وجود "المحرك الأزلي". وفي المسيحية كاد الدين أن يندمج نهائيًا مع الفلسفة مع القديس سانت توماس الأكويني والفلاسفة المدرسيين"[3] جاء ذلك الرد على الدكتور الأرناؤوط، الذي حاول إحراج الدكتور الفيلسوف جمال الدين على الهواء، خلال البرنامج الذي تقدمه جلنار، في تساؤله عن إثبات عدم تعارض الفلسفةِ مع الدين، فكان لا بد للفيلسوف من ردٍ مقنعٍ وإلا سقط وسقطت الفلسفة لدى شريحةٍ كبيرةٍ من العربستانيين، فالبرنامج واسع الانتشار في عربستان. أما عن الفلسفة التي يقصدها الدكتور جمال، فهي التي توصل إلى الحق، لأجل الحق، وليس الفلسفة التي ينتهجها المعتزلة كما جاء أعلاه.

فيلسوف سبعة:

لقد كثرت التجليات الفلسفية في روايات القصيبي، لا سيما روايته العصفورية، مما لا مجال فيه لتناولها في هذا الحيز المحدود من البحث، فما يريد أن يوصله الباحث، هو أن الفلسفة كغيرها من

[1] العصفورية، ص194.
[2] العصفورية، ص195.
[3] سبعة، ص84.

المجالات، قد نالت نصيبها من النقد الروائي القصيبي. وذلك لا يعني بحالٍ من الأحوال أن يمرَ الباحث عن فيلسوف رواية سبعة، مرورًا عابرًا دون وقفةٍ تبين فلسفته، في مشهدٍ كاملٍ من المشاهد السبعة التي تناولها الروائي في روايته.

يبدأ الراوي حديثه عن فلسفته بقوله: "قال من قال، ذات يوم، هازئًا: "أرى حولي أساتذة فلسفة كثيرين، ولا أرى فلسفة""[1] وهذا معناه، أن الموجودين في الجامعات والمعاهد من أساتذة الفلسفة، ما هم إلا ناقلين للفلسفة، وليسوا بالفلاسفة، وأنه وحده الفيلسوف في أمة العرب. "وصلت فلسفتي إلى الغرب، وأصبحت تدرس في جامعات أمريكا وأوروبا باسم "اكيلكَسسزم"[2]. أستطيع أن أقول، بلا تواضع كاذب، اني الفيلسوف الحقيقي الوحيد في الأمة العربستانية كلّها"[3] فهو ينفي الفلسفة عن غيره، وإن وُجدت فهي فلسفةٌ صوريةٌ شكلية، وليس حقيقيةً كفلسفته، بدليل أنها وصلت الغربَ، وأصبحت تدرّس في جامعاته.

ويبدأ بسرد المبررات التي دعته للتفكير في إنشاء نظريته الفلسفية والخروج بها، وذلك أثناء محاضرةٍ له يلقيها على طلبة الدبلوم. "لو استعرضتم تاريخ الفلسفة لوجدتموه يتكوّن من مذهب يقوم على أنقاض مذهب، فيلسوف يقتل فيلسوفًا –أعني يقتله فكريًا– ليقدّم نظريته محلّ النظرية المقتولة. هذه قصة الفلسفة منذ ولادتها إلى هذه اللحظة. في المعرفة، هناك نظرية تقول إن الوصول إلى المعرفة أمر ممكن سواء باستخدام الطريقة البدهية أو التجريبية ... "[4] يمضي الفيلسوف في استعراض تاريخ الفلسفة والمدارس الفلسفية المختلفة، بمسمياتها وفلاسفتها ونظرياتها، لكي يصل بالمتلقي إلى نظريته التي أنشأها ويرتضيها. "في كل العلوم يبني كل عالم على ما اكتشفه أسلافه، وتنمو العلوم بطريقة تدريجية تراكمية، باستثناء الفلسفة. في الفلسفة لا ينمو شيء إلّا بهدم شيء. هذا ما دعاني بعد التفكير والدراسة إلى الخروج بنظريتي التي عُرفت واشتهرت باسم الانتقائية."[5] فهو سيخالف الفلاسفة كلّهم، ولن يضطر إلى قتل أيٍ منهم –فكريًا– فهو يثبت جهودهم. "يمكن تلخيص النظرية ببساطة شديدة، كل الفلاسفة على حق، وكل الفلاسفة على باطل (ضحك). أساس النظرية أن المعرفة ظاهرة معقّدة جدًا لا يمكن أن تنقاد لنظرية واحدة. من هذا المنطلق، حاولت أن أنتقي من كل فيلسوف جزءًا من نظريته دون بقية الأجزاء ... كل فيلسوف لديه جزء محدود من الصواب وجزء غير محدود من الخطأ. والطريقة العلمية تقتضي الأخذ بالجزء الصحيح وطرح الجزء الآخر على أن يتم ذلك على نحو منهجي..."[6] عندما يبدأ بطرحٍ مختصرٍ لنظريته، يضحك الطلاب، ليس ضحك السخرية أبدًا، بل ضحك الإعجاب والاهتمام، "استمع الطلبة والطالبات بانتباه عميق لم تقطعه سوى الضحكات. في نهاية المحاضرة، جاء رد الفعل المعتاد كلما تكلّمت عن نظريتي، التصفيق الحاد!"[7] فهو يعتقد أنه لا يجب أن نردم الفلسفات القديمة، بل يجب أن يُؤخذ منها الصواب، وتجميعه في نظريةٍ واحدة، والسؤال الفلسفي

---

[1] سبعة، ص73.
[2] الانتقائية.
[3] سبعة، ص73.
[4] سبعة، ص74.
[5] سبعة، ص74.
[6] سبعة، ص74.
[7] سبعة، ص74.

الذي ينبني على تلك النظرية، أن الصواب بالنسبة للفيلسوف جمال، ربما هو ليس بصوابٍ لغيره! إذًا فلا تزال نظريته تدور في فلك النظريات الفلسفية الأولى.

خلال اللقاء مع جلنار في برنامج المشاهير "عيون العالم عليك" انهالت الاتصالات بعشرات المداخلات والتساؤلات الفلسفية، التي أجاب عنها الفيلسوف العربستاني جمال الدين، بكل تمكن، وقد كانت تلك التساؤلات في مجالاتٍ فلسفيةٍ متنوعة، ومتعددة، لم يَعيَ الفيلسوف في الإجابة عليها[1]، وتأويل صياغتها فيما يربو على العشرة صفحات، في حُلةٍ فلسفيةٍ بحتة، تُرضي السائل والجمهور، وجلنار الصعبة الإقناع. بل ويجعل ذلك الأمر ممتعًا على خلاف العادة في ذلك البرنامج الذي يخشاه جميع ضيوفه. "جلنار –دكتور جمال! بودي أن نواصل هذه الرحلة الفكرية الممتعة إلّا أن الوقت انتهى ... وإلى اللقاء مع ضيفٍ مثيرٍ آخر."[2] يتلقى الفيلسوف عشرات المكالمات التلفونية لتهنئته على نجاح مقابلته، لكن فكره ينحصر في تلك اللحظة بجلنار. "ضيف مثير آخر؟! إذن، كنت ضيفًا مثيرًا لدى أعظم الجميلات إثارة؟ هذه الفكرة، في حد ذاتها، كافية لجعلي أمشي على الهواء."[3] عرض الراوي ذلك كله ليثبت تمكنه من الفلسفة ومداخلها، وهذا بدوره ينعكس بالقول الإيجابي على الروائي الفيلسوف صاحب الثقافة الموسوعية.

في نهاية سبعة، توظف جلنار تلك النظرية في تأويلها للواقع العربي. "فيلسوف العربستانيين الأوحد، الذي أتى بما لم تستطعه الأوائل. نظريّة عربستانية فلسفية. الانتقائية! ألا تعبّر هذه الفلسفة، بدقة مدهشة، عن وضع الأمة العربستانية الحقيقي؟ الأمّة التي تنتقي سياراتها من اليابان. ومربّياتها من الفيلبين. وحرسها من أمريكا. وجلّاديها من إسرائيل. وأحذيتها من إيطاليا. وطغاتها من داخلها ..."[4] فأي أمة تلك التي لا تتحكم في مصائرها، ورزقها مقدراتها، علاوةٌ على أنها لا تأكل ولا تلبس شيئًا من صنعها، بل وتستورد كل شيءٍ من غيرها.

"الأمة المنتقية. الأمة الانتقائية. التي عبّر فيلسوف باشا عن روحها كما لم يفعل أيّ مفكّر عربستاني آخر. روحها الحقيقية. المتوارية. التي يعجز حتّى الشعراء عن الوصول إليها ... ألم يعبّر عن أعمق النزعات العربستانية؟ الانتقاء. الخيار السهل."[5] لقد وصل الروائي أخيرًا إلى توصيفٍ للأمة العربية المستلبة، عبر الفلسفة الانتقائية، التي تبين مشكلة العرب الحقيقية، في أنهم أخضعوا كل شيءٍ له علاقة بهم، لإرادة غيرهم وليس لإرادتهم، وعطّلوا كل شيءٍ آتاهم الله إياه حتى قرآنهم وإسلامهم، وتاريخهم وحاضرهم، ومستقبل أبنائهم، وجعلوه مرهونًا بأعدائهم، وممتصي دمائهم.

كانت تلك آخر محطةٍ من التجليات النقدية في روايات القصيبي الرائدة في كثير من المجالات الإنسانية والمعرفية، حيث الأدب والسياسة، والإدارة، والاجتماع، وعلم النفس، وأخيرًا الفلسفة، مما تم تناوله في هذه الرسالة.

---

[1] سبعة، ص78-89.
[2] سبعة، ص89.
[3] سبعة، ص89.
[4] سبعة، ص330.
[5] سبعة، ص330-331.

الخاتمة

الخاتمة:

ألفٌ ومائتان وثمانون صفحة، كانت تعداد صفحات الروايات الأربعِ – موضوع الدراسةِ – لغازي القصيبي، "شقة الحرية" "العصفورية" "دنسكو" "سبعة"، حيث اختيرت هذه الروايات لتعطي نموذجًا يُمثل أعمال الروائي أحسن تمثيل، وذلك من ضمن الكثير من الأعمال الأدبية والروائية –على وجه الخصوص– التي ألّفها الروائي، ليقع الاختيار على تلك الأعمال لبحثها وتتبعها بالدرس والتحليل، إذ أنها اشتملت على أغلب المواضيع التي تناولها الروائي في رواياته، لتكون عينة شاملة تمكن الباحث من خلالها من الكشف عن تجليات الخطاب النقدي المعرفي للروائي من خلال رواياته.

لقد عرضت هذه الدراسة لقضيةٍ هامةٍ وبارزةٍ في روايات القصيبي، لم تعطَ حقها من الاهتمام الكافي في البحث والتنقيب، وهي رؤيته النقدية للحياة في مجالاتها المختلفة والمتنوعة، من خلال الروايات المذكورة أعلاه، وتبرز قيمة هذه الرؤية من خلال صدورها عن شاعرٍ وكاتبٍ وأديبٍ موسوعيٍّ مثقف في مختلف مجالات الحياة، وذلك عبر حياةٍ حافلةٍ بالخبرةِ والاطلاعِ في شتى المجالات.

إن تجليات الخطاب النقدي الروائي عند القصيبي من الخطابات الحضارية الإنسانية المتطورة عبر مراحل روائية مختلفة، فالراوي وجد في الرواية وسيلة مهمة لبث وجهة نظره النقدية للمجتمع بجميع أفكاره الأيديولوجية، سواء في الأدب وقضاياه أو السياسة أو الاجتماع، وحتى الإدارة وعلم النفس والفلسفة.

فنجده دائم الإصرار طرح مثل هذا النوع من الخطابات وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أهمية الخطاب النقدي الروائي الذي يريد القصيبي طرحه، وذلك من خلال رواياته.

لقد انتهت هذه الدراسة إلى أن للقصيبي رؤيةً نقديةً خاصة في الحياة ومجالاتها المختلفة، وتوصيفًا دقيقًا للأزمة التي يعيشها العالم العربي، توافق تلك الرؤية الواقع المعيش، والمنطق في تتبع تلك الأزمة وطرق علاجها المقترحة، بما يتوافق ومقترحات العلوم المختلفة، لتنمية أي قطرٍ يعاني من التخلف والجهل والتراجع في كافة المستويات الحياتية، ومقابلة تلك المقترحات بوضع الأمة العربية.

لقد كان للقصيبي رؤيةٌ خاصةٌ للرواية، حيث وجدها سبيلًا معقولًا لتحمل لأوى الحياة ومشاكلها، ولتحمل أعباء الذكريات الطويلة كذلك، وهموم أمته وطرق العلاج وسبل النجاة، فلم يكد القصيبي يترك زاويةً من زوايا الحياة، ولا عنصرًا من عناصرها إلا وتعرض له بالعرض والتفصيل، وكان حديثه ينبع من إحساسه الذاتي في الغالب، الذي نما وتفتح من خلال خبرته وتجربته الطويلة، ولم يكن يأبه كثيرًا بالآراء التي قد تخالفه، فقد كان يعرض آراءه بكل جرأةٍ وشجاعة، فلم يمنعه منصبه من نشرها، أو ما قد يترتب على ذلك النشر ممن يعارضوه، حيث وقع في مواجهاتٍ عديدةٍ مع رموز الصحوة–من رجال الدين– في المملكة، وقُدمت في حقه العديد من الشكاوى، لتحظر الكثير من أعماله لمدةٍ طويلة من الزمن، وتمنع من دخول المملكة وبعض الدول العربية، حتى زال المنع عن بعضها قبل سنواتٍ قليلة من وفاته.

في النهاية يزعمُ الباحث أن كل روايةٍ من الروايات موضوع الدراسة، قد أخذت حقها في المشاركة في مباحث الرسالة، لكن بتفاوتٍ لا بد منه، ف"دنسكو" مثلًا كان وجودها هو الأكبر في الحديث عن المنظمات

الدولية، بينما كان وجودها أضعف في باقي المباحث، في حين كانت العصفورية الملكة التي أخذت بتلابيب البحث بحكم موسوعيتها، ليقر الباحث بموسوعيتها، وعدم إمكانية إخضاعها لأي تصنيف قد يحجر من محتواها ويحجمه، سواء التصنيف السياسي أو الفلسفي أو النفسي وحتى الأدبي، وكان لشقة الحرية وسبعة ذلك التدخل الوسطي في كل المباحث بالنسبة للروايتين السابقتين، ليخلص الباحث من ذلك كله، إلى أن القصيبي قد استحق صفة الناقد الموسوعي في المجالات المختلفة من الحياة، وأن رواياته قد شكلت مفهومًا نقديًا دقيقًا لشتى القضايا الإنسانية بعامّة والعربية بشكلٍ خاص، وذلك من وجهة نظر مبدعها.

وفيما يلي ملخص أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

- للقصيبي رؤية نقدية خاصة للحياة، استطاع أن يطوع الفن الروائي ليقدمها ويعرضها من خلاله.
- استطاع القصيبي أن يعطي توصيفًا دقيقًا للأزمة التي يمر بها الإنسان العربي، من خلال سرده الروائي.
- يمكن تصنيف بعض روايات القصيبي بأنها روايات موسوعية كالعصفورية بالدرجة الأساس، ثم رواية سبعة، إذ أنها تعرضت تقريبًا لكل مواضيع الحياة ومشاكلها.
- استفاد القصيبي من أسلوب الجاحظ في رواياته، فمن خلال توظيفه للاستطراد بكثرة في رواياته استطاع أن يعرض وجهة نظره في العديد من القضايا المتعددة.
- كي يستطيع أي باحث دراسة روايات القصيبي، لا بد له من أولًا من تفكيكها، ثم إعادة تجميعها وتصنيفها بناءً على المواضيع المختلفة، كي يمكن تفسيرها ليستطيع ال أن يحصل على نظرة القصيبي العامة في المجلات المختلفة.
- يرى القصيبي أن التخلص من البيروقراطية هو السبيل لتحقيق تنمية شاملة في مجالات الحياة المختلفة.
- للقصيبي نظرة فلسفية ضمنها خلال رواياته، ويعتبر أن علاقة وطيدة ما بين الفيلسوف والأديب.
- يرى القصيبي أن الديمقراطية هي السبيل للتخلص من الأزمة العربية، ليس على اعتبار أنها الحل الأمثل ولكن على اعتبار أنها أفضل أنواع الحكم الموجودة.
- استفاد القصيبي من علم النفس في معالجة مواضيع رواياته، كما أن لعلم النفس علاقة أساسية بالأدب.
- يرفض القصيبي الحداثة، ويرضى بالمعاصرة.

توصيات:

من أبرز التوصيات التي يقدمها الباحث، ما يلي:

- دراسة الحداثة في روايات غازي القصيبي
- دراسة العجائبية والغرائبية في روايات غازي القصيبي.
- دراسة التخييل النفسي والأدبي، في روايات غازي القصيبي.

- دراسة التناص في روايات غازي القصيبي.
- دراسة توظيف المثل الشعبي في روايات غازي القصيبي.
- دراسة لغة الرواية في روايات القصيبي.
- دراسة التكنيكات السردية في روايات غازي القصيبي.

أخيرًا لقد أثبت القصيبي صلاحية الرواية لكي تكون شاهدةً على العصر، وسبيلًا ليقدم الإنسان من خلالها نظرته للحياة والواقع، والحلول الممكنة لأزمة الإنسان المعاصر، دون أن يفسد ذلك فنية الرواية ولا يؤثر على تكنيكاتها السردية المختلفة، ودون أن يطغى الجانب المعرفي على الجانب الفني فيها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

قائمة المصادر:

1. غازي القصيبي، دنسكو، دار الساقي، بيروت، ط2، 2000.

2. غازي القصيبي، سبعة، دار الساقي، بيروت، ط1، 1998.

3. غازي القصيبي، شقة الحرية، رياض الريس للكتب والنشر، د.م.ن، ط5، 1999.

4. غازي القصيبي، العصفورية، دار الساقي، بيروت، ط3، 1999.

قائمة المراجع:

أولًا: الكتب:

1. ابن خلِّكَان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج:3، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1900.

2. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، د.ط، 1998.

3. أحمد أمين، النقد الأدبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.

4. أحمد فؤاد نجم، الأعمال الشعرية الكاملة، دار ميريت، القاهرة، ط1، 2005.

5. أسامة حرب، الأحزاب السياسية في العالم الثالث، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 117، 1987.

6. البارودي، ديوانه، تحقيق وضبط: علي الجارم، ومحمد معلوف، دار العودة، بيروت، د.ط، 1998.

7. باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية، المركز العربي للدراسات الإنسانية، د.م، ط1، 2005.

8. الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج،1، تح: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.

9. حافظ إبراهيم، ديوانه، ضبط وتصحيح أحمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، 1978.

10. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1999.

11. رجاء النقاش، صفحات من مذكرات نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2011.

12. الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق:محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2001.

13. سامي البدري، عتبة السلم الرملي (الفلسفة المفقودة)، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.

14. سلامة كيلة، الحاجة إلى حزب جديد– نقد التجربة التنظيمية الراهنة، د.د، د.م، د.ط، د.ت.
15. سليم مطر، المنظمات السرية التي تحكم العالم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001.
16. سمير التنّير، الفقر والفساد في العالم العربي، دار الساقي، بيروت، ط1، 2009.
17. سيد قمني، أهل الدين .. والديمقراطية، دار مصر المحروسة، القاهرة، ط1، 2005.
18. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط16، 2004.
19. طامي السميري، الرواية السعودية حوارات وأسئلة وإشكالات، دار الكفاح للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2009.
20. طه حسين، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.
21. طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، د.م.ن، ط13، د.ت.
22. طه مقلد، فن الإلقاء، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، د.ط، د.ت.
23. عادل سلامة، الأدب الانجليزي: دراسات وقضايا، دار المريخ للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1948.
24. عباس العقاد، التعريف بشكسبير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2013.
25. عباس العقاد، ساعات بين الكتب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.
26. عبد الحميد المحادين، من ذاكرة البحرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، د.ت.
27. عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2009.
28. عبد العزيز الميمني، أبو العلاء ما إليه ويليه رسالة الملائكة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص3 من التذييل غير المرقم لرسالة الملائكة في كلمة الناشر.
29. عبد الله المفلح، التفكير واللغة والتفاعل النفسي، د.د، د.م، د.ط، 2018.
30. عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 2013.
31. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسيّ للأدب، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط4، د.ت.
32. علي العقابي، العلاقات الدولية – دراسة تحليلية في الأصول والنشأة والتاريخ والنظريات، د.د، بغداد، د.ط، 2010.
33. عمر فروخ، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
34. غازي القصيبي، استجوابات غازي القصيبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، 2010.
35. غازي القصيبي، التنمية.. الأسئلة الكبرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1992.
36. غازي القصيبي، التنمية وجها لوجه، تهامة للنشر، جدة، ط2، 1989.
37. غازي القصيبي، العولمة والهوية الوطنية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، 2002.
38. غازي القصيبي، بيت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002.

39. غازي القصيبي، حديقة الغروب، مكتبة العبيكان، الرياض،ط1، 2007.
40. غازي القصيبي، حياة في الإدارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2.
41. غازي القصيبي، سيرة شعرية، تهامة للنشر والمكتبات، جدة، ط3، 2003.
42. غازي القصيبي، عن قبيلتي أحدثكم، منشورات دار الزمان، لندن، ط1، 2001.
43. فوزي الحاج، المسرحية والرواية والقصة القصيرة، كلية الآداب، جامعة الأزهر، غزة، ط2، 2013.
44. فوزي الحاج، غزو الغرب "رمزيًا" كتعويض، في روايات ما بعد الكولونيالية، كلية الآداب، جامعة الأزهر، غزة، فلسطين، د.ط ، 2017.
45. لمعي المطيعي، موسوعة نساء ورجال من مصر، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003.
46. لويس عوض، أقنعة الناصرية السبعة، دار الرُّقي، بيروت، ط1، 1987.
47. المتنبي، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط ، 1983.
48. محمد أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر "مصادره الغربية وتجلياته العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2014.
49. محمد الجعفي، صحيح البخاري، تح: محمد الناصر، دار طوق للنجاة، د.م، ط1، 2001.
50. محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، دار الشروق، القاهرة، ط10، 2001.
51. محمد عويس، أسلحة الدمار الشامل، مكتبة الأسرة، القاهرة، د.ط. 2003.
52. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مدينة السادس من أكتوبر، د.ط، 1997.
53. محمد منصور، الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2006.
54. محمود العجرمي، الدبلوماسية (النظرية والممارسة)، د.د، د.م، د.ط، 2011.
55. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجيه، دليل الحركات الإسلامية في العالم، العدد الأول، د.م، د.ط، د.ت.
56. مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
57. مصطفى محمود، أكذوبة اليسار الإسلامي، دار المعارف، د.م، ط2، د.ت.
58. مصطفى محمود، الإسلام السياسي والمعركة القادمة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.
59. المعري، رسالة الغفران، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتب، د.ط، د.ت.
60. منيب الساكت، وآخرون، أسلحة الدمار الشامل "الكيماوية – البيولوجية – النووية"، دار زهران للنشر والتوزيع، عَمّان، ط1، 2010.
61. ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، دار نوفل، بيروت، ط13، 2009.
62. نبيل سليمان، فتنة السرد والنقد، دار الحوار، سوريا، ط2، 2000.
63. يوسف نوفل، شاعر الشعب وشاعر النيل، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1997.

ثانيًا: كتب ومقالات مترجمة:

1. إيريك هوفر، المؤمن الصادق، ترجمة: غازي القصيبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، إمارة أبو ظبي، ط1، 2010.
2. جاك رانسيير، كراهية الديموقراطية، ترجمة: أحمد حسان، دار التنوير، بيروت والقاهرة وتونس، ط1، 2012.
3. جوان أوكسيلا، ضوء/دافع كتاب النبي...ظاهر جبران خليل جبران، ترجمة، عمرو علي زين العابدين،جريدة الراي، 2008، http://www.alraimedia.com/Home/Details?Id=7105b8b6-ea73-4703-b229-50a01de8e841.
4. جوزيف فرانكل، العلاقات الدولية، ترجمة: غازي القصيبي، تهامة، جدة، ط2، 1984.
5. جون جروس، سلسلة أعلام الفكر العالمي، جيمس جويس، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1975.
6. جيمس رايرسون، الفلسفة في الرواية، ترجمة: لطفية الدليمي، جريدة المدى، بغداد، عدد: 3376، 6-2-2015، https://almadapaper.net/Details/129053.
7. روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة: محمود الربيعي، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط.، 2000.
8. السونيتات الكاملة بالعربية والإنجليزية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الساقي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2011.
9. مارك كورتيس، التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين، ترجمة: كمال السيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012.
10. موريس دوفرجيه، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة: جمال الأتاسي، وسامي الدروبي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، د.ط، د.ت.
11. ميلان كونديرا، فن الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، د.م.ن، د.ط، د.ت.

ثالثًا: الرسائل العلمية، والأبحاث المحكمة:

1. حسن علوان، المرأة في شعر المتنبي، صحيفة دار العلوم، مصر، 1963.
http://hekmah.org/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A3%D8%A9-%D9%81%D9%8A-./%D8%B4%D8%B9%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%86%D8%A8%D9%8A

2. خالد الصرايرة، ومحمد القضاة، القيم البيروقراطية لدى الموظفين الإداريين العاملين في جامعة مؤتة وعلاقتها بأدائهم الوظيفي من وجهة نظر القيادات الإدارية فيها، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد 5، عدد3، 2009.

3. عبد الغفار شكر، الإصلاح الإداري وتحسين مناخ الاستثمار، سلسلة أوراق سياسات تعزيز الشفافية ومكافحة الفساد، مركز المشروعات الدولية الخاصة (CIPE)، القاهرة، 2009.

4. عبد الله الوقداني، البيروقراطية وإدارة المعرفة، ورقة عمل مقدمة للمؤتمر الدولي للتنمية الإدارية. الرياض، 2009.

5. علي المالكي، مفهوم الشعر عند غازي القصيبي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 2004.

6. علي منصوري، البطل السجين السياسي في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة دكتوراه، جامعة لخضر –باتنة– كلية الآداب، 2007.

7. عيضة القرشي، الرواية عند غازي القصيبي دراسة نصية، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2003.

8. فوزي الحاج، الرواية الموسوعية عند غازي القصيبي "العصفورية" نموذجا، بحث قابل للنشر في مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت.

9. فوزي الحاج، الرواية النفسية، مخطوط.

10. كريمة غيتري، تداخل الأنواع الأدبية في الرواية العربية المعاصرة "قراءة في نماذج"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، تلمسان، 2017.

11. محمد العجمي، القراءة الفلسفية تجربة وتحديات، ورقة عمل قُدمت في احتفال جمعية الكتاب والأدباء في اليوم العالمي للفلسفة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس،.
http://www.alfalq.com/?p=8893.

12. معاذ المناصير، الخطاب النقدي في الرواية العربية– الروايات الثلاثية نموذجًا، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2009.

13. نجم كاظم، كافكا في الرواية العربية والسلطة والبطل المطارد، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الأول+الثاني، 2010.

14. نورم كيلي، وسيفاكورأشياغابور، الأحزاب السياسية والديمقراطية من الناحيتين النظرية والعملية، المعهد الديمقراطي الوطني.

رابعًا: صحف ومجلات ورقية، وعلى مواقع الشبكة العنكبوتية:

1. أحمد الشريف، الشيخ زبير الشهير بـ"شكسبير" هل هو مصري أم سوري أم عراقي؟، اليوم السابع، 2015،
https://www.youm7.com/story/2015/5/23/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D8%B2%D8%A8%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%87%D9%8A%D8%B1-%D8%A8%D9%80-%D8%B4%D9%83%D8%B3%D8%A8%D9%8A%D8%B1-%D9%87%D9%84-%D9%87%D9%88-%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%89-%D8%A3%D9%85-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%89/2193785.

2. أحمد نظيف، خرائط البيروقراطية العربية، موقع رصيف 22،
https://raseef22.com/economy/2017/04/06/%D8%AE%D8%A7%D8%B1%D8%B7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B1%D9%88%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D8%AA%D9%81%D8%B1%D8%B6%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84/.

3. أمينة غصن، "حكاية حب" تحمل أصداء من رواية "العصفورية" غازي القصيبي الروائي يجعل من "بطله" فردًا يخاف الجموع، الحياة، 24-5-2001،
http://www.alhayat.com/article/1088254.

4. انظر، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، فيلم إحنا بتوع الأتوبيس،
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%AD%D9%86%D8%A7_%D8%A8%D8%AA%D9%88%D8%B9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AA%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%B3_(%D9%81%D9%8A%D9%84%D9%85(
.

5. جابر عصفور، أوجه أحمد شوقي، جريدة الأهرام، العدد:44163، 5 نوفمبر، 2007،
http://www.ahram.org.eg/Archive/2007/11/5/Writ2.htm.

6. جريدة الحياة الجديدة، دولة فلسطين عضو كامل العضوية في منظمة اليونسكو، العدد: 5746، 1-11-2011.

7. جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية المتعددة الأصوات، موقع الألوكة، 8-3-2012،

http://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/.

8. جميل حمداوي، الرواية السياسية والتخييل السياسي، ديوان العرب، 11-3-2007، http://www.diwanalarab.com/spip.php?article8092 .

9. خليل الربيعي، الازدواجية في سلوك الأحزاب السياسية، مؤسسة مدارك لدراسة آليات الرقي الفكري، http://www.madarik.net/mag2/2.htm.

10. رشيد طلبي، النقد الأدبي والفلسفة.. الحدود الوهمية والعلوم الحقيقية، صحيفة عكاظ، د.ع، 1-1-2016، https://www.okaz.com.sa/article/1036229.

11. سامي جريدي، تقاطع أم منافسة!! ارتباط الرواية بالفلسفة، صحيفة الرياض، عدد: 14346، 4-10-2007، http://www.alriyadh.com/284337.

12. شوقي بزيغ، القصيبي الذي ظلمه النقد، صحيفة الخليج الإلكترونية، 29-82-2010، http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/e7aebacf-f3e5-493c-8008-9290b3e46912#sthash.Yi2jXkEf.dpuf.

13. عادل الدوسري، الرواية الفلسفية، صحيفة الجزيرة، 23-1-2016، http://www.al-jazirah.com/2016/20160123/cu15.htm.

14. عبد الله إبراهيم، القصيبي والمتنبي، مجلة الرياض، عدد 16966، 2014، http://www.alriyadh.com/1000828.

15. عبد الله الغذامي، بنات الرياض – لعبة السرد، صحيفة الرياض، ع 13695، 22-10-2005، http://www.alriyadh.com/117271.

16. غازي القصيبي، جريدة الجزيرة، ع: 13674، 7-3-2010، http://www.al-jazirah.com/2010/20100307/ra1.htm.

17. غازي القصيبي، معركة اليونسكو: نجح المرشح وسقط العالم الثالث!، جريدة الحياة، 26-9-2009، http://ksa.daralhayat.com/ksaarticle/60180.

18. محمد السعد، تأديب الفلسفة أو الرواية الفلسفية، جريدة الحياة، 28-10-2014، http://www.alhayat.com/article/819001/%D8%AA%D8%A3%D8%AF%D9%8A%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8%A9-%D8%A3%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D9%8A%D8%A9.

19.محمد رشوان، لماذا يعد القصيبي من أهم أدباء العصر الحديث؟، موقع لماذا الالكتروني، 15-11-2017،
https://www.limaza.com/%D8%BA%D8%A7%D8%B2%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%A8%D9%8A/.
20.محمد كودي، المخزن وإشكاليات الاختفاء القسري، موقع الصحراوي الإلكتروني، 11مايو، 2017،
http://www.saharawi.net/?p=21283.
21.مكاوي سعيد، العصفورية نقد العقل العربي.. أم محاكمته؟!، مجلة الجزيرة الثقافية، ع 273، 5-3-2009،
http://www.al-jazirah.com/culture/2009/05032009/speuss49.htm.

يوتيوب:

1. برنامج "ميلاد" تقديم الإعلامي الكويتي: علي السند، مع الشيخ سليمان العودة، الحلقة الخامسة، 24-7-2012،
https://www.youtube.com/watch?v=eZnnzlHFF70.
2. شوقي ضيف، محاضرة في دار مجمع اللغة العربية في الزمالك، 2004،
https://www.youtube.com/watch?v=0nHE_sua6eg.
3. صلاح فضل، فيديو يوتيوب بعنوان ملامح الشعر العمودي العظيم، صالون ميس الأدبي، 2012،
https://www.youtube.com/watch?v=8HZcMb9_cOM.
4. غازي القصيبي، في مقابلة مع تركي الدخيل في برنامج إضاءات، نُشِرَت بتاريخ 11-9-2009،
https://www.youtube.com/watch?v=B58_vYNjA_k.
5. غازي القصيبي، محاضرة بعنوان: تجربة اليونسكو – دروس الفشل، جامعة البحرين، 2000،
https://www.youtube.com/watch?v=1TBQwnf2ENQ.
6. محمد رضا نصر الله، برنامج هذا هو، 1993،\
https://www.youtube.com/watch?v=3MxTEtWMowk
7. مظفر النواب، الحزن جميلٌ جدًا،
https://www.youtube.com/watch?v=IKvt0yWGK6o.
8. نزار قباني، فيديو يوتيوب، نُشر في 7-3-2015،
https://www.youtube.com/watch?v=SXlsw_Dw8aM.